

AMLY

رومف السب عى



الملكى



يوسف السباعي



الخف راحلة



للمؤلف

أطباق ...	(قصص قصيرة ١٩٤٧)	الناشر مكتبة الحانجي
نائب عزرائيل ...	(رواية ... ١٩٤٧)	» » »
اثنى عشرة امرأة ...	(قصص قصيرة ١٩٤٨)	» » »
خيال الصدور ...	(» » ١٩٤٨)	» » »
يا أمه نحكمت ...	(» » ١٩٤٨)	» » »
اثناعشر رجلاً ...	(» » ١٩٤٩)	» » »
أرض التفاق ...	(رواية ... ١٩٤٩)	» » »
في موكب الهوى ..	(قصص قصيرة ١٩٤٩)	دار الفكر العربي
من العالم المجهول ..	(» » ١٩٤٩)	مكتبة الحانجي
هذه النفوس ...	(» » ١٩٥٠)	دار الفكر العربي
إني راحلة ...	(رواية ... ١٩٥٠)	مكتبة الحانجي
ميكى العشاق ...	(قصص قصيرة ١٩٥٠)	دار الفكر العربي
بين أبو الریش	(قصص قصيرة ١٩٥٠)	مكتبة الحانجي
وجنية ناميش ...		
أغنيات ...	(قصص قصيرة ١٩٥١)	» » »
أم رتيبة ...	(مسرحية ... ١٩٥١)	» » »
هذا هو الحب ...	(قصص قصيرة ١٩٥١)	دار الفكر العربي
صور طبق الأصل ..	(» » ١٩٥١)	مكتبة الحانجي
بين الأطلال ...	(رواية ... ١٩٥٢)	» » »
استقامات ...	(» » ١٩٥٢)	» » »
عمار اللبالي ...	(قصص قصيرة ١٩٥٢)	دار الفكر العربي
الشيخ زعرب ...	(» » ١٩٥٢)	مكتبة الحانجي

خمسة من الإيمان . .	(قصص قصيرة ١٩٥٢)	الناشر دار الفكر العربي
وراء الستار . . .	(مسرحية ١٩٥٢ . . .)	مكتبة الخانجي
سنة نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)	» » »
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣)	دار الفكر العربي
البحث عن جسد . .	(رواية ١٩٥٣)	مكتبة الخانجي
جمجمة قتل الزوجات .	(مسرحية . . . ١٩٥٣)	النهضة المصرية
فديتك يا ليلي	(رواية ١٩٥٣)	مكتبة الخانجي
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)	» » »
همة غابرة	(» » ١٩٥٣)	دار الفكر العربي
رد قلبي	(رواية في جزئين ١٩٥٤)	مكتبة الخانجي
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)	» » »
طريق الوحدة . . .	(رواية ١٩٥٦)	الشركة العربية
أيام تمر	(مقالات ١٩٥٧ . .)	» » »
من حياتي	(» » ١٩٥٨ . . .)	» » »
لطائف وثقات . . .	(مقالات ١٩٥٩)	الناشر المكتب التجاري ببيروت
نادية	(رواية في جزئين ١٩٦٠)	الناشر مكتبة الخانجي
جفت الدموع . . .	(رواية في جزئين ١٩٦١)	» » »
أيام مشرفة	(مقالات ١٩٦١ . . .)	» » »
أيام وذكريات . . .	(» » ١٩٦١)	» » »
أيام من عمري . . .	(» » ١٩٦٢)	» » »
ليل له آخر	(رواية في جزئين ١٩٦٤)	» » »
أفوى من الزمن . .	(مسرحية . . . ١٩٦٦)	» » »
نحن لا نزرع الشوك .	(رواية في جزئين ١٩٦٨)	» » »
لست وحيداً	(رواية ١٩٧٠)	» » »

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الله

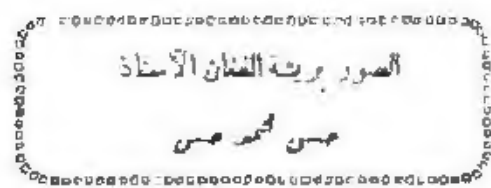
إلى أحب من وفى

وأوفى من أحب .

إلى الحبيبة الأولى :

أم « يسا » و « اسماعيل »

برسف السامى



مقدمة

الطبعة الأولى

جلست ذات مرة والمرحوم الأستاذ المازني ، في مسامرات الحبيب ، واذكر أن صاحب المجلة الأستاذ عمر عبد العزيز ، كان يعد العدد لإصدار عدد من المسامرات خاص بالقصة ، وأنه سأل الأستاذ المازني ، أن يكتب للمجلة قصة قصيرة

وقد أجاب الكاتب الكبير وقتذاك بأنه يكره كتابة القصة القصيرة ، ووجهه لي القول مداعباً بأنه يشفق عليّ من كتابة قصة كل أسبوع لأنه يعتبر القصة القصيرة عملية إجهاض ، وأن هذه القصة القصيرة المضغوطة المقضبة في بضع صفحات كان يمكن أن تستكمل نموها فتصبح قصة طويلة فائقة بذاتها ، وأنها لو تركت تنتضج وتستوى لأصبحت ثمرة شبيهة مغذية بدلاً من أن تقطف هكذا ، عجز ، وبدلاً من أن يجهض الكاتب نفسه فينزل القصة وهي ما زالت جثثاً .

ورغم أني لم أنفق مع الأستاذ المازني في رأيه تمام الاتفاق ، ورغم اعتراضى بأن القصة القصيرة شيء قائم بذاته ، وأنها رغم صغرها وانكماشها مخلوق مستكمل النمو ، وثمره تامة النتيج . . . رغم اعتراضى هذا . . . أشعر في كثير من الأحيان بمدى ما في قول المازني من الصحة . . . فإن الجهد الذي أبذله في كتابة قصة قصيرة ، مركزي في خلق الفكرة وبلجو ، لا في الاسترسال وسرد التفاصيل . . . فإن مجرد بداية القصة هو أشق ما فيها وأنى قد أستغرق يوماً كاملاً في كتابة الصفحة الأولى من القصة . . . وقد أجلس وأقوم . . . وأقوم

وأجلس ، وأمسك القلم فترة طويلة... ثم أترك الورق دون أن أكتب شيئاً .
فإذا ما كتبت الصفحة الأولى ودخلت في صميم القصة اندفع القلم يكتب بلا توقف
وملات الصفحة تلو الصفحة دون إحساس بأنى أفعل شيئاً ، ولا تصبح المدة
عندئذ في الكتابة بل في التوقف عن الكتابة .

فالمكان المخصص للقصة القصيرة في المجلة محدود ، ولا بد من ختامها بعد
عدد معين من الصفحات ... وهكذا أجد نفسى مضطراً إلى « فرملة » القلم ،
وإلى أن أتزعج نفسى من جو القصة وأختتمها في بضعة أسطر في الوقت الذى
أحس فيه أنه ليس أحب إلى من الاستمرار فى القصة .

ولذا فقد كنت دائماً شديد الحنين إلى أن أكتب قصة طويلة ... ولكن
الفرصة لم تتح لى ... فقد كانت الأعمال الكثيرة المتناقضة التى أخذت بها
نفسى تشغل كل وقتى ... وكان من العسير أن أجد فسحة من الوقت أضيئها
فى كتابة القصة الطويلة .

وهكذا ظللت حتى حل الصيف الماضى « صيف ١٩٤٩ » وسافرت إلى
الإسكندرية بعد أن توقفت لدى « بضع قصص قصيرة تريحنى من الكتابة بضعة
أسابيع ، وصحمت على أن أمضى هذه الأسابيع فى راحة تامة . وبدأت الراحة ،
وأنا مخلوق لم يتعود الراحة ، فوجدت الحنين إلى الكتابة يعاودنى ، ووجدتها
فرصة سانحة أستغلها لكتابة قصة طويلة .

ومضت بضعة أيام وأنا أحاول البداية حتى نجحت فيها . . . واندفعت
بعد ذلك فى الكتابة ، أعيش فى جو القصة وأرتع بين أبطالها .

وبدأت أتلقى اللوم عن حولى ... وقالوا لى لى فى أجازة ولست فى أشغال
شاقة ... وإن من الجنون أن أكتب عشر ساعات فى اليوم ... ولكنى

استمررت في الكتابة ، حتى أصابني الملل . وأنسكتني الجهد ، فكرهت الكتابة ،
وكرهت القصة ، وكرهت أبطالها ، وكرهت نفسي .

وحارلت أن أستعيد في ذهني ما كتب وأنا مجهد متعب ... فوجدتني
لم أكتب سوى مخافات ، ورأيت أن هذه القصة التي بذلت فيها كل هذا الجهد
مستكون أنها ما كتبت .

وتركت الكتابة ، وأخذت إلى الراحة .. وقلت لنفسي : إن كرهى للقصة
هو نتيجة الإفراط في الكتابة .

ومرّ يوم دون أن أكتب .. ولكني لم أكّد أحس ببعض الراحة حتى
عاودت الكتابة .

وأخيراً انتهيت من القصة بعد عشرين يوماً
أجل إن كتابتها لم تستغرق أكثر من عشرين يوماً ... فقد كان عليّ أن
أنهى منها قبل أن تنتهى الإجازة ... ويشغل كل وقتي بأعمال الداية .
ولست أدري مدى نجاحي في كتابتها ، ولا مداها من الجودة أو السخف .
فقد تركتها بعد كتابتها ، فلم أقرأها إلا مرة واحدة في برؤعات التصحيح قبل
الطبع ... ولقد شعرت في هذه المرة أنني قد أحببتها وأحببت أبطالها .
ورأيت لأجد في رضاءي عنها أول ثم ألقاه على ما بذلت فيها من جهد ..
أما بقية الثمن فهو رضاءكم أتمم ... فإن دفعتموه فيها وبعتم .
ولإلا ... فكما أني إعجابي بها ورضائي عنها . وأعفاني الله عنكم وعن رضاءكم
وإعجابكم ... إني قد كنتها أولاً لنفسي . ثم لكم .
والسلام عليكم ورحمة الله .

يوسف الباعى

مقدمة

الطبعة الثانية

كنت في مقدمة الطبعة الأولى قلقاً على مصير الكتاب بين الفراء وقلت
إني حصلت على بعض ثمن مجهودي فيه وهو إعجابي أنا به ، ثم تمنيت أن أحصل
على بقية الثمن وهو إعجابهم به .

وأكون ناكراً للجميل إذا لم أعترف بأني تافيت الثمن مضاعفاً ... وأن
القرءاء كانوا كرماء معي إلى أبعد حدود الكرم ... بل إلى أبعد مما أشعر أني
أستحق .

وقد تعود بعض الكتاب أن يرسموا كتبهم بأقوال التقدير والمدح من
ذوى الحيشية من الصحافة ورجال الأدب .. ولكنني أشعر أني فقير في هذه
المرصعات ... لست أدري لماذا ؟ قد يكون السبب هو أني لا أكتب أدباً ...
أو يكون لأن رجال الأدب لا يقرأون الأدب .

على أية حال . لقد أغثناني الله عن تقدير ذوى الحيشية بتقدير القارئ .
المميز المجهول ... التقدير النخلص الحار ، الخالي من النفاق والرياء ، الذي
لا يرجو ثمناً ولا يطلب رداً .

ورغم أني كنت أكره نشر هذه المرصعات ، ورغم أني كنت أعيب على
الكتاب أن يقدموا كتبهم بمدح في أنفسهم ... إلا أني أشعر هذه المرة برغبة
في المغامرة بشتر تقدير مجهول ترك في نفسي أبلغ الأثر .

دق التلفون في منتصف ذات ليلة ... وأنا أقطن في بيت عطور على أهله

التجول بعد التاسعة ... وعظرو عليهم اليقظة بعد العاشرة ... ودق التليفون في منتصف الليل يعني لديهم بيا بكارثة .. فلم يكذ الجرس يدق حتى هبوا جميعاً مذعورين من نومهم ... وكان أسبقنا إلى التليفون الخادمة د صلوحة ، ووقفت تصيح في الجامعة :

— آلو ... آلو .

دون أن يحبسها أحد .

وعدا إلى مضاجعنا بين السخط على الإزعاج الطارىء ، والحمد لله على السلامة من نتائج المحملة .

ولكننا لم نكد نصع رؤوسنا على الوسائد حتى عاد الجرس يدق .. فهبنا ثانية . وكان أولنا وصولاً إلا التليفون هو عمى .. ولكنه لم يفر من الطالب بإجابه .

وعدا إلى الفراش لنهب مرة ثالثة ون هذه المرة كنت أنا المجيب قلت :

— آلو ... آلو .

وأق إلى الصوت وجلالاتاً ناعماً متساوياً في ارتباك :

— الأستاذ يوسف الباعى ؟

وأخذت . ولكنى لا أملك سوى أن أجيب :

— أيوه يا فندم .

وأدرك أهل البيت من ردّى أن الطالب قد تحدث أخيراً ... وكما سبق القول لم يكن أحدهم يتوقع من مكالمه في منتصف الليل ... إلا أن يكون نياً وفاة .

وهكذا وقفت ممسكاً بالتليفون ، ومن حولي حاضراً محلفاً ، وزوجتي فاعز

قائما ، وحقا في فراشها لا تستطيع النهوض وتصبح في شبه ولولة .

— مين مات ؟

ومن الناحية الأخرى في التليفون أتى الحديث الناعم الوجمل يقول :

— أنا معجبة بكتاب قريتهولك ... وعازيه أبلغك إنجاني .

وأذعني قولها ... وأذهاني أكثر منه صبيحة زوجتي متسائلة في ذهنه .

وقد فقد صرعا :

— حد جراه حاجه ؟

وأبعدت الساعة عن في وطمأنتها بقول :

— لا ...

— أمالي إيه ١٩ مين بيتسكلم ؟

ولم أجد بدأ لطمأنتهم على أن أحدا لم يمت من أن أقول الحقيقة فأجيبها

والساعة بعيدة عن في :

— دي واحدة معجبة .

وصاحت (زوجتي غير مصدقة :

— من بمكي ... انت بتكذب .

وكان تكتفيها لي معقولا ، ما ماي نقل أناء السوء قد عودتهم الكذب ..

فقد سبق في موقف مشابه لهذا أن أنست في التليفون عن أخبار وفاة فأنكرتها

عليهم حتى الصباح حتى أجانبهم المماجأة وحزن الليل وسهره .

وعلى ذلك فقد أيقنوا من قول أن المتحدث معجبة هو من باب الكذب

ولإخفاء أخبار الوفاة ، وأصروا جميعا على أن المتحدث يبلغي عن وفاة

عزيز لدينا

وصحت أؤكد :

— قولتكم واحده معجبه .

وعاد الإنكار :

— مشر ممكن ... انت بتكذب .

ومنفت ذرعاً ... ولم أجد من وسيلة للتأكيد خيراً من أن أعطي الساعه

لزوجتي لتسمع بنفسها حديث المعجبه .

ولكن المعجبه لم تحب ، وأخيراً لم تجد بداً من إعادة الساعه إلى موضعها .

وعدنا إلى الفراش ... ولكننا لم سكند فقمض أعيننا حتى دق التليفون

مرة رابعة ، وفي هذه المره أمسكت زوجتي بالساعه ... ودون أن تقول : آلو .

ودون أن يجيبها أحد .. انتهت في حلق بالسباب على المتحدثه .

وأخذت منها الساعه ... وقلت لها مهديتا :

— مافيش داعي للتثنيه ... لأنها لو كانت بتعاكس فالتثنيه حاتجلبها

تمند وفضل تماكس طول الليل ... سبها لي أنا أكلها بالفوق .

وأمسكت بالساعه وقتت في صوت هادي :

— آلو ...

وأجابني الصوت الرقيق معاتباً :

— برصه دا يصح أنتم التثنيه دي كلها ؟

— وبرصه يصح إنك تطلبي واحد في نص الليل علشان تقوليله

إنك معجبه ؟

— أنا متأسفة ... أنا أحلى لسه مخلصه الكاب طوقت ، ومفوتش

أحوش نفسي ... إمتي أقدر أكلبك ؟

— في أى وقت في النهار ... أو ابعث جواب زى كل اللي بيعتروا .

— أبعت على فين ؟

— على البيت ... على المكتب ... على المجلة ... زى ماتحي .

ثم أمليت العنوان .

ولم تعجب زوجتي بالطبع تلك الطريقة المترفقة في الحديث ... ولا أعجبا
أن أطلب منها الكتابة وأعطيها العنوان .
وبعد يومين وصلني الخطاب التالي .

عزيزي

« تحياي وإعجابي الذي لا حد له ولو أنك لا تعرفني ، ولا أظن أنك ،
« تهتم بمعرفتي إلا بمقدار ما يكون بين كاتب وقاوي- له ، لذلك اسمح لي أن ،
« أخفي عنك شخصيتي ، إنما أكتب إليك معتذرة عما كان مني ليلة أول ،
« كلمتك في التليفون ، وحتي أنني كنت متدعة إلى البحث عنك وسماع ،
« صوتك بموارحي وشعوري وماي ثمن بعد أن انتهيت من قراءة ،
« قصتك (إني راحلة) ، ولعل لك بعض الذنب في ذلك إذ أنك أخرجتني ،
« عن وعي ، وأفقدتني كل سيطرة على نفسي ، وبالرغم من كثرة الأصوات ،
« التي توالى في الرد علي فقد هدأت قلبي إلى معرفتك ، ولوم يكن لك بي ،
« سابق معرفة ، فقد كان لإبداعك ما أخذ بمجامع قلبي ، وأشعرتني ،
« أن هذا ليس بالخيال ، وإنما هو صادر عن الواقع ، وعن الشعور ،
« الصادق الرقيق ، وأنه ترجمة بارعة صادقة لأجل ما يمكن أن يخفق به قلب ،
« رقيق فياض العاطفة ، حتى أنني لم أفكر في الوقت وفيما صادفته في محادثاتي ،
« أن أكلك ، فقد كنت في نشوة من سروري ولهفتي ودسوعي ، ولعل تلك »

« التي وذت عني وأعادتنى إلى الواقع . لم تحس بما شعرت به أثناء قراءة لك .
 « وإلا لالتصت لى عذراً أنا التي تعيش حياتها في مقبرة من شعاع حاطي .
 « يملأ كياني وبثير وجداني ، وقد وجدته ولو في صفحة من كتاب ، ولكن .
 « وصفك لسور معسكر الحرس ، والحقول التي خلف أسراي ، والساقية .
 « المهجورة من كياني وأعادتنى إلى الخيال والذكرى ، فكل هذا هو مرتع .
 « طعولتي ومبعث إحساسي ، وقبلة قلبي ، ومطمع آمالي ، ولكنت أرى أني .
 « قد أظلت عليك .. لا تظن أني تأملت لما سمعت فقد كنت : رنة الأسف التي .
 « طهرت من نبرات صوتك . لقد كانت أكثر عما أودجو وإلا لما ساعدت نفسي .

« . . . »

١٣ ديسمبر سنة ١٩٥٠

وعند ما انتهيت من قراءة الخطاب حملته إلى زوجتي وقلت لها :
 — أظنك بعد قراءته ستقرنين على الرفق الذي حدثتها به ... وأظنك
 ستجدينها لا تسحق ما منحتها من سياب ؟
 ولم أعرف عن القارئة المجهولة سوى الخطاب المجهول والمحادثة في
 منتصف الليل .

وإني أحس منهما خير عزاء عن تقدير ذوي الحيليات من أهل الصحافة والأدب
 شكرأ لها ... ولكل قارئ مجهول ... وقارئة مجهولة ... لأنهم يملكونني
 بالثقة والاعتزاز ويجعلونني لأعيا بتقدير المفاهيم والكبار .
 إني أكتب لهم ... وهم الذين يجعلونني أطبع من كني الطبعة الثانية ..
 وهم الذين سيجعلونني أطبع الثالثة والرابعة بإذن الله .
 إني أحب قرأني ... وأشعر أن قرأني يحبونني .
 والسلام عليكم ورحمة الله .

برمف الباهي

تطلب جميع طوعانا

من وكلائنا

مكتب التقي	بغداد .	ت ٣٥٨٨
دار المعارف	اسكندرية .	ت ٢٣٥٨٨
المكتبة الحارثي	بيروت .	ت ٢٤٥٠٣
دار النقطة العربية	دمشق .	ت ١٢٣٦٤
« الكتاب » دار البيضاء	مراكش .	ت ٧٧ - ٩٠٠
مكتبة النهضة	الحرائر .	ت ٩٩ - ٣٩٨
« النهضة السودانية »	الخرطوم .	ت
دار كردفان	الأبيض .	ت ٢٨٤
المكتبة الأدبية	تونس .	
مكتبة الشعاعة	جدة .	
« هراي »	الحباج .	



ملحده

قد عزمت على الرحيل .

الى

وماذا يدعوني إلى البقاء في دنياكم تلك ، بعد
أن أصبحت في غنى عنها وعن كل ما بها . . وبعد أن ضعت كل
إحساس بأن هناك ما يربطني بها وبشدتي إليها ؟
ما أسهل الرحيل . . خطوة واحدة أخطوها فأمرق هذا
الحيط الرامى الذى علفت به حياتنا . . وأطلق هاربة إلى حيث
لا تتطاولون على بالستكم ، ناركه لكم جيفة تنلقى لمساتكم
فيأبى غنى .

أذكروا محاسن موتاكم . .

أتراكم تذكرون لى محاسن ؟ . . أما الروحة الحلوة الخائنة
الفارة مع عشيقها . . الراكلة بقدميها كل فليل ، المحملة
كل قيد .

أى محاسن لى بعد هذا ؟

هل يمكن أن يلتصق لى أحدكم عذراً . . سوى العيش
والرق ، وطاعة الشيطان ؟

لشد ما أكره أن أخرج من الحياة مظلومة

- لى لم أحس قط بحاجتى إليكم . . لقد كان :

كلما غنى عن أخيه حياته . . ونحن إذا متنا أشد تنابها

وأنا أحس أني ميتة .. ميتة ، وكان يجب ، والامر كذلك ،
أن يشتد إحساسي بالغنى عنكم .. ولكنني مع ذلك أحس
محنين شديد يدفعني إلى الكتابة ، وإلى أن أقول شيئاً لكم أيها
الاحميون الذين قد بت في غنى عنهم !
أى دافع أحق ذلك الذي يدعني الكتابة ؟ . أما المخططة
المهدمة ، المشتتة الفكر ، الغريبة الذهن !

أنا الغريقة اللاهثة الأنفاس ، المكروبة الصدر ، المثقلة
بالاحزان .. الباكية حتى جفت منها المساقى ، ودمعت
الاجفان .

أنا أجلس وأكتب إليكم .. لمه ؟ .. وسط هذا الخطام
والرقاد ، والهشم ، وأنا على قاب قوسين أو أدنى من الموت ،
أجلس في هدوء وأمسك القلم ، وأكتب على الورق .. كأنني
أعيش أبداً .

لقد كان يجب أن يكون آخر ما أفكر فيه هو الكتابة .
كان يجب أن أبكي ، وأن أمرق الشعر ، وأنظم الحدود
وأصرخ وأولول ، وأعدو في الطريق مستغيثة صرعى .

ولكنني مع ذلك أجلس في هدوء وأكتب .. كأن الامر
لا يعني .. أو كأنني لست أنا .

أجل .. إلى لم أعد أنا .. لقد بت امرأة أخرى فائدة

الحس متبلدة المشاعر .. لقد تكسرت مني المصال على
النصال .. لقد فقدت القدرة على الألم .. لقد أصبحت حسداً
هالداً .. أما ما بقي من إحساس ، فهو ما يسمونه « حلاوة
الروح » أو تروخ الذبيح .

ولكن لم أكتب ؟ لم لا أخرج في صحت ؟ لم لا أعجل
بالرحيل ؟ فاستريح !

ألمى الرغبة في رفع العبء بالاعتراف ؟ .. أم هي التوبة
والاعتذار واستجداء الرحمة .

ولكن أى اعتراف وأى توبة ؟ .. الاعتراف بالذنب
والتوبة منه ؟

إنى ما أسست قط بأنى مذنبه .. وما شعرت أنى أقيت
أسراً إذأ ولا فعلاً سكرأ .. بل لقد قضيت أيامى أقاوم
وأنازيم ، وأحرم نفسى الاستمتاع بالحياة .. حتى أفلت
منى الزمام فى النهاية من فرط المقاومة .. فاندفعت إلى هذا
المصير ...

أنا لست مذنبه .. إنما المذنب هو القدر الذى عقد لى
الطريق .. وقلب لى الأوضاع ، ودبر لى الأمور .. - أو
على الأصح - أساء التدبير .. بحيث أضحي لا مفرّ لى من

فك المأساة والانهاء إلى مثل هذا الدمار .
أتراني إذا أكتب لأعترف بذنب القدر ؟
أى سخرية هذه ؟ . هو يذنب فى حقنا ، ونحن لا نملك
إلا الاعتراف بذنبه .

على أية حال ، وأيا كان صاحب الذنب فينا .. فإني أحس
من الكتابة براحة المعترف ، وهندوء النائب المقر .
ذلك هو الحافز لى على الكتابة .. اعتراف مختصر ،
ينبغى أن يلقى عن أكتافه — قبل الرحيل — عنا أثقل كاهله
ووزراً أنقض طهره .. اعتراف صريح على .. لا إلى كاهن
فى خلوة .. بل إلى الناس جميعاً .

ولم الكاهن ؟ وعلامَ الخلوة ؟ .. أنا لا أحجل من
اعترافى .. حتى أهمس به وجلة حائفة .. بل أطلقه بملء فى
لأعلن براءتى ، ولأصبح بكم : أنى مظلومة .. مظلومة فى
الدنيا وفى الآخرة .. مظلومة حية وميتة .

أنا لا أحجل من اعترافى .. فإني أجد فيه دفاعاً عن
نفسى وعن سواى من المظلومين الذين انطوت صدورهم على
أسرارهم ، والذين طوتهم عجلة القدر فراحوا ضحيتها واتهموا
بالذنب ولا ذنب لهم .. وأجد فيه درساً يعلمكم أن تلتمسوا

العاذير للناس ، وألا ترموهم بالخطيئة . . دون أن تعرفوا
حيثهم . . قرب واحد منكم رماه القدر بنفس التجربة لما كان
خيراً منهم .

إني لا أخجل من اعترافي بل أطلقه بلاء في . . مائحة
بكم : هاأنذا ، وهاكم قصتي :

هاكم قصة الزوجة الخائنة الغادرة . . قصة المرأة التي قد
تلعنونها كلما مرت بخاطركم ، والتي قد تتخلون منها لأنفسكم
عظة وعبرة تتندرون بها حياءً وتضربون بها المثل أحياناً .

هاكم قصتي . . قصة - أفسم لكم - إنها ستثير فيكم كامن
شجنكم ، وتهيج مشاعركم ، وتسيل مدامعكم وتندى ما فيكم .

أم تروني واهمة ، لا تكاد قصتي يزيد على قصة كل عاشق
أضنى الهوى فؤاده ، وأحرق الحب قلبه . . وأن الوم يأبى
إلا أن يحسنها لي ويربى أنى شيء جديد في عالم العشاق ،
وإني - في المصائب والبأساء - نسيج وحدي .

من منال يعشق ؟ من منال يذوق طعم الهوى . . حلوه
وصابه ؟ من منال تنسب متعته ويضنه عذابه ؟ من منال
لم يسكره نسيمه ويفرقه عجايبه ؟

كلنا عشاق . . وكلنا ريش في مهب ريح الحب العاصفة
العاثية . . لاسطان لنا على أنفسنا ، ولا سيطرة لنا على قلوبنا

إلا بقدر ما تسيطر الريشة على نفسها في مهب الريح ..
لا يفرّجكم من البعض جمود أرقسوة ، ولا يخلصكم منهم
ادعاء بالسيطرة على النفس وبالسخرية من الحب ، أو أنهم
فوق سلطان الهوى .

لا يخلصكم منهم هذا فهو قول هراء ، وكلام سينهب
مباء ، ولو كانت قلوبهم من حجارة ، ومها الهوى ..
للات وسرى فيها النبض وجاشت بالحياة .

لا يفرّجكم زعم هذا البعض .. سلوفى أنا عنهم ، فقد
كنت واحدة منهم .. كنت ساخرة من الحب .. ملحدة به
منكرة وجوده وسلطانه .

أجل .. هذا هو ما كنت ، عندما جلست إليه ذات
مرة ، وجرى الحديث بيننا عن الحب ، قلت له ، وأما أقلب
شفقى في سخرية :

— حب .. إنه مصاب الذين لا إرادة لهم ، وداء أثبت
بالخر والمبسر .. يقبل عليه الناس للهو وتسلية .. ثم يزمن
بهم فيدمر حياتهم ، ويقضى عليهم .. أو هو كالجواد يمتطيه
الإنسان طائماً مختاراً لينزله به برمة .. فيجمع به ويورده
موارد العطب .

وتملكه الدهش فقد رأى فيّ - على حد قوله وقتذاك -

فتاة ، حلوة مرحة ، لطيفة ، كأنها الزهرة كلها الندى ،
وطلع عليها النهار ، واستدارت بوجهها المشرق لتواجه فجراً
جديداً أو شمساً ساطعة تستمد من ضوئها نوراً ودقاً ، وسألني
لم أ كفر بالحب ، وهو مثل الحرارة التي تبحث فيها النضرة
والنضج ، والنسيم الذي يحمل عطرها فيجعله يتضوّع وبفروح
ويسكر القلوب وبشل الأفتدة .

وضحك ، وقلت له : هذه أو هام الشعراء . واتهمته بأنه
خيالي ، كثير القراءة ، تنضح قراءته على أفكاره فتبديها حلوة
معسولة ليست من الواقع المرفى شيء ، وأن على الإنسان
من هذه الحياة أن يتصرف بعقله لا بقلبه . وأن يقع مصلحته
ولا يتبع هواه .

قلت له هذا وأنا مؤمنة به أشد الإيمان . . فقد كنت
مادية التفكير . . مادية النزعة . . علبى الوسط الذي نشأت
فيه والتجارب التي مرت بي أن أمقت الحب ، وأن أفر منه
فرار السليم من لأجرب ، وأن أنصوده شيئاً مفزعاً مروّعاً
يجب على لإنسان أن يحذره ويتجنبه فما أودى بالمرء إلى
التهلكة غيره ومادماً حياته سواه .

كيف لا وقد نشأت فوجدت شيطان الحب قد عصفه
بكل ما حولي ، ووجدته فرّق بين أنى وأنى . . فما عشت

معهما قط سويًا ، وما أحسست أبدًا بنعيم الاستقرار .
نشأت في كنف أبي .. أب صارم قد لدغ من جحر
الهوى مرة .. فأقسم ألا بلدغ مرة ثانية ، وركز كل جهده
لينشئني على طبيعته الجامدة وتفكيره العملي المادى ويقتل
في نفسي كل ميل للعاطفة أو الرقة والخيال .
لا أريد أن أندفع فأنبش أحداث للماضى البعيد ، ولكن
يبدولى أنه لا بد أن أستعرض تلك الفترة العابرة .. فترة
الطفولة المكبوتة الحادة العارمة .. إذ يبدولى أنها السبب
في كل ما حدث ، وأن ذلك الكبت في مشاعري وأنا طفلة
والمبالغة في الحزم والشدّة في تربيتي ، قد أنتج نتيجة عكسية
وسبب لي الانطلاق من أول نفرة بدت في حياتي .. وأنه
ككل فعل كان لا بد له من رد مساو له ، ومضاد له في الاتجاه .
منذ أن وعيت الحياة وهم يلقنوني أن أمي ميتة ، ولقد
كان ذلك منهم منتهى القباء .. فما كنت أعدم عندما شئت ،
وبدأت التفكير ، من يذكر لي الحقيقة كاملة ، وبنيت أن أمي
على قيد الحياة ، وأن ثيل الهوى قد جرفها فهجرت أبي ،
وتزوجت برجل آخر .

وكرهت أمي .. من فرط ما بنوا في نفسي كرهها ، ولأن
كنت بهرقتي الجادة ، وخطي الجاف ، الذي عودني عليه أبي

أرى فيها امرأة حمقاء ، امرأة مجنونة طائشة .

لم أك أعرف وجهة نظرها ، ولا الظروف التي اضطرتها
إلى هجر أبي ، ولا الإغراء الذي وقعت تحت وطأته . بل لم
أحاول قط أن أفكر في أنها يمكن أن تكون معذورة ،
وأنى لو وضعت مكانها لفعلت فعلتها . . بل كل ما كنت أقول
عنها لنفسى : إنها امرأة خائنة غادرة . . تماماً كما تقولون عني ،
وما حاولت أن أتمس لها بالمعاذير . . كما لم تحاولوا أن تفعلوا .
ولى عنذ هناك يمكن أن يكون لامرأة تزل بقدمها
ذلك القصر المنيف والعمدة السابغة والهباء المقيم ، وتترك
رجلاً مثل أبى وقوراً جاداً محترماً . . قد يكون خلواً من
المشاعر والركة . . ولكن مالها وله ؟ لم لا تتمتع بأعني
والراحة والاستقرار ؟ لم لا تدعه في حاله ، وتمتع بحالها ؟
كيف هتأ لديها : أنا وأخى ، فهجرتنا فيما هجرت ، وضربت بنا
عرض الحائط ١٩

ذلك كان تفكيرى تجاهها وقتذاك . . صورة أخرى
لتفكير أبى وأمه التي تكفلت بي بعد طلاق أبى .
ويبدو لي الآن . . أن أبى قد تكون معذورة في فعلتها ،
وأنه لو أتبع لها أن تسجل مشاعرها واعترافها كما أفعل ، فإني
أجزم . . أبى كنت مبرئتها ، وإن كنت مقتنعة بدفاعها . .

تماماً كما سترثوني وتقنعون بدفاعي . . أم ترائي واهمة فيكم ،
محنة الظن بكم ؟

ما أغباننا وأستغفنا . . نجلس مستريحين هائنين ، ماعى
البال ، قريرى الأعين ، وتتخذ من أنفسنا فضلة على غيرنا ،
العارقين فى العباب ، المحروقين بالشواطىء . . لنقول ببساطة :
هذا أذنب ، وهذا أجرم . . ما كان يجب أن يفعل ذلك ،
وما كان يجب عليه أن يفرق أو يحرق .

ما أشبهنا بالقضاة الذين جلسوا لمحاكمة الريان الذى
غرقت سفينته فحكموا عليه بالإعدام بعد مداولة سبعة أيام
عرفوا خلالها ما كان يجب أن يعمله الريان حتى لا تغرق سفينته ،
وأجابهم الريان فى دهش : حقيقة هذا ما كان يجب أن أعله ،
ولكنكم لم تعرفوه إلا بعد مداولة سبعة أيام فى حجرة هادئة .
أما أنا فما كان أمامى سوى ثوان معدودات فى روعة عاتية .
كلنا نفعل كما فعل القضاة . . لا نذكر لأصحاب الخطايا
ظروفهم الهوجاء ، ولا مناعهم المرفقة ، وأحاسيسهم التى
تسوقهم — إلى ما نسميه خطايا — سوق غرائب الإبل .

ما الخطايا ؟ أى شىء ملوس محدد ؟ أم هى مسائل
نسبية . . تتغير تبعاً لتغير مشاعرنا واختلاف وجهة أظفارنا ؟
إنى عندما ارتكبت ما تسمونه خطيئة . . كنت واثقة

وأما في الظروف المحيطة بي أننا ليست من الخطيئة في شيء . .
وأن ما فعلت هو خير ما يجب أن أفعله وأنه حق في الحياة
وأؤكد لكم أن كل مخلوق سواي . . ما كان يفعل سوى
ما فعلت .

وما دام الأمر كذلك . . فليسميه خطيئة ؟
وهكذا لا أشك أن أي قد اتخذت الطريق الأكثر
ملاءمة لها ، والذي بدا لنا وقتذاك . . انحرافاً عن الطريق
السوي ، انحراف بالنسبة لنا . . أما لها فما أشك أنه كان سوياً .
لعلها لم تنعم بسعادة مثالية ، ولكن من قال : إن الطريق
السوي . . أو أي طريق في الحياة يعطي سعادة مثالية ؟
كثيرون جداً لم يرتكبوا ما نسميه خطيئة . ومع ذلك فما
كانوا أسعد حالاً . . لقد كان لطريقهم السوي . . متاعه
الخاصة ، التي لا تقل بحال عن متاع الطريق المنحرف .
أي مثلاً . . الرجل الجاد ، النموذجي الصارم . . كان
إنساناً شقياً . . شقياً بجهده ونموذجيته وصراته . . شقياً بي
وبنفسه وبأمراته المهاجرة .

ويدوي أنه قد جعلني موضع تجربته ، وأنه قد صمم
علي أن يجعل مني مخلوقة أخرى غير أي . . مخلوقة مثله . .
لا أصحك ، ولا أشعر ، ولا أحب . . ولا أريد ما أحب

— على النقيض — لقد كان يحرم على كل ما أحب ..
ويعطيني كل ما لا أرغب .

ولم أكن ألعب كما يلعب الأطفال .. بل كنت أجلس
معه وجسني يعطيني — على حد قوله — شيئاً مفيداً مافماً
وهكذا نشأت جامدة الحس .. مادية التفكير .. كاذبة
بالعواطف .. هازئة بالحب .. لا أرى فيه — كما قلت —
سوى داء عضال يفتك بإرادة الإنسان ، ويسله رشده ،
ويحرمه القدرة على التفكير السليم وعلى التمييز بين ما يجب
وما لا يجب ، وتبين ما حرم عليه وما أحل له .

كنت أرى فيه داء يصيب الإنسان فيجعله يندفع
بلا تفكير ولا روية .. كأنه فذيفة لا يستطيع شيء أن يغير
اتجاهها حتى تذهب إلى مستقر لها .

وهل لا يعتبر داء .. ذلك الذي يصيب الإنسان فيجعله
يأتي بكل مذهب مستغرب ؟ ! يصيب الملوك فيركلون من
أجله عروشهم .. يصيب الآباء فينسيهم أبناءهم ، ويصيب
الأزواج فيلفظون من أجله زوجاتهم ، ويقوضون حياتهم .
أى داء يمكن أن يصيب الإنسان شر من هذا ؟ وأى سمادة
يمكن أن يمتع بها إنسان تكون له القدرة على أن ينأى
بنفسه عنه ، ويبش بمجاة منه ؟



میلاد جبریل

هذه هي الأفكار التي تملأ رأسي وقتذاك، والتي
كانت طبيعتها في نفسي الحياة التي نشأت عليها ولقيتها
إياي العواصف التي عصفت بأبي وأمي .

كنت متشعبة بها ، ولم تسكن لي تجارب في الحياة بعد . .
فلقد كنت ما زلت في مستهلها . . فتاة في دور المراهقة . . أو
كما قال صاحبي : زهرة في كدها لم تتفتح بعد . . فحاولت أن أتخذ
من تجارب من سبقوني عظة ودرساً ، فلا آت فيها وقموا فيه .
وبدأت التجربة الأولى . . رافعة الرأس . آية النفس ،
جامدة الحس . . وقفت أنظر إلى الصائد وهو ينصب الشباك
حولى في تحد وثقة وسخرية .

لم يكن الصائد غريباً عليّ ، ولم أكن أتصور قط أن يكون
هو صائدي . . فقد تعودت أن أراه دائماً ، دون أن تحتاج في
نفسى عاطفة أو تتحرك جارحة ، فاكنت أرى فيه أكثر من
صبي ، وما كنت أضمر له أى نوع من المشاعر . . لا بغض
ولا حب ، ولا مجرد إحساس بوجوده .

كان ابن خالتي . . ولم يكن بين عائلتنا أى ود أو تقارب ،
بل كان بيننا شبه عداوة ، أو عداوة مستترة . . لست أدري
منشأها بالضبط ، وإن كنت أرجح أن علتها حسد من جانب

عائلته ، وترفع من جانب عائلتي .
كانت أمي وأمه أختان اختلف حظهما في الحياة . . فقد
تزوجت أمه موطفاً عادياً . . عاجله الموت وابنه ما زال في
المهد . . وأخفت الأم وحدها تكافح الحياة وايس لها من سد
لترية ابنها سوى معاش ضئيل القدر .

وتزوجت أمي - ن أبي ، وهو مقاول في مستهل عمله . .
أقبلت عليه الأيام ، ففتحته سعة في الرزق واتمشت أعماله ،
وتضخمت ثروته . . حتى أصحى في فترة قصيرة من كبار
المقاولين المعروفة أسماؤهم .

ولم يكن بين الاختين - أمي وأمه - من التحاب
والمودة ما يجب أن يكون بين الأخوات . . ويعلم الله من
كانت منها السبب في ذلك ، قد تكون أمه بانظراتها وأحزانها
وحرمانها وحاجاتها دون أن تجد من يمد إليها يداً ، وقد تكون
أمي بتقصيرها وأمانيتها وتباعد ما . . أو قد تكون لاهضي
ولا تلك ، بل يكون أبي بحفافه وقسوته وصرامته وتقديره
ورفضه أن يمد يد المعونة إلى الأم الأرملة والولد اليتم . .
وتجاهلها كأنهما لا يمتان إلينا بصلة قرى . .

قد يكون أي من هذه الأسباب هو علة القطيعة وتساخر ،
أو قد تكون كلها متجمعة . على أية حال لقد كانت تقيجها

هوة كبيرة بين العائنين ، واردات الهوة عمقاً .. بفصل
أبى عن أبى ؛ وتقطع كل صلة بيننا وبينهم .. لاصلة
وأمية .. هي صداقة أخى لابن خالتي .. صداقة ناتجة عن
زمانة في الدراسة وتقارب في السن .

تلك هي الصلة الوحيدة بيننا وبينهم .. الصلة التي لولاها
لما أحسست أن لي ابن خالة .. ولما وقع عليه نصري قط .
كما نسكن في « حدائق القبة » في شارع « ولي العهد » .
في إحدى الفيلات المطلة على المزارع ، وكان أحمد - ابن خالتي -
يزورنا في فترات متباعدة : في أيام الجمع أو العطلات ليقتضى
اليوم بطوله مع أخى « على » يلعبان في المزارع أو يلهوان
بصيد الأسماك .

ولم أكن خلال زياراته المتقطعة لنا في صباه أبصر له
وجهاً إلا عند حضوره ، فقد كان يأتى على - لوصادفنى -
تجربة مقتضية عابرة ، ولم أكن في لقائه أقل جفافاً ولا بروداً ،
فقد كنت بطبعى باردة جافة .. ثم يمتحن بعدها في حجرة
أخى ، حتى ينطلقا سرياً إلى المزارع .

تلك كانت علاقته بنا في صباه .. مجرد صديق لأخى ..
ما رأيت فيه ما بلغت النظر إلا ذلك الترفع والإباء والكبرياء

الناعم عما يسمونه الإحساس بالنقص . . فما من شك هناك أن نشأته كانت أقل كثيراً من متوى نشأتنا ، فما استطاع كفاح أمه في تربيته إلا أن يهيء له حياة متواضعة ، لا تكاد يحصل منها إلا على الضرورات القصوى كالطعام والتعليم . . أما ما عدا ذلك من كاليات العيش الذي كنا نرتع فيه فقد حرّم عليه .

لم يكن هناك وجه للمقارنة بين مسكنه الذي كان يقطنه مع أمه في شارع ديلينا بشبراخ وبين قصرنا المنيف ذي الحديقة العناء والجراج والعمرة الفخمة ، والخدم والحشم ، والطبايح . ولم أكن أبداً أفكر في ذلك الفارق أو أقيم له ورماً أو أجعله باعثاً على نفورى منه أو إقلاق من قدره . . لولا شيء واحد هو تلك الفخمة الكدابة ، التي كان يبدو بها ، وتلك الكبرياء وذلك الترفع الذي كان يلقاها به . . فقد جعلنى أبادله بفخمة بنفخة . . وكبرياء بكبرياء . . حتى أضخى ينسا ما يشبه التحدى الصامت . . واستكثر كل منا على الآخر — بلا أى سبب — تلك التحية الصامتة التي يلقاها بها في الفترات المتباعدة التي كنا نتقابل فيها . . وانتهى الأمر بيننا إلى التحايل التام . . كأن كلا لا يعرف صاحبه .

ولم أعر أمره اهتماماً يذكر ، فقد كنا لا نكاد نلتقي إلا

تماماً . . ولم يكن له في ذاكرتي إذا ما غاب أي موقع . . ومع
ذلك فقد ضايقني هذا الإصرار منه على تجاهلي ، أو على الأصح
مبادأتي الجاهل والإسكار ، وأحسست منه بخدش لكبريائي .
هكذا ظلت العلاقة بيننا ونحن لم نتعد بعد دور الصبا . .
نختار العقد الثاني من عمرنا . . وكان الفارق بيننا لا يزيد على
الثلاث سنوات . . وكان هو في مرحلة التعليم الثانوي ، وأنا
في دراستي الابتدائية .

ونجح هو وأخوتي في البكالوريا ، ودخل أخوتي كلية الهندسة
وعلمت منه أن ، أحمد ، التحق بالكلية الحربية فقد عاينته
مهارته في لعبة الكرة على القبول بلا وساطة .
ومرّت الأيام بعد ذلك ، وأنا لا أسمع عنه شيئاً ، ولا
أرى له وجهاً . . واختفى تماماً من محيط حياتي . . ولم يعد بي
من ساحة إلى تجاهله أو إنكاره فقد نسيته تماماً .

ومضى عامان كغيرهما من الأعوام لم يحدث خلالها في حياتي
جديد ، اللهم إلا منح أبي رتبة الباشوية عقب تبرعه بمبلغ ضخم
لأحد المشروعات الخيرية ، ولو أن ذلك لم يحدث بالنسبة لي
تعبيراً يذكر . . فقد استمر أبي هو هو بنفس الجند ونفس
الصرامة ، ونفس الإصرار على الحزم في تربيته . . وإن كانت
قد زادت في حياتنا بعض المظاهر التي تستلزمها رتبة الباشوية .

وفي ذات يوم قبيل الغروب .. يوم صيف من أيام
يوليو وأستطيع أن أحده بالضغط بالثلاثاء الخامس من الشهر
عام ١٩٣٧ .. ولست من غواة تذكر التواريخ ، ولكن هذا
اليوم بالذات أعتبره في حياتي يوماً خطيراً .. يوم بدء
التجربة .. يوم اشتعال الشرر والنهب العاطفة .. يوم ميلاد
جديده .

وكنت أجلس يومذاك في شرفة رجبة كائنة بالدور
الأول بها درج منسع يفضي إلى الحديقة ، وقد رست
في أركانها أصص الزرع الأنحصر من فوجير وأسبرجس ،
ونسلقت على أعينها المدايات المزهرة .. وتسالت أشعة
الشمس الغاربة أرجوانية دامية من خلال المنسلقات فصيفت
الشرفة باللون الأحمر .

ولم يكن أحب إلي نفسي من أن أخلو بها في تلك الشرفة
المنجية فأشرد بذهني في عالم جميل من الأوهام ، وأطرح عن
نفسي أحزانها وأعجاءها .. وأنطلق بها حرّة من قيود المادية
التي أعيش فيها والصراعة التي أحاط بها .

وسمعت وقع أقدام في مر الحديقة تقترب من الشرفة
لم أعبا بها كثيراً .. فما توقعت أن تحمل إليّ سوى أحد
الخدم ، أو الطباخ ، أو سوام من أتباع الدار يسألونني عن

التواضع عن الأمور . . . وتوقفت الأقدام ، ولم أكلف نفسي
مشقة رفع بصري عن كتاب كنت أثبت في صفحاته عيني ،
وولت للقادم منسائفة دون أن أنظر :

— هيه ! .

ووصل إلى أذني صوت غريب يتمم معتدلاً :
— أنا آسف . . . لم أفسد قط أن أقطع عليك وحدتك
أو أسبب لك إزعاجاً .

ورفعت بصري لأتبين صاحب الصوت ، فأصابني من
مرآه دهش وعجب لقد وجدته ، أحمد . . . الصبي المتكبر
وذا للفخنة الكدابة . . . وقد وقف أمامي في حلة رسمية
أنيقة كشفت عن اعتدال قوام ، ورشاقة قد ، وقد أحاط
الحزام الجلدي العريض بوسطه ، فأظهر ضيق خصره واتساع
صدره ، وبدت البدلة لامعة الأزرار محكمة على جسده كأنها
قطعة منه . . . ولاح لي وجهه وقد لوتحت الشمس لحولت
بياضه إلى سمرة حمراء ، واستقام طربوشه على جبينه ، واهتز
ثغره عن ابتسامة أبدت أسنانه بيضاء منطومة .

تلك كانت الصورة الخاطفة التي التقطتها عياني له . .
ووجدت الدهش والمفاجأة ينسياني ما كان بيننا من تجاهل
وتحد ، وهتفت به مرحبة :

— أحمد . . . أهلاً وسهلاً . . . تفضل .

وصعد الدرجات مقترباً مني ، وقال وهو يمد يده :

— أكرر أسفي إذا كنت قد أزعجتك . . لكه حضرت

لزيادة ، على ، .

وكرهت منه هذا التحديد . . ولكي حدث الله أن
أزال سابق نفخته وكبريائه . . وأن جعله يكف عن ترفعه
حتى لا يضطرنني إلى معاملته بأشل والعودة إلى سابق تجاهلي
له ، وترفعني عنه .

وأدركت من مظهره أنه قد تحسن كثيراً ، وأن
العالمين قد جعلوا منه مخلوقاً متزناً . . وأصاعت منه ذلك
الإحساس بالقص الذي كان يجعله يصر على سخافة
الكبرياء ، ووجدت أنه قد أضحي أكثر رقة في الحديث ،
ولباقة في التصرف .

ولم تستغرق مني تلك الملاحظات سوى ثوان معدودات
أجبت على أثرها :

— أعتقد أن ، على ، سيحضر بعد برهة . . وتستطيع
بالطبع أن تنتظره . . إذا كان الانتظار لا ينقل عليك .

ويندولي أن من الخير أن أعترف صراحة — هادمت
قد سميت كتابتي هذه في بادئ الأمر 'اعترافاً' — بكل خلجائه

نفسى . . وأن أذكر ما وراء أقوالى . . فالإنسان غالباً
يقول شيئاً وفق نفسه شيء آخر .

لم يكن فى قولى أن « على » سيحضر بعد برهة ، وسؤالى
إياه أن ينتظره . . شيء غير طيبعى . . ولكن الشيء غير
الطيبعى كان فى قرارة نفسى . . فإنى لم أكن أعلم أن « على »
سيحضر بعد برهة . . أو على الأصح كنت أعلم أنه لن يحضر
بعد برهة . . فهو لم يتعود قط أن يسكون فى الدار فى هذا
الوقت .

ما الذى دفعنى إذأ إلى هذه الكذبة النافية ؟
أمر واحد . . لا يمكن أن يكون هناك دافع سواه .
وهو رغبى فى استبقائه ، وفى الجلوس معه ، والتحدث إليه .
كيف حدث هذا ؟ . وكيف انقلب تحاهلى له وإعراضى
عنه . . إلى رغبة فى مسامحته ؟

أهو ذلك التعبير الذى أصابه ؟ . أهى البذلة العسكرية
الأنيقة ، والقوام المشقوق ، والوجه الوسيم ؟
ولكن هذا لا يعتبر تغيراً بمعنى الكلمة ، فوجهه هو هو ،
وقوامه قد يكون اعتدل وتما بعض الشيء . . ولكن لم
يتقلب الانقلاب الذى يوازى انقلاب مشاعرى .
أم ترى التغير حدث فى نفسى أنا ، وأنى أنا الذى ترعرعت

وأصبحت أنظر إلى الحياة وإلى سائر الناس نظرة تختلف
جد الاختلاف عن فطرتي وأنا في العاشرة أو الثانية عشرة .
أعتقد أن كليهما صحيح ، وأن التغير المزروح في نفسي
ونفسه قد سبب ذلك الانقلاب في مشاعري . . وكما أستطيع
أن أجزم — بنظرة المرأة الفاحصة الناقية — قد سبب أيضاً
انقلاباً في مشاعره .

أجل . . لا أشك . . أنني قد أحدثت في نفسه الأثر الذي
أحدثته في نفسي ، وأنه رأى أن العالمين اللذين لم يرني حلالهم
قد جعلوا من تلك النصية الحيلة المجهمة البارزة عظام الظهر
والترقوة . . الرفيعة الساقين . . فتاه أخرى . . بارزة الصدر ،
مكتنزة الردفين . . بمثلثة الساقين . . لقد رأى الثمرة الفجة قد
نضجت ، والزهرة في البرعم الأخضر قد تفتحت وتلوّنت
وتضوّع عبيرها .
خلاصة القول . . أما افترقا : صبي وصيه ، والتقينا :
شاب وشابة .

وجلس في الشرفة بجواري ، ورأى حولنا صمت سيبه
حياء عقد ألتفتنا . . ونفضت عن نفسي الحياء . . فما وجدت
هناك ما يبرره . . إذ كنت أحاول أن أفهم نفسي دائماً أنني

باردة الحص ، جامدة المشاعر .. وأنه لا ضير على من
الجنس الآخر .

واعترضت لنفسى عن استبقائه بأنى لم أفعل إلا ما تقتضيه
المجاملة وواجب القرابة (كان القرابة قد نشأت بيننا فجأة) .
ونظرت إليه الحص حلتة .. وثبتت عيني على علامة
معدنية فى ، ياقته ، تمثل جندياً يمتطى حصاناً ، وقلت منسائلة
محارة خلق موضوع للحديث :

— علام قدل هذه العلامة ؟

— على السوارى .

— أمت فى السوارى إذا ؟

— أجل .. لقد التحقت به عقب أن تخرجت .. منذ

ما يقرب من شهر .

— أتركب الخيل ؟

وحقق فى ضاحكا وأجاب :

— لا أفعل غير ذلك .. لأنه لا يوجد عندنا حمير ،

— لطيف ركوب الخيل .. كم أود لو تعلمته ، ولكنى

أخشى الاقتراب من الحصان .

— أستطيع أن أعلمك إذا شئت .. المسألة لا تستدعى

إلا كثرة مران .. وليس هناك ما يحيف فى الحصان ..

- إنه مخلوق مهذب ما لم نسيء معاملته . . .
- كل مخلوق مهذب ما لم نسيء معاملته .
- ابن آدم . . لا . . ألم تسمعي قول الشاعر :
- « إذا أنت أكرمت اللئيم نمرّداً » .
- لقد ذكرتني بالشعر . . لقد سمعت من أخى أنك تقرض الشعر ، وأنتك رسام ماهر ، فما الذى حولك إلى هذا الاتجاه العسكرى ؟
- وأى صير فى ذلك . . هل حرّم على الضباط قرض الشعر والرسم .
- ظننت أنك ستدرس فى الفنون أو الآداب حتى تخصص فى أحدهما .
- هذه أشياء لا يحسن التخصص فيها . . فبى لا تؤكل عيشاً . . إني لا أستطيع أن أرتزق من الشعر أو من الرسم ولكنى أستطيع أن أمتع بهما كهواية .
- وهل أنت سعيد بمهنتك الجديدة ؟
- جداً . . رغم أنها شاقة فى بادىء الأمر . . وخاصة خلال فرقة الركبانية . . التى تتعلم فيها فن الركوب . . نحن نركب أحياناً أربع ساعات متوالية .
- أربع ساعات ؟! على فكرة . . ألم تقع عن الحصان ؟

- كثيرآ . . ألم يقولوا : لا يقع إلا الشاطر .
- وأنت شاطر ؟
- عندما أقع فقط .
- وانطلقت ضاحكة . . ثم عدت أسأله :
- وكيف تمضي أوقات فراغك ؟
- في « الميس » مع الرفاق ، أو في السينما .
- وحدك ؟
- أحياناً وحدي .
- والأحيان الأخرى ؟
- مع رفيق .
- من أى نوع ؟
- يختلف النوع حسب الظروف .
- إنني أعرف أن الضباط « أشقياء » . . ولا بد أنه قد
- أصابتك منهم عدوى « الشقاوة » .
- عدوى خفيفة جداً . . لا تزيد أعراضها عن الصداقة
- البريئة .
- لا أعتقد في الصداقة بين رجل وامرأة .
- وم ؟
- ليس في هذا الجيل . وليس في هذا البلد . . نحن

لم تعود بعد أن يصادق الفتى فتاة صداقة بريئة لا تثير
الافاويل .. إن طبيعتنا الرجعية لا تمضم تلك الصداقة .

— إنما الأعمال بالنيات ، وما دمت واثقاً بأن صداقتي
بريئة .. فلا يهمني ما يقوله الناس .

— ولكن الصداقة قد تتطور .

— إلى ماذا ؟

— إلى حب .

— ليكن .. ماذا في ذلك ؟

ثم اندفعت أفصح إليه رأي في الحب وأعلن له إلخاذا به :
— إنى لا أؤمن بالحب .

وتدرج بن الحديث من موضوع إلى آخر .. وكانت
الشمس قد غربت .. وتسلل الظلام حولنا دون أن نشعر ،
ووجدته ينظر إلى الساعة في يده .. ثم يقول :

— الساعة السابعة والنصف .. لقد مضى على وجودي
هنا ساعة .. وأعتقد أن .. على ، قد يتأخر أكثر من ذلك فقد
يكون ذهب إلى السينما .

ولم أكر أنوقع قط أما أمضينا في الحديث ساعة ..
فقد مضت الساعة كطلع الرق .. ووجدت لو استسلمت أن
استيقبه ساعة أخرى .. ولكنى كرهت لنفسي أن تتلقى

بمتعة .. وأن تنزلق - وهي الجملة الباردة الكافرة
بالمشاعر - في أول تجربة .. وعزمت على أن أجرب
لإرادتي التي أجهد أبي نفسه في تقويتها وتربيتها .. وأن أصد
نفسى عن العنى ، وأنت ما ادعيت في أول الأمر من أن
ما فعلت معه لم يكن سوى جملة وواجب قرابة .

هذا هو السبب الأول الذى جعلنى لا ألح في استبقائه ،
أما السبب الآخر ، وهو الأهم ، فهو خوفى من أن يحضر
أنى وقد كان ميعاد عودته فيجدنى جالسة معه .

قد يقول قائل : وماذا فى ذلك ؟ .. وأى عيب فى أن
أجلس مع ابن خالتي ؟

ولست أشك فى أنه لم يكن هناك عيب ، وأن أبى رغم
صرامته وقسوته ، لو رأى جالسة معه لما أثار ذلك فى نفسه
أى إحساس بتبرم أو غضب ، فلما أظنه يحرم على الجلوس
مع ابن خالتي ، المعروف بهدوته وحسن خلقه ، وما أظنه
يجد فى ذلك إثماً أو جرماً ، ومع ذلك فقد كنت أكره أن
يرانى فى جلستى هذه ، لأنى كنت أحس فى باطنى - رغم براءة
الجلسة - أنى قد فعلت إثماً .. وكنت أبا أدرى الناس
بذلك .. أدرى من أى مخلوق لسبب واحد ، لا يمكن أن
يدركه سوى .. وهو أنى أحسست بمتعة فى الجلوس إليه .

لقد سبب إحساسي بالمتعة .. الشعور بالوزر . لأنه كان
يجب على أن أحرم نفسي هذه المتعة .
ووجدتني أمد يدي إليه بحية وأنا أنظر إليه فاحصة من
أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى .
وأصابه شيء من الارتباك وتساءل :
— أبي شيء لا يعجبك ؟
— بدلتك .. وفرط أناقتك .. حتى لنبدو أنك لست
ضابطاً حقيقياً .

— لست ضابطاً حقيقياً ؟ ماذا أكون إذا ؟
— مثل .

وكنيت أقصد بقولي مجرد المزاح .. ولكن بدا لي أنه
قد حمل قولي حمل الجد .. فقد لمحت في وجهه علامة ضيق ،
وهممت بأن أعتذر له وأرسل صيقه ، ولكن سمعت صوت
عربة تقف بالباب ، ثم سمعت صوت أبي مقيلاً .. فلم تكن
هناك فرصة للاعتذار .

وحينئذ أبي وهناه بالتمرح تهته مقتضبة .. ثم ودعنا
وولي وجهه شطر الخارج وأخذ يقطع أرض الحديقة بقدميه
في مهبته العسكرية .

وسرت وأبي إلى داخل الدار ، وبعد برهة حضر أخى ،

وجلسنا للعشاء . وأبناؤه أن ، أحمد ، أتى لزيارته .
 وبدأ عليه الاهتمام وسألني فرحاً :
 — أحمد . . ابن عاتى ! لم لم ينتظر ؟
 ونظرت إلى أبي ، والسرّة الثابتة وجدتني أكذب على
 غير إرادة ، وأجبت قائلة :
 — كان على عجل . . فلم يشأ أن ينتظر .
 — لاشك أنك أسأت استقباله كمعادتك . . أنت باردة .
 — أكنت تريدني أن آخذه . بالحضن . ؟
 — يجب عليك أن تتعلّى الترحيب بالناس . . أنت لم
 تتردى صغيرة .
 — من قال لك أني لم أرحّب به ؟
 — أنا أعرف طبك . . جافة باردة .
 وكان أخى دائماً يهمنى بأننى إنسان بلا شعور ، وكان
 لا يفتأ يبدى قهره بى وبأبى وبحياننا الجافة ، ولم يكن
 يتورّع عن إعلان كرمه لنا . وعن تمنى اليوم الذى يفارق
 فيه الدار .
 ونظر إليه أبى نظرة صارمة وقال له :
 — ليس لك بها شأن . . عليك نفسك . . أنت غير
 مسؤول عن تهذيبها .

ومضت فترة صمت . . ثم سألت أخى :

— هل كان يرتدى بدلته العسكرية ؟

وأجبت باقتضاب وبغير اهتمام :

— أجل !

— كيف كان يبدو بها ؟

لا أدرى .

— كيف ! ألم تريه ؟

— لا أدرى .

— وقحة . . باردة .

ثم تهنأت أخى عن المائدة وهو يرميني بنظرة غيظ .

وذهبت إلى الفراش ليلئذاك . . ولست أريد أن أعم

في المبالغة أو أكون روائية الحديث ، فأرغم أنى قد شغفت

به منذ تلك الليلة حباً ، وأنى قد بت صريعة هواه . . أو أننى

لم أنم من فرط التفكير فيه . . لم يحدث لى بالطبع شئ من

هذا ، وإن كنت لا أستطيع أن أسكر أن حتى لم يغمضنا

بمجرد أن رقدت فى الفراش . . لا لتفكيرى فيه . .

بل لنهى نفسى عن التفكير فيه ، ولإبعاد صورته عن

مخيلتى . . ولأردد لنفسى أنه لا شئ ، وأن سواه من

الرجال لا شئ . ، وأنى أستطيع بإرادتى وصلابتى أن أجعل

عن وجهه ذلك الضيق الذى سببته له ، وفى الوقت نفسه كنت
أرجو ألا أراه . . وأصم إن رأيته أن أعود إلى سابق تجاهلى
أناه . .

لقد تمت فى اليوم الخامس من يوليو سنة ١٩٢٧ ، وأنا
أحس أن نافوس القلب يدق إيزاناً باقتراب الخطر ، أو
إيزاناً بميلاد جديد . . ميلاد عاطفة . . ميلاد قلب .





البقية تاتي

فأقوس القلب إذناً بالخطر... ولكنه لم يكن
دق خطراً عاجلاً ، فقد خفت الدقات وسكت الرنين
وعاد إلى القلب سكوتة الخيم... وأغمب رجفته استغراق
في السبات عميق ، وعاد إلى سابق عهده من الجفاف والبرود .
لم تتح لنا الظروف لقاء عاجلاً... يواصل إيقاظ القلب
ولا يدعه يتأب ويتمطي ، ثم يعنو ويستغرق في سباته ،
فقد سافرنا في اليوم التالي إلى الإسكندرية ، ومرت في صيف
كثيره من سابقه راكد ساكن ، . كأتى فيه من فرط تشابه
أيامه وتكرر أعماله موظفة حكومية... ففي الساعة العاشرة
أكون ، ووجدت ، قد اتخذنا مجلساً في الكايين ، ويكون أخى
قد أرى المايوه وانطلق إلى البحر .

وتمر بنا الساعات متاقلة في الحديث ، أو في عمل دتريكو ،
أو في استقبال بعض العجائز من صديقات جدتي أو
الفتيات من زميلاتي ، حتى إذا حانت الساعة الثانية حضر أبي
ليبحث ربع ساعة أو نصف ساعة ثم يعود بنا إلى البيت للغداء
وبعد الظهر إما أن نذهب إلى سبنا ، أو نستريح على
الكورنيش .

كانت الحياة قسيرة في هادئة طبيعية مثل... وكنت رغم

إحساسى بالفراغ والركود ، ورغم تبرى بها أحياناً .. أحس
إعجاباً لصمودى أمام نظرات الشباب من صحاب وغير صحاب
وترففى عن الآعين المحدثه ، والأحاديث المعجبه ، وأحسد
قلبي لأنه لم يكن ، ولم يلهف ، ولم يحزن ، وتناست تماماً ما كان
من أمر محركه الأول ، وموقفه من سيائه ، وقارع النواقيس
في حناياه ، وموقد الشموع في رحابه .. تناسيته تماماً وحدث
للأيام هذه المنحة من النسيان .

وعندما إلى القاهرة في أواخر سبتمبر بعد ثلاثة أشهر ،
واسقر بنا المقام في دارنا وقد خلا ذهى منه .. ولم أعد
أتوقع منه أية زيارة ، بل ولا أنتظرها .

وفي ذات يوم كنت وجدت في محلى شيكورييل ، نبتاع
بعض الحاجيات عندما التفت هناك فجألتى — والدته —
ولم نك قد لتتقابل ذلك بعوام .

وتصاحتنا ، ووجدتها تنظر إلىّ في دهش وتقول :

— ما شاء الله .. لقد كبرت ما عابده ، وأضحيت .

عروسة ..

وأصابني شيء من الارتباك ، وخاصة أنى وجدت بعض
رواد المحل يتلفتون إلىّ ويحمدون فيّ بتطفل .. ، كأنما
أرادوا أن يتأكدوا حقيقة أننى قد أصبحت عروسة ..

ولم أجد ما أدارى به حياى سوى أن أتكلم فقلت لها
مجرد رغبتي في أن أقول شيئاً :

— كيف حال أحمد ؟

— بخير . الحمد لله . لقد أضفى هو الآخر رجلاً .

— لقد رأيت في حلتك الجديدة .

— أعرف ذلك . فقد أبلغني أنه كان في زيارتكم ،

وأنه جلس معك مدة طويلة .

وتدخلت جدتي في الحديث قائلة :

— كيف . . إني لم أنصره . . لم لم تخبريني أيتها الماكرة ؟

وأجبتها في تلثم :

— لقد حضر لزيارة « علي » ولما لم يحده مكث ينظره

وأظن أنك كنت ليلتذاك في زيارة عي « زكي بك » .

ووجدتها توجه الحديث إلى خالتي :

— يجب أن تدعيه لزيارتنا ، لقد كان دائماً صديق « علي » .

وأجابت خالتي :

— وما زال صديقه . إنه يحبه كأخيه . . ولكنه

« واخذ على خاطره » من عايده .

وتساءلت في دهمش :

— مي أنا ؟

- أجل .. لقد قال لي إنك قلت له إنه كالمثلين ..
وقد صمم أن يكف عن زيارتكم منذ ذلك اليوم .
- لقد كنت أمتزج .. إني آسفة جداً .. أرجوك
يا .. قلت ، أن تعتذري له عني .. إني لم أقصد أن أغضبه أبداً .
وقالت جدي مؤذنة بانتهاء الحديث هامة بالانصراف :
- دائماً لسانك طويل ، وكلامك فارغ .
ثم ودعنا عائلتي ، وانصرف كل منا في طريقه .
وعدنا إلى البيت وأنا أحس في القلب ذبذبة ضعيفة ..
ورجفة خافتة .

وفي اليوم التالي - قبيل العصر - وكنت مضطجعة على
الأريكة في الدور العلوي ، سمعت جرس الباب يدق وفتح
الخادم الباب ، وسمعت خليطاً من صوته وصوت آخر ..
جعلني - برغبي - أنهض واقفة ، وأتجه بحركة لا إرادية ..
إلى المرأة لأطمئن على شكلها .. وأصف شعرها بقدر
ما أستطيع من السرعة ، وأمر بأصابعي على حاجبي لأرتبهما
وأعيد الشعيرات الخارجة إلى مكانها .

ووجدت أنني بهذا العمل السريع الذي فعلته بلا تفكير ،
قد أعددت نفسي للقاءه ، كأنني جزمته أنه قد حضر للقاء أنا .
لا لقاء أخى .. مع أني - فيما مضى - لم أحاول مرة واحدة

أن أعني بلفظه . . فقد كنت اعتبره في غير دائرة الاختصاص ، وكنت غالباً أتنبه عن طريقه حتى لا أكلف نفسي مشقة تحيته والتزجيب به .

وسمعت صوته يتصاعد إلى من أسفل وهو يقول للخادم :
— سيدك ، على ، موجود ؟

— لا ياسيدي . . لقد خرج منذ نصف ساعة .

— ألا تعرف متى يعود ؟

— لا أعرف بالضبط . . ولكنه تعود ألا يأتي

إلا في المساء .

ومضت فترة صمت قصيرة ثم سمعته يقول :

— حسناً . . أخبره أنني قد أتيت لزيارته .

وبدا لي أنه يهم بالانصراف . . فتمسكني الصيق ، ولكني

سمعت الخادم يرد قائلاً :

— سيدتي ، عايدته موجودة ، أريد أن أنبئها بحضورك ؟

وحملت للخادم قوله ، وانتظرت الإجابة ، وأنا أرمف

السمع وبدأي منهمكتان في تصفيف شعري ، وعيناي

مثبتتان في المرأة .

وبعد فترة تردد سمعته يجيب :

— لا . . لا داعي . . إنها سلاي .

وهالم أجد بدأ من ترك المرأة ، والإسراع إلى أسفل .
وأما آل الخادم بصوت عال كآني لا أعرف من الرُّ :

— من بالباب . . يا إبراهيم ؟

— سيدي ، أحمد بك . .

— دعه يتفضل !

وارتفع صوت أحمد يميني :

— إزيك يا عايده !

— أهلا وسهلا .

وهبطت إليه ومددت يدي أصاخه .

ولأول مرة في حياتي أشعر أن أصاخه الأيدي تنفع .
ولتلاص الأصابع لثة ، وتبين لي أن الأحساد البشرية
موصل جيد للحرارة الكهربية . . فقد سرى إليّ من مس
يده تيار أحدث في جسدي رجفة وفي قلبي خفقة ،
ووحشتني أضرب وأرتبك رغم كل ما بذلت من جهد
لكي أتمالك وأبدو طبيعية

وجلست على أحد المقاعد وطلبت منه أن يحاسر ،

ونظر إليّ وجهي وقال مبتسما :

— يبدو عليك استمرار البحر ! !

— السمرة تعجبك ، أم الياض ؟

- حسن في كل عين من تود ا
 — عدنا إلى الشعر . . ألم تسك الخيل ، إياه ؟
 — بل شجعتني عليه . . إنها أشياء متلازمة . . الخيل
 واليد والشعر .
 — والهوى ، وليلى ؟
 — مالي من ليل . . الآن على الأقل ا
 — وبعد ذاك ؟
 — من يدرى ا .
 وتذكرت غضبه لإساقى إياه بتشديه بالمعتلين فقلت له :
 — لقد نسيت أن أعذر لك ا
 — علام ؟
 — على ما يدر مني في المرة السابقة . . إنني ما فصلت به
 سوى المزاج . . أرجو ألا تكون غاضباً مني !
 — أنا أغضب منك ؟ . حاشا لله ا
 — إذا لم قلت لوالدتك إياك لا تزورنا بسبي ؟
 — أبا قلت هذا ؟
 — قلت ما يشبه هذا . . قلت إياك تحب أخى . وإنه
 صديقك الدائم . . ثم قلت إنني أحنى إليك .
 وأطرق برأسه برهة ، ثم رفع إلى بصره ، وانهم قاتلا :

- الواقع أنى لم أتعود منك سوى المعاملة الجافة ،
 والبرود والتجاهل . . أتكرين ذلك ؟
 - لا أسكره ، ولكن سبب .
 - أى سبب ؟
 - سيك أنت .
 - أنا ؟

- أجل . . لقد كنت أعطيك واحدة بواحدة ، والبادى
 أضلّم . . لقد كنت دائماً البادى . بالكبرياء والفضة والتجاهل ،
 فقايت معاملتك هذه بالمثل .

- هذه مسألة يصعب حلها . . . من كان منا البادى .
 بالتجاهل ، . . تماماً كسالة البيضة والفرخة . . أيها وجد
 قبل الآخر ، وإيهما تنج عن الآخر . على أنى أعتقد أن خير
 طريقة لحل المسألة هو أن نكف سويًا عن تلك المعاملة ،
 ومن جانبي أنا . . سأكف عنها ولولم تكني أنت ،
 وسأعتقد لك عن كل مامضى من نهضة وكبرياء وتجاهل ،
 وسأبدأ عهداً جديداً من التواضع . . ما رأيك ؟

- حسناً ، وأنا سأبادلك عهداً بعهدي ، ووعداً بوعدي .
 - اتفقنا . . دعينا تصافح على ميثاقنا الجديد . . ميثاق
 حسن المعاملة .

وضحكك مقهقه ، ومددت يدي لمصاحته .. وسرى بيننا
 نفس التيار الذى سرى أول مرة .
 وصمت برهة ثم سألنى :
 — أما زلت تريد أن تتعلم ركوب الخيل ؟
 — ليقنى أستطيع .
 — ولم لا .. سأحضر إليك بالحصان ذات مرة ،
 وسأخرج بك للتنزه بين المزارع .
 — وإذا وقعت ؟
 — تركب مرة أخرى .. إذا استمر الحصان فى مكانه ،
 وإذا جمع تعودين سيراً على الأقدام .
 — وإذا كسرت ساقى ؟
 — يبقى لك ساق ثانية
 وإذا قذف بي فى التربة ؟
 — تفرق إذا كنت لا تجيد السباحة ، وتبتل ثيابك
 ونصاين بالبرد إذا كنت تعرفينها .
 — ماشاء الله .. أهذا هو ميثاق حسن لمعاملة ؟ من منا
 البادى بنقضه .. كسرت ساقى ، وقتلتنى غرقاً . أهذه معاملة ؟
 — هذه معاملة الخيل .. لبيت مسؤولاً عنها .
 — دعنا من الخيل ، الآن .. خبرنى كيف تقضى

وفت . . هل ما زلت تعلم فن الركوب . . أم صرت راكياً
هنا . . أم فناناً راكياً ؟

— كليهما . . لقد انتهت فرقة « الركبدارية » ، وأضخيت
خناطاً قديماً مسقولا ، وتسليت « بلوك » ، وأضخيت قائداً
لأربعين جندياً ، وأربعين حصاناً . . ما رأيك ؟
— كثير عليك . . ماذا تفعل بكل هذا ؟
— إذا لم تكن عن السخريه . . سأبطل الحديث .
وصحكت وأفانته أنى لا أسحر بل أستكثرها حقيقة . . .
وقلت وأنا مسترسلة في الضحك :

— لو كنت مكانك وسلبوني أربعين حصاناً لاعتبرتها
كارثة ، وقررت هاربة حشبة أن « يرفضنى » أحدها . . أو
« يعضنى » آخر . حدثنى ماذا تفعل هذا البلوك الذى تقوم به ؟
— أدرّب الجنود ، وأتولى رعايتهم والعساية بهم ، وأما
مسؤول كذلك عن نظافة الخيل ، وطعامها ، وسرورها ،
وتدريبها .

— كان الله فى عروك .
— عدنا إلى السخريه !
— هذه سخريه ؟ . أنا أطلب من الله أن يعينك على
الأربعين حصاناً . . كيف تقوم لها بكل ما ذكرت ؟

— أمتيقظ حوالى السادسة .. وأكون فى الإسطبل
 الساعة السادسة والنصف .. فأتهم على الجنود والخيـل ..
 وأناكد أن واحداً منها لم يضع .
 — واحد يضع ؟ كيف ؟
 — لقد سمعت أن الطوبجية سرقوا ذات مرة بغلا من
 السوارى .. ومن ذلك اليوم ، وأشد ما أخشاه أن يسرقوا
 منى حصاناً أو عسكرياً .
 — وبعد أن تتمم عليها ؟
 — نبدأ التفتيش على نطقة الخيل والسروج والجنود ،
 ثم نصطف للتأبور .. وفى الساعة السابعة نتحرك إلى الخانات
 وهى أرض مفروشة بالقش نتخذها ميـدأماً للتدريب ..
 فإذا ما انتهى التأبور عدنا إلى الككنات لسقى الخيل
 وإطعامها .. ثم تناول طعام الإفطار ، وتبدأ بعد ذلك عملية
 الطومار .. وهى تنظيف الخيل .. وهى أثقل عملية
 تصادفنى فى يومى وأشدها مللاً .. فإنى أدرع فيها الإسطبل
 ما يقرب من المائة مرة ، وأسرح فى كل شىء .. وأقرض
 الشعر ، وأؤلف القصص .. ويبدولى أن دهرأ قد فات ،
 ثم أنظر إلى الساعة فإذا بها لم تتجاوز نصف الساعة .

لست أدري ما يدفعني الآن إلى تذكر تلك التفاصيل
التافهة . . ولكن يبدو لي أن في تذكرها إطفاء لحرقة نفسي
وتهدئة للوعة قلبي . . إنني أستطيع الآن أن أذكر أقواله كلمة
كلمة . . أستطيع أن أذكر كيف كانت تلك الأحاديث التي قد
تبدو لكم تافهة مملة . . ذات وقع لذيذ في مسمعي . . كنت
أصغى إليها باهتمام عجيب . . شاعرة أنني قد بيت أمت إلى دنياه
لصلة وثيقة ، وأن عالم الخيل والجنود ، والطومار ، وده حياة
الميس ، ونوادير الضباط وأعمال الشكاك قد أصبحت أشياء
هامة لدى ، كما هي هامة لديه .

كنت أحب حديثه عن نفسه . . مدعية لنفسي أنني أحب
الحديث . . كمجرد حديث . . وأن هذا لا يعني قط أنني مهتمة
بمصاحب الحديث .

كنت أدعي هذا ، وأنا أعلم في قرارة نفسي أنني كاذبة ،
فما خطر ببال من قيل . . وقد أمضيت على قيد الحياة
سبعة عشر عاماً . . أن أهم بالخيل . . أو بالضباط . . أو
بالجنود ، بل ما فكرت لحظة أن هناك شيئاً يسمى « السواري » ،
بل كنت أعرف أن هناك جنوداً وصافطاً . . ولا أكاد أفرق
بين ضابط البوليس والحيش .

وخل يحدثنى ذلك اليوم دون أن يمل من الحديث ، أو
أملّ من الإنصات . . حتى سمعت صوت « جدتي » تناديني
بأن أصعد لأرتداء ملابس استعداداً للخروج ، فقد كسا على
اتفاق بأن أذهبها في زيارة إحدى العائلات الصديقة .

ونميت أن تذهب وحدها ، ولكنني لم أكن من الجنون
بحيث أحاول أن أدعي أي سبب للتخلف ، فقد كنت أكره
أن أضع نفسي موضع الشكوك . . لا أمام الناس فحسب
بل أمام نفسي .

وعندما سمع هو صوت « جدتي » تهباً للانصراف ،
واستأذني في أن يصعد لتحية « جدتي » . . فصعدنا سوياً .

وكانت « جدتي » مخلوقة طيبة ، حلت في حياتي محل الأم ،
ولم أكن أجد فيها عيباً إلا مشة شبيهة بابنتها - أبي - من ناحية
الترية والآداب والكرامة ، وغير ذلك مما أثقلوا عليّ به .

ولقيته « جدتي » بالترحاب . . . ترحاب العجائز الذي
لا يخلو من الرب والسمة ، ودعوة الله أن يحرسه ويحفظه
من العين .

وتقبل « أحمد » دعواتها بالشكر وبعض الخجل . . ثم
ودعنا وانصرف بعد أن دعت « جدتي » إلى تكرار الزيارة

خاصة وأن عمله ليس بعيداً عن البيت .

وخرجت مع « جدى » فييل الغروب . . وقد تملكى
إحساس بالسعادة لا أدرى كنهه ولا علته .

كنت أحس بثورة خفية . . كنت على حال من الطرب
والسرور تدفعنى إلى حب الناس كلهم وحب الدنيا بأجمعها .

كنت مبالغة إلى المرح والفناء . . كنت أشعر برضى عن
كل شيء ، وعند ما عدت إلى الدار وتناولت العشاء وذهبت
إلى النوم أحسست برغبة تدفعنى إلى الجلوس في الشرفة وإلى
أن أفكر كثيراً .

وأحسست وأنا أحرق في النجوم بحنين إلى شيء مجهول
وبدأ لي كأنى شيء ناقص . . مارال له بقية . . هنا أو هناك ،
وأن أتلف على بقيتي . . وبدأ لي أنها تحوم حولى ، أو
أحوم حرماً . . وأنها تتوق إلى كما أتوق إليها ، وأن كلامنا
سيظل بلهث في الحياة ويتخبط حتى يلتقى . . فنصبح شيئاً تاماً
كاملاً ، قائماً بذاته .

ولم أحاول أن أحدد لنفسى على أى شكل خلقت بقيتى
وعلى أى صورة كوّنت . . ولا حاولت أن أقرب بها من
الحقيقة فأجسدها على هيئة معينة ، وألبسها لمخلاق بالذات ،

فقد كنت أجهن عن ذلك . . كنت أفضل أن أبقى هائمة . .
وأن أقول لنفسي إن هذه أوهام وأحلام . . على أن أعترف
لها بأنني . . مساطة . . أسمى إلى الحب ، وأن هذه البقية
التي أتوق إليها . . إنسان حي كائن . . أشعر به يقترب من محيط
حياتي ، ويترك باب قلبي .

كنت أكره أن أعترف حتى لنفسي . . أن رجلاً ، أو
على وجه أدق ، أن . أحمد . . قد بدأ يتخطى نفسه في نفسي
مركزاً متمسكاً . . وأني ككل أنثى أوشك أن أتردى في هاوية
الحب . . إن لم أكن قد ترديت فعلاً . . وأن كل تلك المساعة
التي حصنت بها ، والمبادئ التي لقيتها . . قد تهاوت عند أول
هجمة من هجمات الحب .

وذهبت إلى الفراش ورأسي خليط من الأفكار وبفسي
مزيج من المشاعر . . حين ، وخوف ، وتمنّ ، وانتظار ،
وكان كل ذلك قد أحيط بهالة من السعادة والإحساس بأن
أحدنا أوشك أن تقع في حياتي ، وبأنني رغم كل ما أذيعه
من السخرية من الحب . . والإلحاد به ، . ورغم جمود حسي ،
وبرود مشاعري . . قد ترديت في الهاوية . . وأني مهما
ادعيت ومهما زعمت فقد وقعت في الشرك ، وبت أنظف على
حضور . أحمد . . وأنشروق إلى رؤيته .

كيف لا ، وأما إن قد قاومت تفكيرى فيه فى بقطتى
هاجنى طيفه فى نومي ، فلم يدع لى حلاً واحداً أخلو فيه بنفسى
دون أن يشاركنى فيه .
قاتل الله الأحلام ، لقد هزمتى شر هزيمة . . لقد كنت
أراء وأحبه فى كل حلم .





امنیته مشترکہ

أحمد ، يتردد بعد ذلك على دارنا في فترات .
أحمد متقاربة . . وكان حضوره طبعاً . . لزيارة أخى ،
أو على الأقل هذا ما كان يبدو في الظاهر وإن كنت بإحساس
المرأة قد استطعت أن أجزم أنى وحدى كنت مقصده .

ولم تنح لنا فرصة لقاء طويل ، إذ كان يجد أخى في كل
مرة بأتى إلينا ، وكان إما أن يمكثنا معاً أو يخرجنا سوباً . .
ولم أك أعلم في كل مرة سيبأ يبرر لي أن أدخل حجرة أخى
وأن أسلم عليه وأتحدث معه حديثاً سطحياً عابراً .

وفي ذات يوم ، في أواخر أكتوبر ، اتفقت مع جدتي
على أن أصطحبها إلى إحدى دور السينما حيث كان يعرض
فيلم مصرى ، وارتدينا ملابساً استعداداً للخروج ، ووقفنا
بالباب . . وعندنا كنا نهم بركوب العربة لخت ، أحمد ،
مقبلاً علينا .

وبعدما اقترب منا حيالاً وقال متسائلاً :

— « على موجود ، ؟ »

وأحسست برغبة تصدى عن الذهاب إلى السينما وتمنيت
أنى لو أجلتها إلى يوم آخر . . فقد كان الوقت مناسباً للتنع
بجلسة لطيفة . . ولكن لم تكن هناك وسيلة للتكوص .

وأجبتة :

— لقد خرج منذ برهة .

ونظر إلى .. وقد بدا عليه أسف ظاهر لم يستطع أن
يخفيه .. أسف لأنه لم يجد أخى ، وأسف أشد لأنى لست باقية
فى البيت .

ولم يملك سوى أن يحيدا .. وجههم بالمسير .. ولكن
« جدتى » دعت إلى أن نوصله بالعربة إلى حيث يريد .
وركب بجوارى ، وسألته « جدتى » :
— هل أنت ؟

— ليس لى مقصد معين ، ربما ذهبت إلى السبيل .
— إذا تذهب معنا ، إنا ذاهبان لمشاهدة فيلم
(الشيطان شاطر) .. هل رأيته ؟

وأحسست أن الأمور قد تطورت فى غمضة عين إلى
خير ما أشتى .. لأنه لاشك سيصحبنا إلى السينما .. وأنى
أوشك أن أجلس بجواره ثلاث ساعات .. وتمنيت أن يقول
إنه لم يره وكان هو عند حسن ظنى ، فأجلب سريعا :
— لا .. لم أره .. ولكنى سمعت أنه من خير الأفلام .
لأنهم يقولون إنه مضحك جدا .

— كذا قالت لى عابده ، ولهذا أصرت على أن تذهبنى

لمشاهدته .. أنا لا أحب السينما .. ولكن عندما يكون الفيلم
مضحكاً تصبح محتملة .

وانسابت بنا العربة في شارع الملك ، ثم شارع الملك
نازلي ، وتملكني إحساس عجيب بالسعادة والرضا عن
جلستي بجواره .. وأخذت أرقبه بطرف خفي .. ولم تخف عليه
نظراتي فسألني مازحاً :

— أما زلت تربني كالملثمين .. مفرطاً في الإفاقة ..
مفرطاً في الجدة ؟

ومضكت وأجبت :

— لا .. لقد بدا عليك القدم .. وأوشكت البدة أن
تبل .. بعد شهر ستصبح كالساعة .

وتدخلت جدتي ناهرة إياي :

— يا بنت .. كفي عن قلة الأدب .

وأجاب هو ضاحكاً :

— دعها .. فسأعرف كيف أعلنها الأدب .. إن بيننا

ميثاق حسن معاملة .. والشتائم في عرفها من حسن المعاملة .

ووصلنا إلى السينما ونظرت إلى واجهتها فإذا بي أرى إعلاناً
عن فيلم جديد ، وإذا بالفيلم الذي أتيانا لرؤيته قد انتهى عرضه .
وكان الفيلم المعروض أجنياً .. وتملكني خوف

من أن تنكص « جدتي » عن الدخول .. وقت لها :
— لقد انتهى عرض الفيلم .. والفيلم الجديد أجني ..
ما رأيك بانيته ؟

— فيلم أجني ؟ أنا لا أفهم من هذه الأفلام شيئا .. كان
يجب عليك أن تتأكدي من برنامج العرض في الصحف .. حتى
لا تقطع المشوار ، بلا فائدة .

— ولكنه فيلم جيد جداً .. من أحسن الأفلام .
— أحسن الأفلام وأرودها عندي سواء ، لأنني لا أفهم
كليهما .

— سأشرح لك .
— لا .. لا .. لا داعي لتعب القلب .
ومضت فترة صمت لم أستطع أن أخفي خلالها علامة الضيق
على وجهي وأردفت « جدتي » قائلة :
— على أية حال .. يمكنك أن تدخليني للسبيل مع
« أحمد » وسأذهب أنا لزيارة « نفيسه هانم » ثم أعود إلى
البيت .

ولم أصدق أذني ، فقد وجدت أن الظروف قد كرمت
معي إلى حد التمييز والسفاهة .. وأسرفت في سخاها إلى درجة
لم أتصورها قط .

أهكذا ينتهى الأمر بنا بمثل هذه السهولة إلى أن ندخل
رحيدين سويآ ؟ لا .. لا .. هذا كثير !

وكان الواجب علىّ أن أبدى بعض التردد والممانعة ،
وأن أقول مثلاً : لا ضرورة لليوم للسبينا ، أو : لا يا بنه
سأعود معك ، أو أدعى أن : نفسي هائم ، قد أوحشتنى .
كان هذا الواجب علىّ ، وكانت تلك هى الأقوال
الطبيعية المنتظر منى قولها .. ولكنى خشيت أن ينقلب
الأمر فى اللحظة الأخيرة ، فتوافق جدتى ، على أن
أعود معها ولا يصيبنى غير الدم .. وعلى نفسيها جنت
مراقتى .

وهكذا وجدت نفسى أقول ببساطة وكأنى أمثل لأمر
مجبرة عليه :
— أمرك يا بنه !

وهبطنا من العربة ، وأحسست ييده تطبق على يدى
ليعودى وسط اخاهير المتراصة أمام دار السبينا . . وتركى
قليلا ليتنازع التفاكر ، ثم دلفا إلى الداخل .

وقادما عامل المتقاعد : بيطاريتنه ، وسط الظلة إلى مقاعدنا
وسرنا تتجسس طريقنا وهو يمسك يدى حتى استقرنا على

المقاعد ، وانتهى عرض ، الجريدة ، التي حضرنا في خلالها
وعرضت إشارة الفيلم القادم .

وقلت له ، أيا لشاهد الإشارة :

— الظاهر أنه فيلم مذهش !

— نراه سوياً .. إذا لم يكن لديك مانع .

— ولكن ، جدتي ، لا نحب الأفلام الأجنبية !

وخيل إلى أنه يتسم في خبث وهو يقول :

— وفيما إليه اتذهب لزيارة نفسه هانم .. حفظها الله

وحلت فترة الاستراحة وأضئت الأنوار ، ، وأخذنا

متطلع إلى الوجوه المحطة بنا ، ووجدته يشير برأسه محيياً ،

وتلفت إلى حيث ينظر فوجدت سيدة وفتاة في مثل سنى وشاباً

يبدو أنه أخوها .. فقد كانا متقاربين في الملاح .

وعندما انتهى من تبادل التحيات والانسامات ، نظر إلى

وقال مفسراً :

— محمود عبد الرحيم وأخته ، ابتسام ، وأمهما ..

جيراسا في المنزل .. والأم أعز صديقات أمي .. عائلة طيبة .

وأمرى تحبهم كثير أ .

راسترت نظرة أخرى إلى العدة ، فاحصة إياها حرصاً

سريعاً .. فوجدتها على كثير من الرجال .. وخاصة جمال
الوجه .. أما جسدها فقد بدالى على قدر ما رأيت مما تلا
إلى السنة .

وقلت مسترجلة :

— الفتاة جميلة !

فأجاب بعدم اكتراث :

— بنت حلال .

وعدت ، أقول مازحة وفي شيء من السخرية :

— أراها تنظر إليك كثيراً ؟

ونظر إلى برأسه محققاً كأنه يريد أن يعرف ما وراء

كلامي ، ثم قال وهو يتنسم :

— متأكدة ؟

— جداً . ويبدو لي كأن وجودي معك قد ضايقها !

— معها حق .. ألبست عروستي ، المقبلة ؟ على كل حال

سيزول ضيقها عندما تعلم أنك ابنة خالتي ، وأن ما يبسا مجرد

قراءة .. وأن وجودنا في السينا سويًا .. كان عفواً بلا سابق

موعد ولا تدبير .

ورغم ما كان في لهجته من مزاح .. ورغم تأكيد أنه

يرد على محاولتي إغاثته .. فإني أحسست من قوله بصحة خفي

حاولت أن أقاومه وأحضيه بأن أفرض على نفسي شعوراً
بعدم المبالاة .

وقلت له في لحظة حاولت جهدى أن تكون مازحة :

— لم كنت تنكر إذاً أن لك ليلتك ؟

— ليلاي شيء .. وعروسي شيء آخر .. هذه عروس

بالإكراه .. فقد اتفقت أوى وأما منذ ثمانية عشر عاماً ..

— أى منذ ولدت — أنها ستصبح زوجتى .. وأغلب الظن

أنهما قد قرآ الفاتحة وجزء عم ، بأ كله .

— وماذا يمنع من أن تزوجها ؟

وعاد يحدق فى غيظ :

— وماذا يجعلنى أتزوجها ؟

— الذى جعل الناس كلهم يتزوجون .

— على أية حال .. أنا لا أعتبر صداقة أوى لأمها .

سبباً يجعلنى أودى بنفسى إل تهلكة الزواج .

— أو تعتبر الزواج تهلكة ؟

— طبعاً !

— إذاً فلن تزوج ؟

.. إلا أمام عامل واحد .. ينهاى أمامه كل عزم .

— وهو ؟

— الحب .

— حب !!

قلتها بمنتهى السحرية والاستحفاى . وأجابه ضاحكاً :

— آه .. لقد نسيت أنك من أعداء الحب .

وأطلقه نور السينما إيذاناً ببنتاء الفيلم ، وهبات الضجة
الى كانت تسود المكان خلال الاستراحة ، ولتى أتحت لنا
أن تبادل الحوار السابق .. ووجدنا أنفسنا — على غير
رغبة منا — قد اضطررنا إلى الصمت وإلى أن نتجه بأبصارنا
إلى الشاشة .

وبدأ عرض الفيلم .. وحاولت أن أركز تفكيرى
فى الحوارات التى تتابع أمامى ، ولكنى وجدت تفكيرى
يتفرق بدءاً ، وذهى يشرد فلا أكاد أله ، ولم أستطع أن
التقط من القصة المعروضة سوى مناظر متفرقة متباعدة
لا أعى لها معنى ولا أرى بينها رابطة .

كانت الأفكار تموج فى ذهنى وتختلط .. أحمد وعروسه
المقبلة .. ابتسام وأما وقراءة الفاتحة .. . يمكن حقاً

أن يتزوجها ؟ لم لا ؟ ولكن ألم يقص إنه لا يحبها ؟ .. من
تكون ببلاده ؟ ألا يحتمل أن يتزوجها لإرضاء لوالده ؟
ألا يحتمل أن يحبها على مر الأيام ؟

ولكن مالي أنا ولهذا .. ليتزوجها .. أو ليتزوج سواها
من نساء الأرض .. ماذا أريد منه ؟ وأى حق لي عليه ؟
تبدأ لي من حمقاء ماجنة !

وبدا بتلكني إحساس بأنه يسترق الطر إلى في الظلمة ،
وأنه هو الآخر لا يتبع حوادث الفيلم .

وتنبت لو أننا استطعنا الكلام وعادتنا الحديث ..
لكي أقول له - ولنفسى - رأي في الحب ، وأعلن له أى
جامعة العاطفة .. بين وبين الحب جدار تخين يقيني شره
ويؤمننى عصفه .

وازداد بي القلق .. وحيل لي أنه لم يكن بأقل منى قلقاً ،
ووددت أن أعاد دار السينما وستبدل مجلسنا فيها جلسة
في الشرفة الخضراء المورقة الخضرة المزدهرة .. وكنت أعلم
أن القمر الليلة في تمامه ، وأنه يخلع على الشرفة سحراً عجيباً .
وخافة وجدت قلقي يزدل .. وذهنى الشارد يستقر ،
وأفكارى المختلطة الصاخبة تهدأ وترتكز .. كل ذلك كان
مبعث حركة نافذة بسيطة .

كنت أجلس في أول الأمر وبداي متشابكتان
في حجرى ، ولكن حدث أن غيرت جلستى وملت
مسندة مرفق اليمين - والأقرب له لآله كان يجلس على
يمينى - إلى مسند الكرسي مادة ماعدى ، بأسطة كفى على
حافة المسند .

ومدّ هو يده - بقصد أو بغير قصد - ليمسد كفه على
نفس المسند . . . وشعرت بكفه توضع برفق فوق كفى . . . ولم
أحرك ساكناً فقد أحسست بالتيار الحثي الممتع الذى سبق
أن أحسست به عند مصافحته . . . ولكنه كان فى هذه المرة
أشد وأقوى ، كانت كفه أكثر دفئاً وحناناً ورقة .
وبداً بيننا الحديث ، ليس بالشفاه ، ولكن بالأصابع
والأكف .

ولمى لاكتب الآن ، وأنا امرأة ذات خبرة وتجربة ،
ذقت من كؤوس طوى أعذبها . . . ومن متع الفرام ألذها
وأشهاها ، ولكنى أقسم أننى ما ذقت فى حياتى أمتع من
هناجاة يدينا ليلتذاك .

أحسست يباطن يده يتحسس برفق وشغف ظاهر يدي
كما يتحسس البخيل أنفـس ما يملك ، ليعطى على رجوده . . .
أر كما يتحسس الأعـمى العاشق وجه من يحب . . . ثم بدأ يدفع

أصابه أسفن أصابعي فيتحسسها أصبعاً أصبعاً بمنتهى الرقة
كأنما يحشى أن تذوب في يده ، أو تنفت بين أصابعه ، وبدأ
في تحسسه هذا كأنه غير مصدق أن هذه أصابع أو كأنه
لأول مرة يمسك أصابع .. أو كأنه قد أذهله أن يحد
بالكف خمسة أصابع ١١

وأحسست به — بعد ذلك اللبس المفرط في الرقة
والحان — يحتوى كفى في يده ، ثم يضغط عيباً صغيراً
خفيفاً .. خفيفاً جداً . لا يكاد يحس ، وكأنني به يهتف من
أعماق قلبه ، أما أحبك . .

وبدأ بعد ذلك دور العناق .. ولم لا أتميه عفاً
وأما ما أحسست من العناق الحقيقي بأكثر منه متعة !
لقد تخال أصابعي بأصابعه فتشابكت أيدينا ، واستقرت
يدي في يده وأحسست راحة بحنية .. كأنني قد استقرت
في أحصانه .

قد يبدو حديثي مضحكاً ، وقد يستغربه البعض وينكره
البعض الآخر متهمين إياي بالعتة أو الجنون ، ولكنني واثقة
تمام الثقة .. أن العشاق سيفهمونه .. العشاق الذين يرسلون
مناجاتهم مع الرياح ، ويتفاهمون بذبذبة القلوب .. لا بد

أن يقدروا كيف تفهم الأكف وتتناجي الأيدي .

ووجدته يلتفت إلى في الطلبة ويهمس :

— أراضية أنت عن الفيلم ؟

— نصف ونصف .

— ما رأيك في مغادرة السينما ؟

— إلى أين ؟

— إلى البيت . . نجلس في الشرفة ياها !

وصادف عرضه هوى في نفسي ، ولو أنني أوتيت شيئاً

من الشجاعة لكنت البادئة بعرضه .

وصمت برهة ثم همست به :

— هيا بنا .

ونهمضنا عن مقاعدنا متسللين إلى الخارج ، وقد تملكني

خجل شديد وأحسست أن الناس جميعاً يرقبوننا ، وخيل إليّ

أن عينيّ معنيتين بالذات تعدقان فينا . . هما عينا « ابتسام » .

وخرجنا إلى الطريق ، وتلفت حوله يبحث عن « تاكسي »

ولكنني كرهت أن أحمله أجره ، وأصررت على أن ركب

الأتوبيس ، وسرّ في « شارع فواد » حتى بلغنا تقاطعه

ب« شارع سليمان باشا » ثم اتجهنا إلى أتوبيس ١٤ .

وحضر الأوتوبس بعد فترة قصيرة ، واتخذنا مجلسنا
متجاورين على مقعد واحد ، وكانت العربـة ـ على غير العادة ـ
تمكـاد تكون خالية .

واستغرقنا في الحديث . . في حديث طويل لم يقطعه
غير الكسارى عندما حضر لإعطائنا التذكيرين .

ولست أدري . . من أين كان يأتيها كل هذا الحديث
الذى لا ينضب له معين . . إني لم أك قط ثائرة . . بل كان
أكثر ما نعيه على جدتي ، هو ميلى إلى الصمت وعجزى
عن مسايرتها والحديث معها ، ولكنى كنت معه طالقة
اللسان ، أستمري الحديث معه وأستعجب الإنصات إليه .

كنا تكلم وتكلم . . دون أن نحس مرة واحدة أننا
تشكف الكلام . . أو يعيبنا موضوع الحديث . . ولم
نكن نعرف ما دمناسوا . . أن هناك شيئاً يسمى الملل
أو السآمة . . لأننا ما أحسننا بمرور الوقت . . فقد كان يمر
بنا كلح البرق . . كان عقرب الساعات يعدو في سيره . .
أما عقرب الدقائق فلم يكن له في زمننا وجود .

وكان يجب أن نترك الأوتوبس قبل النهاية بمحطة . .
ولكننا لم نشعر إلا وقد وقفت العربـة في نهاية الخط .

وغادونا العربة .. وكانت المحطة الأخيرة قائمة قرب
الجامع، المظل على «سراى القبة»، والكائن فى زاوية ينتهى
عندها شارع الملك، وبيتدى الشارع المؤدى إلى المطربة
المتد بحذاء سور السراى البحرى، والذي يقوم السراى
على أحد جوانبه، وتقوم المزارع على الجانب الآخر،
وتظلل أشجار البانسيانس الممتدة على الجانبين.

وكان عليا لى نذهب إلى البيت أن نعود أدرجا من
«شارع الملك»، ولكنى رأيت قد توقف أمام الجامع برهة
لينظر إلى أشجار البانسيانس الممتدة فى الطريق الزرعى،
ونظر إلى ساعته ثم قال:

— الساعة الآن ما زالت الثامنة .. ما وأيك فى التفره
فى هذا الطريق؟

ولو قال لى إنسان من قبى أنه يحتمل أن أسير مع شاب
— أيا كان — فى مثل هذا الطريق وفى مثل هذه الساعة
من الليل .. لسبته واتهمته بالجور .. فما كنت أجزؤ فقط
على التفكير فى مثل هذه المشية المشبوهة المسترقة، وما كان
يخطر ببالى أن أسير فى الطرقات وفى المزارع .. كما بهم
العشاق المخائيل

ولكننى في تلك اللحظة .. والقمر يسطع نوره المهادى ..
الزطب على المزارع الممتدة ، والجوامع قد بدأ يبيض نظيفاً
كأنه قد اغتسل ببور القمر .. والأشجار قد ترامت ضلالها
على الطريق .. فبدت قارعتة وكأها بججاد منقوش ، والنسيم
يعرك الأوراق فيبعث منها حفيفاً كأنه الأنفاس الناعمة .

وهو ١١ هو .. ذلك المخلوق الساحر العجيب .. الذى
فعلت بي مسة يده .. ما لا تقدر عليه عصا موسى .. الذى
جعلنى — أنا الباردة الجامدة — أذوب .. وأتحلى .. كما
تذوب قطعة جليد عندما يلقى بها فى فوهة بركان .
كيف أقوم وقد استعان عني بنسيم الليل وضوء القمر
وممس الشجر ١١

وترددت برهة .. فقد مررت بخاطرى .. ما يمكن أن يقوله
أى من أهل الدار : أبى أو جدى أو أخى .. لو عرفوا أبى
أمير مثل العشاق فى مشية شاعرية ؟

وتلكنى حروف .. لا بما يمكن أن يفعلوه بي ، فما كنت
لأخاف إنساناً قط . حتى أبى ، ولكننى كنت أخاف على
كبريائى أن تنحطم .. كان أقصى ما أخشاه وأكرهه .. هو
أن يقال عني إنى عاشقة وأنى تردت فى هاوية حب .. حتى

ولو كان حب الرجل الذي يصح لي زوجاً .
وقلت لمسى إن البيت آمن عاقبة . . فإني في بيتي أستطيع
أن ألتصق ما شاء حجة أدفع بها عن نفسي وصحة الحب . . فأدعي
أنه يحضر لأخي ، وحتى لو قال أحد إنه يحضر إليّ ، فإني
أستطيع أن أجيب : ما ذبي ؟ أيمكن أن أطرده ، أو أحرّم
عليه المحي ؟

كنت أفضل أن أتخذ دائماً — ما دمت أوشك أن أتردى
في الهاوية — موقفاً سلبياً ، حتى أستطيع الاتصال بسهولة .
وهممت بأن أقول لا ، وأنه خير لنا أن نعود إلى
البيت .

ولكنني وجدته لم يستطع على ترددي صبراً ، فجذبني من
بدي قائلاً :

— هيا بنا . . هي أننا ما زلنا في السبيل .
وسرت معه مترددة في باديء الأمر ، ولكنني تذكرت أن
جلسة الشرقة غير مضمومة ، إذ يحتمل أن يكون أخي قد عاد
مبكراً فيضطر أحمد إلى الجلوس معه .
وأمر آخر ، استطعت أن أقنع به نفسي — أو على
الأصح — أغالط به نفسي ، وليس أسهل على الإنسان من
مغالطة نفسه .

لقد قلت إن المسألة مسألتي أما أولاً وآخرأ ، وأنى مادمت
واقفة من نفسي ، قادرة على كبح جماحها ، فلا خوف على
كبريائي ، وعلى مقاومتي .

إني لا أحب ، ولن أحب ، هذا مجرد ترويج عن النفس ،
وإن صحبة إنسان لطيف مذهب ، قريب ، لا يمكن أن تعني
أنى ترديت في هواه ، إنه مجرد أخ ، أو صديق .

أما التزه في النسيم العليل ، وفي ضوء القمر ، فهذا شيء
طبيعي . . كيف يكون التزه إذا ؟ في هجير الشمس وسمارة
القيط ؟ أكل المتزهون عشاق ؟

لا . لا . يجب أن أكف عن هذه الوسوسة ، وهذا
الخوف . . ويجب أن أكون أنبت جناسا ، وأشجع قلبا . .
لا يجب أن أفر من الحب ، بل يجب أن أواجهه وأفهره .

وهكذا — ككل المناقطين — تمكنت من إقناع نفسي
وطمأنة قلبي ، ولم أحاول أن أتسامل مثلا : لو كان أخي محل
أحمد ، أكنت أقدم على التزهة معه بنفس السرور . . وب نفس
المتعة ؟ 19

وبدأنا السير في الطريق . . وعائدنا الحديث ، حديثاً عاماً
حاداً عن مبادئ وآراء ووقائع . . ليس فيه أى أثر من
أحداث العشاق ومناجاتهم .

وبلغنا منتصف الطريق ، فلاح لنا بين المزارع شبح
ساقية قديمة ، وسور مهدم ، وشجرة توت ضخمة قائمة على
بقايا الساقية . . وبد منظرها في ضوء القمر . . أشبه بلوحة
زيتية من صنع فنان ماهر . . ووقفنا برهة نتأمل المظهر
الساحر - أو على الأصح - الذي أبدته لنا أوامنا ،
ساحراً .

وسألني في رقة :

- أنستريح قليلاً على السور بجوار الساقية ؟

ويبدوا لي أنني كنت في تلك الليلة قد نسيت لفظ لا . .
فقد أشرت برأسي بحجة : « كما تشاء » .

واتجهما يسارنا في الطريق الضيق بين المزارع ، ولم نسر
إلا مسافة قصيرة ، ثم بلغنا الساقية وجلسنا على حافة السور
مواجهين القمر .

وحين في هذه الجلسة . . كنت مقنعة نفسي تماماً ، أن
المسألة ليست مسألة حب ، وأنني لم أشعر بعد بالحب .

أي حقاً منافقة كنت ؟ ماذا كنت أظن الحب ؟ طارق
يدق الباب ، ويسأل عني . . ثم يمسك بتلابيبي ، ويطبق على
خدي ، ويقول : « أنا الحب ، أليس كذلك ؟ »
أبكني . . لكي أتجنب الحب . . وأخفي غير عاشقة . .

ألا أتكلّم عن الحب ، وأن تكون كل الأحاديث بيننا
لا تحمل طابع المناجاة ؟ أيمكن أن يكف المسان عن أقوال
الحب ، حتى يصحى المرء غير عاشق ؟

لقد كان هذا هو مبدئى ، الذى أفتت به نفسى لكى
أحارب الهوى .. كنت دائماً عفة اللسان ، عفة التصرف ..
إذ كان لسانى ومطهرى هما أقصى ما أستطيع التحكّم فيهما ،
أما قلبى فقد كان فوق إرادتى .. كان جامعاً شاردأ ،
لا سلطان لى عليه .. كان نائراً على .. متردأ على حكمى ،
مستقلاً تمام الاستقلال .. كنت فى واد ، وهو فى واد ..
كنت أجف من الحب ، ويعين فيه . أدعى الحمود والبرود ،
وهو يرقص طرباً بلا خجل ولا حياء . أحلس ثأته وقوراً
متألكة متماسكة ، وهو يهفو ويترنح . شوان فى حبات الصدر
عريد ..

قلت له وقد استقر بنا المقام على حافة الساقية .. ومن
حولنا الحضرة المتراصة كأنها بحر يحرك السيم أمواجه :
— حدثنى عن آمالك فى المستقبل وأمانيك .

وصحت برهة وأطرق برأسه مفكراً .. ثم انطلقت منه
ضحكة خائنة وأجاب :
— أمانى نوعان

.. كيف؟

— نوع قريب ، ونوع بعيد .. نوع مستطاع ، ونوع فوق الطاقة . نوع في اليد ونوع على الشجرة ، أو على مدى الحوراء . هل تعرفين قول الشاعر :

منى إن تكن حفاً تكن أحسن لى

والا فقد عشنا بها زمناً رغداً

إن آمياتي تجمع الوعين ، نوع آتاه وآمل أن يتحقق ،
ونوع آتاه لأعيش به زمناً رغداً ، ولأضع به ملل
« الطومار » وأسرح فيه خلال تأيب « الفرميدان » ، وبصائحته .
ولم آتاك الضحك وقلت له :

— هذه طريقة مدهشة .

— أجل ، السرحان ، هو خير طريقة لكي لا نسمع

ما لا نودّ أن نسمعه .

— دعنا نستعرض أمايك .. حدثني أولاً عن الأمانى

التي تعيش بها زمناً رغداً .

— لا . لا . إنها أمان مصحكة ، ستجعل منى سخرية ،

إذا ما صرّحت لك بها .

— لا بد أن تقر لها لى .

— حسناً .. إنها ليست شيئاً كثيراً ، إنها تنتهى بي دائماً

إلى أن أصبح أحد شخصين : شكسبير ، أو مابيون ، أقصى
النبوغ في الاتجاهين اللذين أسلكهما في الحياة ، أما عن طريق
الوصول ، فإنني أتخذ طريقاً ليس به قدرة غير معقولة بل أجعل
كل وثباته معقولة ، وأخلق لها الظروف والمسابات . وأطل
أرتفع بنفسى شيئاً فشيئاً حتى أجدنى في النهاية قد صرت
— بمنتهى الساطعة — أحد الرجلين الخالدين ، تلك هى المنى
التي لن تتحقق ، والتي عشنا ، وسنعيش بها زمناً وغداً .
— بقيت التي إن تكن حقاً . . . تكن أحسن المي .

ولم يتمالك الضحك وعاد يقول بكرر قولى :
— . . . تكن أحسن المنى . . . لقد تعلمت ترديد الشعر . .
وبعد قليل تتعلمين قرصه .

— من حاور الحداد كوى بناره . . هات أحسن المنى !
— هذه هى المنى المعقولة . . إني طالب من الله — على
حد قول شحات شهير — ولا يكتر على الله . . فناة حلوة .
ونظرت إليه واستغرقت في الضحك وقلت مرعدة في مثل
لمحنته :

— لا . . . بسيطة . . . خليب على الله . . ماذا تريد منها ؟
— أحبها . . .
— أيضاً بسيطة .

— ونحبنى ...

— ويحب ناقتها بعيرك ؟

— لا .. لا .. لا ناقة لى فيها ولا جمل .. ألم أقل لك
إن شيطان الشعر قد أغواك .
— أهذه كل أمانيك ؟

— لا .. لست كلها .. أريد من الفتاة أن تشاركنى
حياتى .. وتكون مثلاً للزوجة .. تتوافق ميو لى ، وتتحد
مشاربنا ، وأن تحب لى ابناً وابنة .. وتكون لها خير أم
وأن يرزقنى الله عربة صغيرة حمولتها نحن الأربعة ، وفلا
بجدقة غناء يلعب فيها الأطفال .

— لا .. لا .. أنت طماع .. يكفىك شقة ، ويلعب
الأطفال فى المدرسة .. أو فى المنزهات العامة .
— حسناً .. قبلت .. موافق يارب .. تكفىنى شقة ،
وعربة نصف عمر .

واستغرقا فى الضحك سوياً ، ولم يكن هناك أمل علينا
من أن نستغرق فى الضحك .. كان أى شىء — مهما محب —
يستطيع إصحاكنا .. فقد كنا نستمع لضحك من نفسنا
الراضيتين ومن باطننا القدير .
وقلت له :

— هذه أمان متواضعه بسيطة ، سيحققها الزمن لك
إن شاء الله.

ونظمت بقول خلصة .. فقد كنت أشعر أنه إنسان
ذو نفس طيبة ، وقلب جميل .. لم أسمعه قط يذم أحداً ..
أو يكره أحداً .. بل كنت أراه نموذجاً للصفاء .. صفاء
الذهن والقلب والروح .
وقلت مردفة :

— بل يبدو لي أنك تستطيع أن تحققها الآن شيئاً فشيئاً .
ماذا يبلغ مرتبك ؟

— اثني عشر جنياً .

— حسناً .. دعني أدبره لك .. يجب أن توفر نصفه
على الأقل كل شهر حتى تستطيع أن تهىء مبلغاً من المال
يعينك على تحقيق أمانيك .
— إنني فعلاً أحاول ذلك ، إنني أقصد كل ما أستطيع
اقتصاده .

— متى تتوقع أن تترقى إلى الرتبة التالية ؟

— بعد ثلاث سنوات أكون ملازماً أول ، وبعد أربع
يحتمل أن أصير يوز باشى .. فإن الجيش الآن في زيادة ،
لأن المعاهدة تنص على أنه لا بد أن يكون لنا جيش قادر حتى
يستطيع أن يقوم بمهمة الدفاع بدل جيوش الاحتلال ..

وقد بدأ التوسع فعلاً .. فقد أضفى السوارى لا يقتصر على
آلاى الخيالة ، بل وضعت نواة لآلاىين جديدين ميكانيكيين؟
آلاى دبابات وآلاى سيارات .

ولكنى لم أقتع بقوة .. وبدأنى مستقبله فى الجيش باهتاً
مطداً ليس به مجال لبوغ ولا عبقرية .. ولم يكن لدى فكرة
حصنة عن ضباط الجيش .. فقد كنت أراهم فارغى العقول
ملبئى البطون .. وتحيلته بعد بضعة سنين ، وقد ترهل جسده
واتفخ كرشه من قبة العمل ، وتبدل ذهنه لعدم التفكير ..
ووجدت تفكيرى المظلم قد دفعنى إلى أن أقول له بأسف :

كم وددت لو اتحمت ابجهاً آخر .. كان خيراً لك أن
تدخل كلية الهندسة أو الفنون أو الآداب ، أى اتجاه آخر ،
كنت تجد فيه مجالاً لإظهار بوعك ، غير هذا العمل المعطل
للواهب .

ورأيت وجهه - لأول مرة - يتجهم ويعلوه احمرار ،
ومضت فترة بدا لى أنه يحاول أن تهدأ فيها ثأثرته وأحيراً قل:
- لا أود قط أن تقول كلاماً كهذا .. انزعى هذه
الصورة الخاطئة من ذهنك .. إنى أحب الجيش .. أحب
ضباطه وجنوده ، كما أحب أهلى ، إنى أحسن وأما فى المس ،
أر ، الشكات ، بأنى فى بيتى وبين أخوتى .. لانسكونى غية

ككل الأنبياء الذين يقولون ما فائدة هذا الجيش الساحل
 التي لا يجارب؟ هل يظنون أنه مفروض على الجيش أن يحلق
 الحرب لكي لا يبقى عاطلاً؟ وأنه - إذا ما طان به السلم -
 يجب أن يحمل مهمته وأسلحته ويقول لهم سلام عليكم . أما
 راجح أحاط به . لم يعيرون الجيش والعيب في الأمة ؟ إن
 هذا الثعل من ذاك الوطأ ؟ أو هذا الجيش من تلك الأمة .
 أمة محتلة .. ينخر فيها سوس الناصب .. أمة يئن شعبها الهزيل
 تحت وطأة البلهارسيا والاسكلستوما وماء الترع و .. لبتار
 الحاف . إن هذا الجدى من ذاك الشعب الهزيل المسكين .
 ولكننا بدأنا في الجيش عهداً جديداً ، كان الإنجليز
 يسيطرون عليه ويتولون قيادته ليضغطوه ويطبقوا عليه حتى
 يطل مكشاً . أما اليوم فستصبح لنا دبابات ومدافع .. سنتعلم
 أشياء جديدة .. وسيفتح لنا المجال للدراسة والدخول في كلية
 أركان الحرب .. لن نكون قط عاطلين .. بل تؤكدك أنه
 سيأتي اليوم الذي تعرف فيه الأمة مقدارنا بعد ما تسفند بنا
 فقدم لها أرواحاً رخيصة في أكفنا .. لنفعل بها ما تشاء ..
 أما لا أنصب لضباط ، ولكن تلك هي طبيعتي .. أحب البشر
 جميعاً .. ولكنني أحب المصريين - مهما كانوا - أكثر من
 جميع البشر ، وأحب المصريين ، ولكنني أحب لضباط أكثر

من جميع المصريين .. وأحب الضباط عامة ، ولكنني أحب
ضباط الفرسان أكثر من جميع الضباط .. تلك هي شيعتي ،
أحب أممي وجيشي وملاحي .

وفعل في قوله فعل السحر .. فقد لمست فيه إخلاصاً
عجيباً طمس تلك الصورة المشوهة للضباط .. وبدأ لي كل
الضباط - مثله - مشوق القدر ، رافعي الرأس ، بارزي الصدر ،
ملوؤم النشاط والذكاء . وقلت له معذرة وأنا أبسم :

- أما آسفة جداً .. لم أفصد بقولي أية إساءة ، ومادمت
تحس للجيش مثل هذا الشعور ، وتكره لعملك مثل هذا
الإخلاص ، فلا شك أنك ستكون إنساناً ناجحاً ، ولا شك
أن الله سيحقق لك أمانيك .. ويسطيك الزوجة والبنين ،
والفيلا والعربة .. بل من يدرى .. ربما حقق أمانيك ..
التي نظمت لن تتحقق والتي تتخذها مجرد تسلية .. من يدرى ؟
ربما تصبح شكسبير .. أو نابليون !

- من فينا الطماع ؟ أما أم أنت ؟ لقد كنت تستكثرين
على الفيلا منذ برهة .

وعدنا إلى الضحك ، وتلفتت بشأه إلى الوقت ،
وخشيت أن يكون قد غافلنا كعادته . وسألته عن الساعة
فأجاب التاسعة .

ونهمضنا عائدين .. فطرق شتى الموضوعات . ضاحكين
تارة جادين أخرى .. وشرد في الذهن خلال العودة ، فتخيلت
نفسى إحدى أمانيه .. الفتاة الحلوة ، التي يريد أن يحبها وتحبه
وأن تنجب له بنين وبنات ، ويقطن وإياها فيلا ويركبان عربة .
وبدا لي أنه لو سألت القلب المرید استثنى لقال : إن هذه هي
أمنية مشتركة بيني وبينه . وإني وحدي ، الفتاة التي يطعمها من الله .
ووصلنا إلى البيت في نفس الموعد الذي كان يحتمل أن
نعود فيه من السينما لو بقينا فيها حتى النهاية .

ووقفنا في الحديقة على باب الدار ، ومددت يدي إليه
مودعة .. وأحسست يده تضغط على يدي ضغطتها
الرفيعة الخفيفة ذات المعاني .. ثم رفعها ببطء شديد والتفت
عينانا ، وسمعته يهس همساً رقيقاً :
— أنسحين ؟

واستمرت يدي في طريقها إلى شفتيه .. ولم أكن أملك
إلا أن أسمع له .. ومست شفتيه طاهر يدي ، وأحسست
لأول مرة بلهيب أنفاسه .. وحيل إن أنني لا أقف على قدمي
بل أسبح في الهواء ، وسحبت يدي بسرعة من بده ، ودلفت إلى
الداخل مسرعة كأنني هاربة من خطر يوشك أن يحدق في .
آه من حرقة الأنفاس ولهيب الشفاه ! ! !



عربيد ينقصر

الأيام التي تلت تلك الليلة . أيام نضال بين
كانت مبادئ القديمة ومشاعري الجديدة . كنت أحس
أنى أنزلق بسرعة إلى الهاوية ، وأنى أفكر فيه رغم أننى وأنى
لا أستطيع منع تلك اللهفة والغبطة عند ما يرق الجرس ،
وأسمع صوته من أسفل يسأل عن أخى أو عنى .
وبدأت مقاومتي تنهار شيئاً فشيئاً ، دون أن أدري ،
حتى حدث ذات يوم ما جعلنى أفيق لفسى وأقرر تعزيز
الدفاع وتقوية المقاومة .

لم يكن ما حدث أكثر من كلمات عابرة قالتها جدتى ،
وبدأت فيها أنها تقصد لتلجح إلى أن « أحمد ، أصبح يكثر
من زيارتنا من أجل ، ولم أدر ماذا تقصد بالضبط ،
ولكننى صممت أن أنتخذ خطة تظهر برامتى ، وأن أعود
إلى سابق جودى وأعمل على قتل مشاعري .

وهكذا بدأت أغير من معاملتى له ، فلم أعد أنتحل
الأسباب لألقاه إذا ما جلس برفقة أخى ، بل لم أحاول أن
أهبط إليه عند ما كان يأتى ، فلا يجد أخى . وكنت أتركه
يتصرف دون أن ألقاه .

كنت أفعل هذا وأما أشبه بفقراء الهنود يعذبون أنفسهم

دون مبرد . كنت أحس ، وهو يحدث الخادم ويسأله عن
أخي فلا يجده وينصرف دون أن ألقاه ، كأتى أرقد على
فراش من المسامر ، وأضع أفضالا فوق جسدى ، لا لسبب
إلا لأعذب نفسى وأعلبها المقاومة .

وحدث ذات يوم عند عودتى من المدرسة قبيل العصر
وقد حملتني عربة المدرسة الملائى بزميلاتى من البنات ، أن
وقفت العربة أمام باب البيت ، وعندما هممت بالنزول وجدته
مقبلا على من ناحية المزارع وقد امتطى جواده .

كانت أول مرة أراه على جواد ، وكان عارى الرأس
مرتدياً قميصاً أبيض ، وقد استقام جسده وبرز صدره ، وبدأ
كأنه بجواده وبزته من نبلاء المصور الوسطى .

واقترب منى وهو يتشم وأحسست أن أبصار الزميلات
قد سلطت على . . . وتخيلت ما يمكن أن ألقاه من ألسنتهن من
تشنيع . وتريقة ، واتهامات . وصورلى الوهم . أو الرغبة
الحقيقية . أنا لا شك سفيدو أمامهن كالعشاق ، وأنى ساء
وعشيقى الفارس . موضع أحاديثهن .

ولم أشعر إلا أنى أأما أحول بصرى عنه واتجاهه ،
اتخذت طريق إلى الداخل دون أن ألقى إليه بكلمة أو نحية .
ودفعنى حب الاستطلاع لأن أتلقت بخلقى فوجدت جميع

الزميلات «لا استثناء يلوحن له بالتحية وينسمن له ،
ووجدته يرد عليهن بالتحية مبتسما .. واختفيت داخل الدار
وأغلق الباب ورائي .

دخلت الدار وأما غاصبة حزينة .. فقد أحست لأول
مرة بالغيرة وكرهت نفسي لأنني كنت السب في كل ما حدث .
علام كل هذا التعذيب .. والسخر ١٩ ولم أسكرته
وتجاهلته وتجهمت له ١٩ ما ذنبه ١٩ وماذا فعل ١٩ وما ذنبى أنا
أعمل بنفسى كل هذا ؟

وقضيت الليلى قلقة مسهدة .. شاردة الذهن .. مضطحة
معدبة من فرط ما أجهدتى المقاومة .

وفى اليوم التالى علمت أن المشرفة التى كانت تصاحبنا فى
عربة المدرسة قد شككت الزميلات إلى الساطرة .. وأن
الزميلات جميعاً - بلا استثناء - قد اعتذرن عما أتته من
تحيات له وابتناسات بأنه .. قريبهن !

وعندما عدت إلى البيت وجدت مجلس مع أختي .. وحيث
يساطرة كأن لم يحدث من شئ .. ونصصت عليه ضاحكة ..
ما حدث للزميلات وقلت له إن بينهن فتيات حبيرات تصلح
أية واحدة منهن لتحقيق آماله .

ولقد أنبأنى بعد ذلك أن حديثى هذا عن زميلاتى قد

صدمه وخيب آماله .. فقد كان حائراً في سبب تحولى عن
واضلاى عليه .. وكان يتلف على أن يعرف ما إذا كنت
أحبه أو لا أحبه .

هذا الإقبال مئ .. وترك يدي له في السبنا .. والسير معه
في الليس .. والجلوس على حافة الساقية .. ألا يحزم كل هذا
بأنى أحبه ؟

ولكن هذا التجاهل والإعراض وعدم الالتفات على لقائه
ألا يحزم أيضاً بأنى لا أعيره اهتماماً وأنه عندى غير
ذى موضوع ؟

وأخيراً .. هذه الطريقة الباردة التى طليت بها تحيته
للغنيات . وقول إن بين فتيات جميلات يصلح له .. كيف
أقول ذلك .. إذا كنت أحب ؟ أهنأك حب بلا خيرة ؟
وهكذا - كما قال بى بعد ذاك - حطمت آماله .. وضيعت
أمايه .. وعاد إلى حجرته بالمبى يائساً ملثاعاً .

يا لحماقى !! علام كنت أعذب نفسى وأعذبه ؟
ولم يكن هو - من ناحية عزة النفس - قد تغير عما كان
وهو صبي .. وبدأ لى أن كرامته وكبرياهه أعز عليه من حبه ،
فقد بدأ يحزنى هجرأ بهجر وإعراضاً يعراض .. فكف عن
زيارتنا تماماً . ومرت بى أيام ضيق كنت أخلو فيها إلى نفسى

في الشرفة فأحس بعيب يجثم على صدرى .. وبتنصر قلبي ..
قلبي الحزين الملتاع .. المفرق في يؤسه ويأسه .. المعن في
وحشته ووحشته .

واستيقظت ذات صباح وأما أشعر بتأفل في الرأس ..
وهبوط في الجسد .. ولم أجد في نفسي القسرة على النهوض
للذهاب إلى المدرسة .. فاستمرت راقدة في الفراش .
وقيل الظهر أحسست برجفة تمرى في بدنى .. ونجبل
إلى أن حرارة تشع من جسدى ووضعت مقياس الحرارة
في فمى فإذا بها مرتفعة ارتفاعاً يخشى منه .
وتمسكتى قشعريرة .. وأخذ بدنى يرتجف كأنى في قر
ضربة وسألتهم أن يدفوني ويدفوني بالغطية .
وظنوا ما بي أفلونزا .. وتناولت بضعة أسبرينات .
كانت تفلح في تهدئة الحرارة مؤقتاً .. ولكنها لا تلبث حتى
ترتفع مرة ثانية .

وفي المساء حضر الطبيب وفحصنى ثم هو رأسه .. وقال
إنه لابد من تحليل الدم .

واستمرت الحمى تلهب الجسد طول الليل وأخذت الرعشة
تنابى .. وإحساس بالزمهرير يشد .. رغم أن البرد لم يكن
قد بدأ بعد .. فقد كما على ما أذكر في منتصف نوفمبر .

وقيل الفجر شعرت بالحرارة تهدأ... والرجفة تزول .
واستفرقت في نوم هادئ استيقظت منه وأما أحسن بأني
قد أبليت بما بي .

وجلس في فراشي هادئة الحرارة . . منتظمة الأنفاس ،
بلا رعدة ولا تشعيرة . . وإن كنت أحس أن جسدي مارال
متعباً مكثوداً .

وأنت ، جدتي ، فضمتني إليها في حنان . . ووضعت يدها
على رأسي قائلة :

— الحمد لله . . أنت اليوم أحسن كثيراً . . إنها كما قلت
« انفلونزا » . . ألم أقل لك لا تجلسي في الشرفة . . فقد برد
الجو ولم يعد صيفاً ؟

وصحكت ووعدها ألا أعود إلى الجلوس فيها بعد ذلك . .
وأقبل عليّ أبي وأخني ليطمئنا عليّ . . وقال أبي في طمأنينة
الصلامة :

— لا تتركي الفراش حتى نطمئن إلى نتيجة التحليل .
وأجاب جدتي :

— ليس بها شيء إن شاء الله . . لقد كانت انفلونزا
خفيفة وزالت عنها .

— على أي حال ، يجب أن تستريح في الفراش .

وتناولت إبطاراً خفيفاً ، وجلست في الفراش الهو
القراءة ، ولكنى لم أقرأ ، بل كادت القراءة عندى مجرد
ثبيت عيني على الصفحات ، أما الذهن فلم يكن يعنى شيئاً ، لقد
كان منطلقاً في بيداء أوهامه .

لم تكن حتى البنية الماضية قد تركت لي سبيلاً إلى التفكير
فيه إلا في لحظات غاطفة . ولكنى لم أكد أحمر بالهدوء
وأحله إلى الراحة ، حتى وجدتني لا أستطيع أن أفعل شيئاً إلا
التفكير فيه .

قمت نفسي : إني يجب أن أحمد الله على هذه القطيعة ،
وأن أحاول أن أقتلع مشاعري نهائياً ، وأن أستمز في قسوتي
مع هذا القلب العريس حتى ينسى ، وحتى يعود الوحدة
والوحشة مرة أخرى .

كنت أقول : إن ، أحمد ، — ما دمت أنوى الاحتفاظ
بحرية مشاعري — هو أول إنسان يجب الابتعاد عنه ، لأنه
صائدي وسحاني ، وهو لا أحد سواء الذي سيشتد وثاقي ويلقي
بي إلى هاوية الحب .

هذا ما كنت أقوله لنفسي ، وأحاول أن أقنعها به ،
ولكنى كنت أسمع الإجابة تأتي من باطني ، كأن القلب يتنفذ
في حتى وغيط : أي وثاق وأية هاوية ؟ أنت منافقة كاذبة . .

اعترفى بأن تلك الهاوية هي الحياة الحققة الضرة المزدهرة . .
لعترفى بأن لوثاق قد شدك من اليبداء المقفرة حيث الفراغ
والدم وألقى بك إلى الرياض المورقة الظليلة . ماذا تخشين من
الحب ؟ حب إنسان هويم الخلق جيل القلب . أمناك خير منه
تختارينه زوجاً ؟ أعار عليك أن تحبي زوجك المقبل ؟

ويبدو لي أن إعراضه وهجره وطول الفرة وشدة الحنين
قد أصعفا مقاومتي ، فقد شعرت في حديث القلب لذة ومتمعة
ووجدته منطقياً معقولاً ، لم يصعب عليّ الاتساع به

وتمنيت أن يأتي ، ويجلس بجوارى على الفراش ،
ويحدثني حديثه العذب الطلي فيقطع به وحشتي ويزيل سأمي .

وظهرت نتيجة التحليل فكانت سلبية ، واستيقظت في
اليوم التالي وأنا أحس أني صحيحة معافاة ، فصمت على الذهاب
إلى المدرسة .

وذبحت إلى المدرسة وقضيت معظم اليوم دون أن أشعر
بشيء ، حتى أوشك اليوم أن ينتهي فإذا بي أحس بشيء بالرجفة
تصاودني وبأن قدي لا تقويان على حملي . وارتعيت على أحد
المقاعد كأي جثة هامدة .

وحملت إلى بيت حملا ، ووقدت في فراشي ، وأنا

أرتجف مقرورة ، وجسدى يلتهب من الحرارة .
وتلقنى جدتى ، فزعة ، مرتاعة ، وحضر الطبيب ففحصنى
مرة أخرى . وقال بعد الفحص : إنه يشك كثيراً - رغم
سلبية التحليل - - أننى مصابة بالمalaria ، وأمر بإعادة التحليل
وبالأ أعادر الفراش إلا بأمره ، وأن أتناول الأسبرين .
وبدأت أعالج من مرضى على أنه ملاريا . وأثبت التحليل
للمرة الثانية . . أننى فعلاً مصابة بالمalaria . . وأخذت الحى
المنقطعة تعصف بنفسى وتذبل جسدى ، وأحسست والمرض
فى أشده أنى قد أضيت خطاماً .

ولم تكن الآلام التى أعانها مجرد آلام جديدة ، فقد
بدأت أحس والمرض يتناقل على آلاما نفسية خفية مشوها
شعورى أن أحمد لم يأبه لمرضى ، ولم يفكر مرة واحدة فى
زيارتى وأما طريحة الفراش .

قد يكون له العذر - فى مبدأ الأمر - أن يرد على سوء
معاملتى بمنزلها وأن يحزبنى صداً بصد ومهجراً بهجر .
ولكن أيجوز له . . وأنا مريضة ، أهذى تحت مطوية
الداء . . أن يستمر فى إعراسه . . ولا يفكر فى الحضور
للاطمئنان على ، والسؤال عى ؟

ما الذى فعلت به . . حتى يقسو علىّ إلى هذا الحد ؟

ومتى يتوى السؤال عنى؟ أبعد أن أموت؟
أهذا هو الحب؟ أترأه كان فى حبه جاداً مخلصاً؟ أم أن
مافعله لم يكن سوى مجرد تسليية وتضييع وقت؟
وأحسست بالألم يعصر قلبى ، وأنا أحجب نفسى : أحل
لأشك أنه كان بلهو

ولكن من أدرأى أنه يحبى؟ لأنه لم يقل قط أنه يحبى .
وبدأت أستعرض تصرفاته معى ، محاولة أن أستخلص
منه حقيقة مشاعره نحوى . أيجبى أم لايجبى؟

وهكذا تطور الأمر ، فبدلاً من حيرتى فى حبه له .
وترجعى بين أن أحبه .. أو لا أحبه .. أصبحت حائرة فى حبه
لى .. هل يحبى .. أم لا يحبى؟

إنى — بتطور ، أسباب حيرتى — قد أصبحت أسـ
جدلاً بأبنى أحبه ، ولم يعد هذا الأمر — كما كان أولاً —
مبعث قلق وحيرتى .. بل لم أعهد أفكر قط فى أن أقاوم
حبه .. أو أتمسك بالجمود والبرود .. لقدك المرض
والوحدة والهجر مقاومتى دكاً عنيفاً ، وجعلها أثراً يعد عين
واتصر القلب فى معركة الأولى انتصاراً عنيفاً .. وبت ،
وأما طريقة الفرائش ، أتهدف على حضوره .. وصمت ألا
أحاول بعد ذلك تكرار إساءته ، بل أعتذر إليه وأؤبه على

قوة ردة... وتغالب وتتغلب وتبدأ معاً عهداً جديداً ،
عهداً يقوم على الحب العميق ، والإخلاص الأبدي .

ظلت أنظره يوماً بعد يوم ، حتى تجاوزت حظورة
المرض ، وأوشكت أن أتأمل إلى الشفاء ، دون أن يحضر ،
وكنت في بعض الأحيان ، عندما يشتد لي الحزن وبمصف
بنفسى الضيق ، أوشك أن أسأله عنه ، أسأل جدتي أو أخى
وأصرخ فيهم : لم لم يحضر ؟ أين هو ؟

ولكنى كنت أجيب عن ذلك . . بل لاني لم أك أجسر
-نى على أن أكون بادرة بذكره ، خشية أن يؤثر الشكوك
حولى وخشية أن أنهم بأنى أهتم به أو أحبه .

وفي ذات يوم ، وقد أبللت من المرض ، وأضعفت في
دور النقاهة ، جلس أخى يتحدثنى عن بعض ما رأى وما سمع
ويروى لى الأخبار لتسلينى ووجدته يقول فى معرض الحديث :
- لقد قابلت ، أحمد ، اليوم ، أمام سينما رويال ، وأبائته

بمرضك . ويبدو لى أنه لم يسكن على علم من قبل ، فقد دهش
وأبدى أسفه واعتذاره لأنه لم يحضر لزيارتك للاطمئنان عليك
وقال لى : إنه لو لم يكن قد دعا بعض جيرانه إلى السينما ، لعاد
معى وقدناك إلى البيت ، ولم يكذبهم حديثه حتى حضر مدعووه
وعرفنى بهم : فتاة وأخوها ، كان زميلاً لنا فى الثانوى ، يدعى
« محمودة عبد الرحيم » .

— والفناء تدعى ابتسام ؟

— أجل .. أنعرفينها ؟

— رأيتها ذات مرة .. سوداء العينين ، فاحمة الشمر ،
مائلة إلى السمرة .

— أجل .. هي كذلك .

ونفض أخى تاركاً إياى ببساطة ، وكأنه لم يفعل شيئاً .

وأنى له أن يعرف أنه بقوله هذا الذى لم يتجاوز خبراً
بسيطاً تافهاً ، قد أشعل فى قلبى الملهوف نيراناً آكلة ؟
أنى له أن يعرف أنه قد أزل طباعة الأمان وألقى القبلة
فى وجهى رانصرف ؟

أنى له أن يعرف أنى كنت كوماً من وقود ينتظر الشر ،
وأنة - بحسن نية - قد أحدث الشر فى الوقود ، وولى الفرار ؟
أنى له أن يعرف حقيقة مشعرى وأما انى كثيراً ما أعلنت
قلة اكتراثى بأحمد ، ولم أترك فرصة تمر ، حتى أطهر عدم
اهتمامى به ، وإقتالي من شأنه ، حتى أبقي عن نغضى ماقد أكون
مسته فى نفوسهم نحوى - دون أن أدري - من الشبهات .
لقد كنت أخشى أن أكون كالمرتب يكاد يقول بخذوني ..
فكنت دائماً أقول : لا تأخذوني ، لا تأخذوني بشمة الحب .
أنى لسكين أن يعرف أنه قد صرعى بقوله .. ليتفرق
بى قليلاً ؟

وتملكنتي ثورة جارفة ، كأتى لم أكن بالأمس أتصل
من حبه ، وأعلن برامتي منه .

لقد تناسبت كل ما كان من مقاومتي وتجاهلي ومبادئي
العقيمة عن الحب وم أعد أشعر سوى أزعاشقة مبهضة غيري .
أمعقول ألا يكون قد عرف بمرضى حتى الآن ؟

وهبه لم يكن قد عرف . . ألم يكن من الواجب عليه أن
يحضر إلى بمجرد أن وصل إليه الخبر ؟

أصبح أن يؤجل بغيته إلى لكى يشاهد السينما ، ويستند
عن زيارتي لمصاحبة لا بتسام ؟

أجل . . ابتسام . . هى علة قلبي ، والسوس الذى ينخر
فيه ، والجرح الذى يدميه .

لم يفتأ يق نفسه بزيارة مريضة ؟ أليست مرافقة ابتسام
إلى سينما أمتع من زيارتي ؟

ومن يدري ؟ ربما كان يجلس الآن بجوارها وقد وضع
كفه على كفها ، وأخذ يناجيها بأصابعه كما فعل معي ؟

لشد ما كنت حقا مخدوعة مغرورة .
وفاض بنفسى الأسى ، وبث ليلتي بحومة القلب ، مقروحة

لجن ، مسهدة العيتين ، وقضيت ليلة أسود من ليالى المرض .
واستيقظت فى الصباح عطلة مهمة ، وجلست فى الفراش

شاردة الدهن، غاربة البال، تسألني جدتي عما بي فأجيب لأشيء..
ودقت الساعة العاشرة عندما سمعت جرس الباب يدق،
وصل إليّ من أسفل صوت جعلني أتنفض في فراشي،
وأخذ قلبي يدق بعنف، ويتخفق بشدة .
لقد كان هو .
لقد أتى أخيراً .

ورغم كل ما ابتابني من سخط وغيظ، ورغم ما حاولت
أن أعد من وسائل الغضب والتجاهل وعدم الاكتراث ..
وجدت القلب قد نسي كل ما به من حزن وغضب، وإذا به
قد خذلني، وعفا عنه وغفر. ومسه من صوته ما يشبه السحر
فصفق بين الصلوع، وهفا بين الحنايا .
وسمعتني يسأل عني جدتي ويعتذر إليها في صوت آسف
بأنه لم يعرف قط أنني مريضة، لأنه لم يتقابل مع . علي .
منذ مدة طويلة، إذ كان علي سفر في مأمورية .
ورحبت به جدتي، وصحبته إلى حجرتي، وأقبل عليّ
وهو يتسم، ومدّ يده لمصافحتي، لحبيته بفتور .

وغادرتنا جدتي، وحدثت لها في نفسي هذا التصرف،
إلّا وافع أن مرضي أظهر لي لطفتها عليّ وفرط جهالي، فقد
أرثني من التدليل ما كانت تصجم عنه مخافة أي، وبدأ لي أن

صرامتها وحزمها كانا متصنعين متكلفين ، وأن ما أظهرته
ليس من طبيعتها بل كانت تفعل ما أمرها به أبي حتى لا تنسبني
بتدليلها .

دخلت معه في الحجرة وجلس على حافة فراشي ينظر إلى
صامتاً ، وكنت أنا أنظر إلى السقف وقد كسوت وجهي مسحة
خضيب ، ومضت فترة صمت طويلة ، قطعها بقوله في ملهجة
حزينة وفي صوت خافت :
— أنا آسف جداً .

وأجبت بقلّة اكتراث دون أن أنظر إليه :
— علام ؟

— على مرضك وعلى عدم زيارتي لك في خلاله .
— ألم تكن على سفر ؟ . علام . لأسف إذا ؟
— لم أكن على سفر ، هذا مجرد عذر .. وكان يجب أن
أحضر إليك حتى ولو لم تكوني مريضة .

وزادت لمعني حدة وأنا أقول له بحدة فيه :
— وما الذي منعه من الحضور إذا ؟
— أنت .

— كيف ؟

— عودتك إلى سابق مجاهلك ، وسخافاتك الصبيانية .

كنت أحصر فلا «فيني» . لم أشك في أنك لا تودين حضوري
أو على الأقل لا بهمك حضوري . فحكمت على نفسي بعدم
الحضور ، في الوقت الذي كنت أتمرق شوقاً إلى رؤيتك ،
ولسكني مع ذلك لو عرفت بمرضك لما استطعت إلا الحضور
كما قلت الآن ، فقد حضرت ، رغم علمي أنك لا تودين
حضورى ، أو أن زيارتي لك لن تسرك .
— كان خيراً لك ألا تحضر ، فوقتك أئمن من أن تضيعه
في زيارتي .. إن السينا أفضل .

— السينا ١٩

وقلت بصوت ملوؤ المرارة :

— أجل .. الحين .. وابتسام

— ابتسام ؟ .. ما لها ابتسام ؟

— ألم تكن معها في السينا بالأمس ؟

— أجل .. لقد دعوتها هي وأخاها رداً على دعوة

سابقة منهما .

— وما الذي جعلهما يدعوانك إلى السينا ؟

— وماذا في ذلك .. ثم ماذا كان بوسعي أن أفعل ..

الرفض الدعوة ؟

ووجدت نفسي دون أن أشعر أصبح به بحدة وغضب :

— أجل .. ترفض الدعوة .

وبدت على وجهه دهشة استطعت أن ألمح بها ابتسامة خفية وقال :

— لو كنت أعلم أن ذهابي معهما إلى السينما سيغضبك لما ذهبت ، ولكن لم يخطر ببال قط أنني أتمتع بمركز في نفسك يؤهلني للغيرة . ألا تذكرين يوم أن أشرت لصديقائك بالتحية فأنبأني أنت نفسك أن منهن فتيات جميلات يصلحن لأن يكن ليلاي ؟

— كان ذلك فيما مضى !

— والآن ؟

ونظرت إليه ثم خفضت بصري وتشاغللت بالبحث بأصابعي في غطاء الفراش . وأحسست بأصابعه تنسل فتشأبك بأصابعي . وضغطت يده على يدي برفق .. وعاديهمس متسائلا :

— والآن ؟

— والآن أصبحت مخلوقة أخرى .. كنت أنتمف على حبيبتك وأنا تحت سطوة الداء .

— أنا آسف جداً .. لم ألم تنبئني من قبل ؟ لقد أضيقني ولوَّعت قلبي .. وعذبتني بالوساوس والشكوك .. لم فعلت كل هذا ؟

— كنت حقاً .. كان بي خوف وخشية .

— من ؟

— منك .. ومنهم .. ومن أقوالهم وسخريتهم .. إني أكره
أن يعرفوا .

— لن يعرف أحد .

وهكذا اعترف كلاماً للآخر ، بأن يتنا ما لا يجب أن
يعرفه غيرنا ، أما ما هو هذا الشيء ، فذلك ما لم يحرق أحدنا
على الإفصاح عنه .

وعاد يقول في همس حنون :

— أن تحيريني بعد ذلك ، ولن تنكثني عهدك ؟ أَدع
قلبي يهدأ ويطمئن ؟ أواقفة أنت من قلبك ، ومن مشاعرك ؟
— كل الثقة ، لن يكون في حياتي - إلى الأبد - سواك .

° ° °

كيف جرت على أن أقول كل هذا .. أنا الجامدة الباردة ،
الحية الخجول .. الساخرة من الحب .. الملحذة به .

يا للظروف التي تبدل النفوس وتغير الأحوال وتجبرنا
على أن نركل مبادئنا ، ونسخر من أقوالنا . وبيا للقلب الرقيق
النشوان ، الثمل العريد ، لقد أخذ يهفو مترفعاً ويصفق طرباً .
كيف لا .. وقد انتصر على .. وهزمني - في أول جولة -
شر هزيمة .



فی عجیب سے القید

ذلك الصباح بداية حبنا . . فقد كنت أشعر أنى
لم يكن بدأت الحب - رغم عدم اعتزائي به لنفسى -
قبل ذلك بزم طويل . . منذ أن جلسنا فى الشرفة أول مرة
بعد تخرجه . . ولكنه كان بداية الحب الصريح المتبادل . .
وبدأ به عهد وميثاق حمل كلا منا ملك صاحبه ومالكه . .
وجعلنا شريكين فى الأمنى . . متفقين فى الآمال والآراء
والرغبات ، وفرض على كل منا للآخر الواجبات ، ومنحه
الحقوق .

وأماح لنا دور القاهة فرصة ذهبية للقاء . . فلم ينب عن
ذهن جدتى وتجربتها أن أحمد ، خير وسيلة تساعد على قهاى
وتدخل السرور إلى قلبى . . فكأت تلح فى دعوته للحضور
وتلح فى بقائه إذا ما حاول الانصراف ، وكان قلبى يفيض
بشكر لا أستطيع الإصاح عنه . . فقد كأت فى استدعائه
واستبقائه كأنها تتحدث بقلبي لا بلسانى ، وتستجيب بداء
نفسى . . النداء الذى لم أكن أجسر على إعلانه .

ولم يكن أبى يلقى أحمد ، كثيراً ، فقد كان غالباً يحضر
فى فترة غيابه . . وفى المرات لنى كان يلقاه . . لم يكن يدولى
أن وجوده يضايقه ، فقد اعتاد ألا يرى فيه أكثر من طفل

لا خوف علىّ منه . . أو من بدرى . . وبما كان يتفانى من
أجل مرضى .

وسمح لي بالخروج . . ولم تمنع جدتي في أن يصطحبني
أحمد ، في زواجات قصيرة بين المزارع ، وكان يأتي إلينا عقب
النداء فيجدني في انتظاره . . وكان شهر ديسمبر قد حل .
وبدأ الجو يميل إلى البرودة ، وأضحي السير في الشمس مستحباً
ومتعاً ، فكنا نبدأ سيرنا في دائرة تبدأ من البيت إلى شارع
الملك ، إلى الحمام ، إلى الطريق الموازي للسراي . . والذي
سرنا فيه أول خطرات غرامنا . . حتى نبلغ الساقية القديمة ،
أو مكان اللقاء المختار ، فنجلس على حافة السور المهدم ، كما
جلسنا أول مرة ، متشابكي الأيدي ، قريبي الأعين ، ناعمي
الأنف ، نسبح من حيناً في عالم نسجت ألوانه من قوس
قزح . . ونرسم خطوط المستقبل ونشيد قصوره .
آية سعادة كانت تغمرنا وقتذاك ؟

لم يعيا الناس في تفسير السعادة . . وكيف يتساءلون
ما السعادة ؟ سلوني عنها . . فقد خبرتها زمناً . . خبرتها هي . .
هي . . لا دم ولا حلم . . سعادة نقية مصفاة تتدفق من معين
لا ينضب وبيع لا يحف ، لم تعب قط في الحصول عليها ، ولم
نكلم شيئاً ، فقد كانت تفيض من باطننا وتفيض من قلوبنا .

كنا نلون الكون وننقعه ونزكشه ونكله بزهور من
أوهامنا . . لم نر قط فيه شيئاً باهتاً ، أو مظلماً . . كنا نورق
الشجر وننضر الزهر . . كنا نبعث في اجماد حياة وفي الحياة
سحراً رائعاً .

أي سحر كان بالطريق الخالي والساقية المهجورة ؟
كم من خلى القلب مرّاً بالطريق فلم يحركه فيه جارحة ولم
يثر به حساً . . طريق ليس به ما يميزه عن غيره من الطرق ،
يقوم على جانبه سور ، وعلى الجانب الآخر مزارع ، وتقوم
الأشجار على حافته ، ليس به من سحر غارق أو معجزة كبرى .
اذهبوا إليه ، وأبثوني ، إذا كان بلغت نظركم فيه شيء !
والساقية المحطمة والسور المهدم . . خبروني من منكم

سحرته ساقية خربة ، أو توقف ليعن فيها بصره ؟
ومع ذلك فما زلت أذكر الطريق والساقية كأنها أشياء
غير كائنة في أرضنا هذه ، بل كأنها منشآت سماوية وماطر
علوية ، وكأني بالطريق طريق الفردوس ، والساقية بابه .
وعلى هذا العباس كما تبصر كل ما حولنا : نفس الروعة
ونفس السحر .

أهيبكم بعد ذلك تفسير السعادة ؟
ابحثوا عنها في طريق خال ، أو في ساقية مهجورة ،

في الماء ، أو في السماء .. فوق الرقي أو في بطن الأرض ، فن
يعيكم إيجادها ، مادامت قلوبكم وطمى ونفوسكم صبة عاشقة .
ابحثوا أو لا تبحثوا فستبحث هي عنكم وتبحثو صاغرة
تحت أقدامكم .

وهكذا أخذنا نسترد سعادتنا من الهواء .. من مجرد
الحديث والظفر ، وتشابك الأصابع ، وتلامس الأيدي .
إذا تلافينا فكلنا أعين .. وإذا افترقنا فكلنا تذكرو .. حتى
حدث أول حادث إيجائي ، وذف أول قبلة .

لم يكن يخطر ببالي قط أنني قد أقف ذلك لموقف ابدي
أقرأ عنه في القصص وأراه على الشاشة البيضاء ، وما كنت
أفكر قط أن الجرأة يمكن أن تصل في إلى حد الإغراق
في نشوة قل ، بل كنت قانعة بما أماغيه كل القناعة ، لا يسور
بخلدي أن هناك في الحب شيئاً أمتع مما حصلنا عليه .

كانت مبادئ الأولى عارالت تتحكم في رأسي ، وكنت
مازلت أتيه خجولا ، لم تجر على لساني كلمة حب ، ولم يحاول
قط أن تتساجي أو نفعل كما يفعل العشاق ، بل كانت كل
أحاديثنا جادة عن بيتنا المقبل ، وعن أولادنا ، وعن
المطبخ ، وعن الحديقة .

وحدثت ينشأ أول خلوة في الدار .. خلوة قصيرة ،
أتاحتها الظروف ولم أحاول أنا منها .

كان ذلك يوم جمعة .. في يوم من أيام الشتاء . وكانت
الساعة تقرب من العاشرة ، وقد خرج أنى وأخى ، وذهبت
« جنتى » لطبيب الأسنان ، وجلست في الدار وحيدة ..
وانهمك الخدم والطباخ في أعمالهم .

كنت أجلس متكاسلة في أشعة الشمس على مقعد مريح
(فوتيل) وقد أخذت أقلب صفحات إحدى المجلات عندما
أحسست جأة يدين توضعان على عبي رفق وكأني بصاحبهما
يتف ما زحاً .. من أنا ؟

ولم يتكلم صاحبهما .. خشية أن أعرفه من صوته . ولكنى
لم أكن في حاجة إلى أية مساعدة للتعرف عليه .
لم أكن في حاجة إلى سماع صوته .. أو حتى من يده ، فقد
كنت أعرفه بوحى قلبي .
وقلت له ضحكة :

- ليتنى تمنيت شيئاً أحسن !
- أحسن مني ؟ أمناك شيء أحسن مني ؟
- طبعاً !
- مثل ... ؟

- قطعة لادن ، أو برطمان مستردة .
- أنه يحفظك . ظننت نفسي ذا قيمة !
- وهل هذا يقلل من قيمتك ؟ أم لا تدرك مركز برطمان المستردة في نفسي !
- مركز ممتاز ؟
- جداً . . أموت فيه !!
- بعد الشر عنك وعن برطمان المستردة . . إنى لا أكن له إلا كل حب . . رغم أنه من عواذلى .
- عواذك من هذا النوع كثيرون ؟
- وأنت أيضاً لك عواذك من نفس النوع ، الحرقاء .
- مثل . . ؟
- سلطة الطحينة . والكشري أبو جبة بمية الدقة .
- أتعلمها كثيراً ؟
- جداً .
- إنى أحتج ، لقد جعلت لك عواذك من نوع محترم ، ولكم هويت بي إلى أسفل سافلين . . إن المستردة أرقى كثيراً من مية الدقة .
- مية الدقة ، من فضلك ، بفتح الـ دال ، لا تكونى

بجاهلة حمقاء كانوا لاد الدوات .. يجب أن تكونى مددقه .
لأن مية الدقه ، ستصبح فى المستقبل من صميم عملك .. هى
والكشرى أبو حبة .. لا بد أن تتعالى صنعها من الآن ،
ولا اضطرت لأن آكل فى المطاعم .

— أتقدم المطاعم وكشرى بحبة ؟

— طبعاً .

— مطاعم الشعب ؟

— لا .. مطاعم الملوك والامراء .

— يجب أن تتعلم من الآن أن تحب ما أطهى لك .. لأن

أطهى لك ما تحب .. فافهم ؟

— أمرى إلى الله .. عين الرضا عن كل عيب كلفة .

وساد الصمت .. ووجدته ينظر إلى نظرة أحسست منها

بشيء من الاضطراب والارتباك ، وإن كان اضطراباً لنيذاً
وارتباكاً بمتناً .

وكنا نجلس على مقعدين متباعدين .

هل لكم أن تعذرونى فى محاولتى وضع تلك التفاصيل

الثانية والمحاورات الصيانية التى لا أظنها إلا حدثت بين كل

عاشقين ؟ هل لكم أن تحتملوني بعض الشيء . وأما أنقل
عليكم بها ؟

احتملوني أرحوكم . . ف دفعني إلى ذكرها إلا إحسامي
بلغة من ذكرها ، ومعة من اجترارها .. إنها ذخيري التي أحيا
عليها . . إنها زادي في طريق مقفر أجذب .

إني أنحبل الحجرة أمامي ، وقد امتدت بها الأريكة الطويلة
وتوسطتها المنضدة الزجاجية ، ووضعت عليها رهبة ملوءة
بزهرة القراولة البيضاء ، وفي ركن الغرفة منضدة أخرى مرتفعة
وضعت عليها آنية نحاسية وضع في داخلها أصيص من الفوجير
وعلى الحائط فوق الأريكة عكفت لوحة زينة تمثل راعي غنم
قد وقف أمام بئر .

وفي الجانب الآخر وضع مقعدان كبيران قريبان من
النافذة جلس هو على أحدهما وجلست أنا على الآخر .

قلت إن نظراته سببت لي ما سميت ارتياكا لذيذا . . فقد
كانت نظرة معجبة فاحصة حارة هني ، ووجدتني أنهض على
أثرها لأغادر الحجرة مدعية أني سأعطى بعض أوامر للخدم .
وأعطيت فعلا بعض أوامر للخدم ، ثم ذهبت إلى حجرتي
ووقفت أمام المرأة . . لقد كان هذا هو ما نهضت من أجله ،
وهو الرغبة في الاطمئنان على مظهرى . . عقب تلك النظرة

الفاحصة . لقد كنت أريد أن أرى كيف أبدوله .
وكنت أرتدى بلوزة من التريكو وكحلية اللون ، مقفلة
الياقة ، قصيرة الأكمام ، وجيب كاروهات من الصوف
الاسكتش .

وكنت بطبعي أميل إلى النحافة ، ولكن البلوزة
أظهرت صدرى بحيث بدا بارزاً بشكل ملائي بقليل من
سجّل وكثير من طمأنينة ، فقد كنت أدرك بشعور المرأة
أن هاتين الكرّتين هما أمضى أسلحة المرأة ، وأشدّها فتكا ،
وبدا لي خصرى ضيقاً وجسدى مستقيماً متناسقاً ، وكان
شعري مفروقاً من النصف ، وقد أحاطت حلّكاته بوجهي
فأظهرته مضبباً كما كان هو يقول لي . فقد كانت هذه الطريقة
في تصفيف شعري محببة إلى نفسه ، وعدت إليه وقد ملأت
مضى الثقة وأردت الجلوس ، ولكني لاحظت أن المقعدين
قد ملاصقاً بعد أن كانا متباعدين ، ونظرت إليه نظرة متهمّة
متسائلة ، ولكني وجدته متشاغلاً في قراءة المجلّة التي كنت
أقرأ فيها . . كأنه لم يفعل شيئاً ، وكان المقعدين قد تقاربا
من تلقائهما .

وابتسمت في خبيك ، ورأيت يرمقي بطرة متسللة من
طرف عينيه . . فلم يكن مني إلا أن أعدت مقعدى إلى مكانه

وجلس ، ولكن لم يستقر في المقام حتى وجدته قد قذف المجلة
وقفز من مكانه فاستقر بجانبى على مسند مقعدى ، وقال ضاحكاً :
— حسناً . أتأبى أن أكون مادام مقعدك يأتى إلا صداً .

وقلت له مشيرة بأصبعى كأنى أزهر طفلاً صغيراً :
— كن عاقلاً ، وعد إلى مقعدك .

وهز رأسه بإصرار وعناد وأجاب :

— الوقت الذى أستطيع فيه أن أكون عاقلاً ، وقت غير
محدود . لقد مضى لي ثمان وعشرون عاماً كنت خلالها فى
تمام العقل ، ودارال فى العمر بعمية ، أستطيع أن أمتع فيها بعقلي
كما أشاء . أما الآن فليس من العقل أبداً أن أكون عاقلاً . إن
العقل الآن شيء غير مستحب . يجب أن يتنحى عنا قليلاً ، يجب
أن يبطل عمله ، ويخلد إلى الراحة ، وإلا أضاع العمر سدى ..
لا . لا . لست مجنوناً حتى أوافق على أن أكون عاقلاً .

ولم أستطع أن أمتنع نفسى من الضحك . ورفعت بصرى
إليه ووجدت وجهه يطل على وقد شاعت فيه ابتسامة مشرقة
ونظرة حالة متمنية ملائمة نشوة وممتعة ، وأحسست يده تمس
رأسى فى رقبى ، وأصابعه تعبت فى شعرى . فأصابتنى من مسه
ومن نظراته رجعة سرت فى جسدى .

لم يقل لى : لى أحبك ، وخيراً فعل . فكلمة : أحبك ،

كنت أستغلها وأعتبرها بمجوعة مبتذلة ، وكنت أعتقد أن
أبغض ما يفعله محب لكى يعبر عن حبه لمن يحب هو قوله :
«أنا أحبك» .

لم يقل لى «إنى أحبك» ، ولكن عينيه وشفتيه وأصابه
وكل جراحة فيه ، كانت تنطق ضارخة «إنى أحبك» .
هذه أشياء تخص قيل أن تسمع ، فالمشاعر تسرى من
الفس إلى النفس كأنها شعاع مضى . إنها ليست فى حاجة إلى
أقوال تظهرها .

أطرقت برأسى وأنا أحس اضطراباً شديداً ، وعاد لى
خوف القديم من الحب ، وعواقبه . . وصمت على ألا أترك
نفسى تزلق ، وأن أمتلك وأتملك ، وأن أطوم كل متعة ،
وإذا أدع رمام نفسى بفلت متى .

ورفعت بصرى مرة ثانية ، فوجدته ما زال يسلط على
من يحبه تلك النظرة الحارة التى تذيب نفسى وتتركنى على
وشك الانصهار أو التحلل .

كيف المقاومة؟ أأكسو وجهى مظهر الغضب وانفور
وأمره بأن يعود إلى مقعده؟ لا أظنها طريقة مثلى ، لأنه إما أن
يفضبه تنورى . وأنا لا أود إغضابه ، وإما أن يزيد التسع
رغبة ، ولا أطى لو زادت ديبته قيد أنملة ، أستطيع المقاومة .

إذا .. أدعى البرود ، وأريه أنى جاسدة لا أفاثر .. فيصبيه
الفتور والحجل فتحمده عواطفه ، وأكون بذلك قد انتصرت؟
لا تضحكوا على ولا تسخروا مني .. فما خدع الإنسان
مثل نفسه . لقد كنت أحاول أن أحد نفسي فتوى أمال
بها ما حرّمته عليها ، وما أبرع الإنسان في إيجاد الفتاوى
والمبررات وفي اللف والدوران .. لقد كنت أتلف على
ما أجمع منه .. كنت أريد وأختي .. فقلت أن أفر من
الخطر لأعود إليه من طريق آخر .

أجل لقد صممت على أن أبدى له الفتور وقلة الاكتراث ،
وأريه أنى متهاككة عواطفى ، وأننى لا أهدأ زماى بسهولة .

كنت لا أشك حقا . ألسنت إنسانة ١٩ وعاشقة ١٩

لنظر ماذا كانت النتيجة ؟

نظرت إليه وقلت له بهدوء :

— ثم ماذا ؟ ماذا بعد جلستك هذه ؟

ولم يجب . بل انحنى برأسه وهو ينظر إلى بطرته الخنوق
اللبني ، وأحسست بلهجة أنفاسه يلفح وجهى ، وبشفثيه تقتربان
من شفثى وتمسهما مساً حفيماً .

وتمالكت نفسى ، وبقيت كما أنا ، لا أحرك ساكناً ،
وكانى لم أحس به ولا بشفثيه ، وقلت له بمتهى الهدوء :

— لا فائدة .. إني مخلوقة جامدة الإحساس .. بارده
المشاعر .. حير لك أن تقبل تمثالا من التماثيل .. فمن تحرك
في من المشاعر أكثر مما تحرك فيه .

وم تصبه كلساني بفتور ، أو تراجع .. أو نطلي .. منه
الحرارة التي تشع من عيبيه ، أو للهب الذي كان يستعر في
أنفاسه .

وعن العجب .. أني لم أحس بخيبة أمل .. رغم أن هذا
كان فشلا دريما لخطي التي انتهيتها للمقاومة ، ولكني — كما
قلت لكم — كنت أخدع نفسي ، وعلم الله ماذا كان يمكن
أن أحس به من المرارة لو قد أصابه التراجع والفتور فعلا .
ظلمت أقول له إني لا أحس ولا أشعر .. وأني جامدة
باردة ، وظل هو يمس بشفتيه شفتي .. حتى أحسست كأن
الكلمات أخذت تذوب في فمي ، وأن صوتي بتلاشي رويداً
رويداً .. كأنما قد فقدت قدرتي على النطق .. أو كأنني
قد حققت بمحذور .

ولم أنبس بكلمة .. بل وتناقل جفائي .. ولم أعد أشعر
إلا بشفتيه حارتي على شفتي .. وأنفاسه مختلطة بأنفاسي ،
وبلاوعي ، ولا إرادة .. وجدت ذراعي .. ذراعي أنا
— المخلوقة الباردة التي لا تحس — تحيطانه برفق ، ثم تضمانه

يكل ما ملكت قواي ، وأغمضت عيني .. وورحت في نشوة
ممتعة .. وحلم جميل .

وافترقت شفتانا برهة .. كي تنالك أنفاسنا .. ثم عادت
الشفتان إلى لقائه أحر وأعنف .. ومد يده وأخذ يتجمل
بأصابعه شعري .. ويتحسس وجهي في حنان شديد .

وانقلبا إلى الأريكة وحسنا في ناحية منها ، وحلست
محواره مستندة رأسي إلى صدره .. وبين لحظة وأخرى تلتقي
شفاهنا .. كأننا نهمان صاديان .. لا تشبع من جوع ..
ولا نروى من ظما .





الطبیقات کیفی

ذلك الشتاء .. شتاء ١٩٣٨ .. أهنأ أيام حياتنا ،
سهرت فقد هيا إلى المرض من الحرية والتراخي والتدليل ،
ما لم أمنحه من قبل .. وما كنت أحس أنني في أشد الحاجة
إليه .. بعد أن أصابني حميا الحب .. وأتملنى نشوته .

ولقد حاولت جهدى — بعدما أعطيت من حرية نسبية —
ألا أندفع فى استغلالها خشية أن أفصح نفسى .. وحاولت
كذلك أن أتمسك بأهداف الرأفة والتعقل ، وألا أظهر قط
أمام الأهل أنى أكن له إحساساً خاصاً .. أو أن أظهر
أن ما بيننا يتعدى صلة القرابة العادية .

ونجحت فى ذلك إلى أبعد حدود النجاح .. فقد كنت
أنتع بقسرة عجيبة على السيطره على مشاعرى ، وعلى كبح
جراح نفسى .. وعلى تصنع الهدوء وقبة الاكتراث .. حتى
أكون بمنأى عن الشكوك والأقوال .. وبقيت أحفظ
أمنهم بمجمود مظهرى ورود مشاعرى .. ولم ير أحد من
أهلى فى أحمد ، أكثر مما كان دائماً — ابن خالى وصديق
أخى — اللهم إلا جدتى التى قد تكون أحس بميل إليه ..
ولكنها لم تر فى ذلك أمراً سكرأ .. فقد كانت تحب أحمد ،
وتبس فيه نبل الخلق ، وطيبة القلب .. وكنت أحس أنها

تراه زوجاً ملائماً ، ولا تجد — من ناحيتها — مانعاً من
أن نصبح زوجين سعيدين .

وهكذا ظللنا على النهل من حبنا بأناة وروية .. نرشف
من منبعه رشقة رشقة .. ونحتسئ من كأسه قطرة قطرة ..
دون أن يشعر أحد بأن في الدار قيساً ولى .. وأن قيسهما
يستمران بيران الهوى ولهب الحب .

واستمرت الساقية المهجورة معبدنا المقدس .. فنحلس
اللحظات لكي نخرج إليه فنحلس فيه مشابكي الأيدي .. بسائنا
صمت ، وبحشائنا حنين ومناجاة .

ومر الشتاء وأعقبه الربيع والصيف ، وانقضى على حبنا
عام أحسننا في خلاله أنه لم يعد لأحدنا غنى عن صاحبه ..
ولم أكن أتصور أنني أستطيع أن أتخذ سواه شريكاً لحياتي
إذ لم أكن أحس له بمحرد حب ، بل كنت أشعر أن كلامنا
جزء متمم للآخر وأنه مني .. وأنتى منه .. وأنتى سكوت
وحدة واحدة لا يمكن فصلها .

وحل موعد سفري إلى المصيف بالأسكندرية .. ولأول
مرة أحسست بكرة للأسكندرية ، فقد توقعت خلال الرحيل
فرقة طويلة ، لأنه لن يستطيع الحصول على أجازة طويلة ..

ولن يكون الذهاب إلى الاسكندرية بالمتبر له إلا في فترات
متقطعة خاطفة .

ورحلت إلى الاسكندرية ، وبنفس ضيق ، مجرد ضيق
لا أكثر ، فقد كانت شدة إيماني بحبنا ، وثقتي في مستقبلنا ،
تجعلني لا آبه كثيراً لفرقة مؤقتة ، ولا أحزن لغيبة إلى اللقاء
مصيرها وميتهاها .

ونزلنا هذا الصيف في فيلا نخمة ، واستبدلنا بها كايينا
في شاطيء . وجليم ، أخرى في « سيدى بشر » ، فقد كان المال
يتدفق على أبي ، لا حساب ، وثروته تتضخم وأعماله تزايد .
وأحسست أننا بدأنا نتدمج في وسط جديد . . الوسط
الاستقراطي الرفيع . . المتكبر المتعالي . . الملتوى السان ،
الناطق بغير الضاد .

ولا أكنتمكم القول أنى كنت أحس لهذا الوسط الجديد ،
من أهل السمو والرفعة والدولة والمعالى والشرف والوجاهة ،
كثيراً من الرهبة . . فقد بدا لي - رغم ثراء أبي - أنى شئ
أقل من هؤلاء ، وأن أصلى ونشأتى أخفض مستوى وأقل
شأناً . . مهما قيل عن ثرائنا الآن فإنى أحس أنى كنت من
الطبقة الوسطى ، ولم أنس قط أن أبى كان مقاولاً دخل
محدود ، وأنه لا يحمل من الشهادات غير الفنون والصنائع ،

ولا أنسى كذلك أن جدتي ، فلاحه أصيلة .. ذات وشم
أخضر في ظاهر يدها ، وأنها لا تعرف القراءة والكتابة ،
ولا تستطيع نطق الكثير من الألفاظ الشائع استعمالها .
حقيقة أن أبي قد أضحى بابسا ، ولكنه بابسا بالدراع ،
لا بالأصل ولا بالنشأ ، فما كان لنا عرافة أصل ، وما عرف
تاريخ عائلتنا من قبل هذه الرتبة الرفيعة .

وحقيقة أنني ربيت تربية حسنة ، وأني لم أحس قط منذ
مولدي أي محرومة من شيء ، وأسا لا فتبر محدث نعمة ،
أو أثرياء حرب ، ولكني مع ذلك لم أستطع أن أمنع ذلك
الوهم الذي داخل نفسي وجعلني أشعر بالتضاؤل إلى جوارهم .
كيف لا ، وأنا أجد أن ثلاثة أرباع من حولي .. هم
هؤلاء الذين تنشر الصحف صورهم ، وتروي أخبارهم ..
وتقص مسكناتهم وحركاتهم ، وتقول إن فلاناً لقي فلاناً ..
وإن فلاناً لعب الطاولة مع فلان .. وأن هذا شوهد يسير
بحوار هذا .. كأنهم كواكب يتوقف على حركاتهم مصير
الكرة الأرضية .. وبقاء المعمورة .

لقد كان عملي في بادئ الأمر هو أن أجلس بحوار .. سني
في ركن الكاين ، وأرقب الناس وأفحص الوجوه المحيطة ،
محاولة التعرف عليها من صورها التي رأيتها ، ولم يكن يعملو

الامر من أن التي صاحبة لي في المدرسة أو أحد المقرئين لي
من الأصدقاء ، فأقطع الوقت بالحديث أو السير معهم .
وفي ذات يوم كان أبي يجلس معنا في « الكاين » ، ورأيت
ينفض من مكانه ويحجي رجلا تبدو عليه سيما المهابة والعظمة ،
لم يكن وجهه ضريبا على ، وسميته يناديه « بدولتك » . . . ولم
ألبث بعد قليل حص وتذكر أن عرفت فيه أحد أصحاب
الدولة السابقين .

وسأله أبي التفض بالجلوس . . . وتقدم الرجل إلى
« الكاين » ، ونهضت لتحيته . وجلس يتسامر مع أبي ،
ويطرقون الحديث عن بعض الأعمال .
وعندما نهض « صاحب الدولة » للانصراف ربت على
كتفي وسألتني ضاحكا :
— لم تجلسين وحدك هنا ؟ ألم لا تأتين لزيارة « توتو »
و « سوسو » ؟
وقال أبي مبتسما :

— إن شاء الله تزورهم يا باشا .
ولم أجد في قول أبي سوى مجرد رد ، ولم أحاول مبطما
تنفيذه لأنني لم أكن أشعر بكثير لطفة على معرفة « توتو »
و « سوسو » ، فقد كان إحساسي بالتضاؤل إلى جوار هذه

الطبقة .. تجعلني شديدة النفور منهم ، وكنت إلى جانب هذا متباعدة عن الناس .. أميل إلى الانطواء والوحدة بطبعي وبطبيعة نشأتي وتربيتي .

ولكنني مع ذلك وحشت أن الظروف قد أرادت أن تعرفني بهم ، وقررت أن ترج بهم في محبط حياتي . . . فقد أنبأني أبي بعد بضعة أيام أنه قد دعا دولة زكي باشا ، وعائلته ، إلى تناول الغداء معنا .

وبدأنا الاستعداد لاستقبالهم . . وقام البيت على قدم وساق .. كأن حدثاً خطيراً يوشك أن يقع . . ولم أر أبي يتم بأمر قدر اهتمامه بهذه الزيارة الجليلة .

كنت أعرف أبي جيداً ، ولم أملك أن أمر كتنى وأنا أنحرك في الدار غادية رائحة كأم العروس « فاضية مشغولة » . وأقول لنفسي : أغلب ظني أن صاحب الدولة ، المتقاعد ،

يوشك أن يصبح « صاحب دولة » عاملاً . . إن أبي لا يضع قلبه سدى ، أو من يدرى ؟ ربما كانت المسألة مجرد تشرف .

وقيل الساعة الثانية وقفت أمام باب الفيلا عربية نفخة من أحدث طراز ، وخرج أبي لاستقبال الزائرين ، وسرت وراءه أتبع خطاه .

وبدأت ألخصهم وهم يجتازون الحديقة واحداً واحداً .

« دولة الباشا ، يتقدمهم . . بعصاه ومنظاره وطربوشه المائل
على أحد حاجبيه وتامته الفارعة ومنظره المهيب ، وبحواره
أنى ينسم بحياً ، وعلى يمينه شاب متألق أصفر الشعر ، أبيض
البشرة ، متورد الوجنتين ، أحمر الشفتين ، أميل إلى السمعة . .
وبحواره فتاة في مثل مى نحيفة الجسد ، طويلة القامة ، بها
شبه كبير من أيها لا يكاد يميزها عنه سوى بروز خفيف
في الصدر والردفين . . وأحمر الشفاه . . و« الفستان » طبعاً .
وقلت لنفسي :

— هذه لا شك إحدى الالنتين . . توتو أو سوسو . .

حرى لم تحضر الفتاة الثانية ؟

واقربت منهم بحية . . ورد الأب نحى مرحباً ، وقام
بهمة التعريف بيني وبين ولده وابنته قائلاً :

— أهلاً وسهلاً مدموازيل عابده .

ثم أشار إلى ابنه اللامع المتورد :

— ابنى . . توتو .

وإلى ابنته الطويلة النحيلة :

— بنتى . . سوسو .

إذا فـ« توتو » هو ابنه . . ذكر لا أنثى !

لست ما خدعنى الاسم . ولكن معهم الحق . . فهو فى تأخذه

« وحفلته ، أحق باسم «توتو» من غيره من أسماء الرجال .
وأجاب الشاب والفتاة على قول أبيهما بالحماء خفيفة
من رأسيهما . . ومسة من كفيهما لكنني الممدودة المفتوحة
وقالا في لهجة أرستقراطية :

— انشائي .

ثم قال « توتو » لأخته باللغة الفرنسية بلهجة رفيعة
لدقة الراء :

— يجب ألا تنسى دعوة الأنسة عايدة إلى حفلة
سان استفانو .

وأجابته أخته :

— طبعاً . . لا بد من دعوتها . . لقد أحضرت معي
تذكرة خصيصاً لها .

ودخلنا إلى حجرة الصالون وجلسنا برهة نتحدث ريثما
يستريح الضيوف ويشربون « شيناً » .

ولم يكن أبي قد تمودّ الشرب . على الأقل في البيت .
ولكنه في هذا اليوم خرج عن مألوف عادته . . وأعد بضع
زجاجات من الويسكي احتفاءً بالضيف العظيم .
ودخل أحد الخدم يحمل بضع كتّوس .

وشرب الباشا « صاحب الدولة » . . والباشا « أبي » . .

ولم أرى هذا عجبا ، ولكن العجب الذي أصابني كان عندما
رأيت الشاب والفتاة يشران عنتهى البساطة . . أمام أبيهما
وأبي ، وكأن المسألة ليس فيها مدعاة لتهيب أو خجل .

وسألني توتو بك : لم لا أشرب ؟
وأحسست أن أرى تملكه الجرح ، وأنه يتمنى لو كنت
قابعة في غرفتي دون أن أختلط هذين الأرستقراطيين .
وأجاب هو نياية عني بأني لم أتعود الشراب .
ولم تظل جلستنا في حجرة الاستقبال ، ثم نهضنا إلى
حجرة الطعام والتفطنا حول المائدة .

وتحدثت مع الفتى والفتاة . . وأقول الحق أرى أصبت
بصدمة من حديثهما . . وأدهشني أن أجدهما على هذا القدر
من السخف والتفاهة ، وبدأت أحس بالتضاؤل الذي كنت
أحسه إلى جوار الطبقة الرفيعة يتبدد ويتطاير . . ويجعل محله
إحساس بالكبرياء والتعظيم .

كان أول ماسألني : توتو بك ، هو قوله بالفرنسية :
— هل سمعت آخر تانجو ؟

وأجبت بالعربية وبني شبه أسف :

— لا . . إنني لم أسمعه .

— خسارة . . تانجو عظيم جداً .

— وما رأيك في أسطوانة « جيف مى يور ليس » ؟
وفهمت أنه يعنى بالعرية أغنية « إعطى شفتيك .. »
وهزئت رأسى وقلت بنفس اللهجة الأسفة :
— لم أسمعها أيضاً .

ورفع الفتى حاجبيه دهشاً من جهل المطبق وقال :
— عجيبة ! لم يخطر ببالى أن أحداً لم يسمعها .. لقد بيع
منها فى نيويورك وحدها نصف مليون أسطوانة .. وقال
« موريس شيفاليه » نفسه إنها أبدع ما سمع .
وتملكنى الحجل ، وخشيت أن يوجه إلى سؤالاً عن
أسطوانة أخرى .. أو « رومبا » حديثة .. يزيد بها جهلى ،
فأنا لم أسمع قط أسطوانة أفرنجية .
ولكنى وجمته يسألى سؤالاً أقل إحراجاً .. سؤالاً
أستطيع على الأقل الإجابة عنه :
— ما أحب الأدوار إليك ؟

وبلا إرادة ولا تفكير ، تذكرت أغنية « ردت الروح »
وتذكرت جلستنا على الساقية المهجورة .. و « أحمد » يندن
الأغنية بصوته الخنون ونبراته الهادئة ، وتملكتنى نشوة
وأجبت قائلة :

— ردت الروح !

وكانت المناقشة بيننا تجري بطريقة عجيبة ، فهو يشكك
بالفرنسية ، وأنا أجيب بالعربية ، وكنت أستطيع بالطبع أن
أجيبه بالفرنسية ، ولكنني لم أكن أجدها داعياً ، مادام هو
يعرف العربية ، وأنا أعرف العربية كذلك .

ووجدته يردد قولي بلهجة أشبه بلهجة الإفريج عندما
ينطقون العربية ، واستمر يرددها ويتسأل :

— ردت الروح . . ردت الروح !

ثم التفت إلى أخته يسألها :

— كس كي سنا .

وهزت أخته كتفها وهي تزدرد الطعام فقد كانت مثله لم
سمع عن شيء اسمه « ردت الروح » .

وأصابني نفس الحجل الذي أصابني من جهلي بآخر فأنجحو ،
بدل أن من العار أن أعرف « ردت الروح » ، أو أذكرها
للعظام .

وقلت مفسرة حتى أداري خجلي :

— « ردت الروح على المصنئ ملك » . إنها قصيدة من

روع ما نظم شوقي ولحن عبد الوهاب .

وانطلقت من صدر صاحبنا آهة تذكر ، وقال في لهجة

لا تغلر من الاستخفاف والاستهزاء :

— أغنية عربية ؟

وقلت وأما أخفض بصرى كأتى قد ارتكبت ذنباً :

— أجل . أغنية عربية .

— لا.. لا.. إني أقصد أغنية من الأغاني المتعددة .. إني

لم أحاول قط أن أسمع أغنية عربية .

وأحسست بالغضب يغلي في عروقي وتمنيت أن أصغمه

ولكن لم أرد أن أسبب لأبي كارثة ، وقلت له متسائلة بنفس

لهجته المستخفة :

— ولم ؟

— إن الموسيقى الشرقية تنوتر لها أعصابي .

— ألم تسمع لعبد الوهاب شيئاً ؟

وهزّ رأسه بالنفي .

فسألت مستفسرة :

— ولم تقرأ لشوقي ؟

واستعريز رأسه متبرّحاً من التهمة .

وعدت أسأل :

— ولا قرأت للنفلوطي ؟

وانطلق يقهقه كأن النكتة قد أسعفته ، وأجاب في شيء

من السخرية والاستهزاء :

— منفلوطى ١٩ أما لم أسمع إلا عن «الزمان» المنفلوطى .

وأجبت في كثير من النهم :

— الحمد لله . . إلك تعرف شيئاً مصرياً ، حتى ولو كان

«الزمان» . .

— أما أكره كل شيء مصرى . . هذا الشعب ما زال

شعباً بدائياً . . أمامه قرون حتى يصبح شعباً متمدناً . . شعب

«الفول المدمس» ، والطعمية . .

ولو قال لى أحد غير هذا الأبله ، ذلك القول . . لكان

محتلاً . . ولتركته يذهب مع الريح . . ولما ترك فى نفسى

أثراً يذكر . . أما أن يقوله ابن «صاحب دولة» . . وإنسان

يحتمل جداً أن يصبح فى هذا الشعب المسكين ذا شأن

وذا خطر ، وقد يدفعه القدر المشوم إلى أن يتولى منصباً

من مناصب الدولة ، ويصبح إنساناً مسئولاً عن مصير هذه

الأمة النحسة .

أما أن يقول هذا الكلام مثل هذا الإنسان . . وأن يكون

رأيه فى المصريين مثل هذا لرأى . . وحديثه مثل هذه اللمعة . .

فقد جعل دمي يعلى فى عروقى .

أهذه أفكارهم عن أمهم ؟ . . أيمثل هؤلاء الخنثى من

أبناء الكبراء سبنى مصر بجدها وتقيم سؤدها . . هؤلاء

الذين تثير أعصابهم الموسيقى الشرقية .. والذين لا يعرفون
من الدنيا إلا آخر رقصة ، وآخر أغنية « لموديس شغاليه »
ولا يهتمون إلا بأحدث « موضة » للأزياء .

هؤلاء الذين يتحدثون عن الشعب المصري كأنهم ليسوا
منه .. الذين يتهربون من « الفول والطعمية » كنهاية أومعة .
وتذكرت « أحمد » ، وتذكرت مصريته الحقة ، وتذكرت
« الكشري أبوجبة » ، و « مية الدقة » ، وتذكرت حماسه
للحيش .. وحماسه لمصر .. وتغيت لو استطعت أن أجتر
أمامه وأقبل قلبيه .

هذا الرقيع الجالس بجوارى ، قد أعطاني نموذجاً للطبقة
العليا .. أستفخر الله .. بل الطبقة السفلى الرفيعة المدللة
ونظرت إليه ولم أدر ماذا أقول له .. أألعن أباه .. أعنى
« دولة آيه » .. أم أتركه وأذهب إلى حجرى ؟

ولكن ماذا يقول أبى ؟ ليس أمامى سوى أن أمثل
لإرادة الله .. وأظل أستمع إلى آرائه الرفيعة المتعالية ، حتى
ينتهى من تناول الطعام .

ولم أستطع إلا أن أفرج عن غيظي المكبوت .. بتصور
ماذا يمكن أن أضله فى تلك الطبقة السفلى .. أولاد الذوات
لو كان الأمر يدي .

وتصوّرت نفسى حاككة بأمرها في هذا البلد . . . وأنى
جمعت كل هؤلاء الرفقاء المرفحين المنعمين . . . المستوى الألسن
الذين يربأون بأنفسهم أن يزلقوا إلى هاوية الحديث باللغة
العربية . . . والذين لا تشفق آذانهم سوى الموسيقى الغربية ،
ولا يحتفل مزاجهم الرقيق سوى « التانجو » و « الفالس » . . .
والذين يتفاخرون بحسبة الشعب المصرى ويتبرأون منه . . .
ويحطون من قدره ويسمونه : شعب « الفنون والطبعية » .

تصوّرت نفسى وقد جمعت هؤلاء الرفقاء . . . وشددت
وثاقهم وألفيتهم عرايا في أحده ميادين القاهرة . . . وأمرت
بجلدهم كل واحد مائة جلدة « على الماشى » . . . حتى أجعلهم
لا ينطقون بالضاد فحسب . . . بل يتأوهون بالضاد . . . وأعلمهم
إذا ما جلسوا فيما بينهم أن يتكلموا العربية . . . ثم أضع في
أرجاء الميدان « ميكروفونات » لتذيع غناء « محمد العربى » ،
و « الشيخ محمود صبح » . . . حتى أجعل مزاجهم يخشوش . . .
وأنفسهم كل ما يعلون عن « وشى جوردياى » . . .
و « جيفى مى يورليس » . . . وأجعلهم يشددون بأعلى
أصواتهم « يا حبلوه ياربه » و « يا عم دانا غريب » . . .
و « يا نخبف القوام » .

ثم أتركهم بعد ذلك يعبثون خمسة أيام على « العيش

الخاف ، . . حتى يشتهوا ، الفول والطعية ، .

وهكذا استطعت بتلك الأفكار والنصيرات أن أفرج
عن كربى وأن أسرح بعض الشيء ، فأخلص من سجع هراء
ضيقتنا وأخته .

وعدت أنظر إليه وهو يحدث أباه بالفرنسية فأحسست
بالرثاء له . . وعدت أتساءل :

• ما ذنب هذا المسكين فيما أصحى عليه ؟ وما ذنبه في ذوقه
وأفكاره . . إن المسئول هو : صاحب الدولة ، نفسه .

المسئول الأول هم الآباء الذين ترفعون عن التربية
المصرية ويدفعون بأولادهم إلى المدارس الأجنبية .

المسئول هو : صاحب الدولة ، . . الذى لم يؤمن بتعليم
دولته ، وتربية دولته . . فلجأ إلى المدارس الفرنسية
والإنجليزية يستجديها تعليم أولاده وتربيتهم .

ما ذنب الأبناء المساكين وقد نشأوا نشأة أجنبية بحتة ؟
نشأوا في بلادهم ، وهم غرباء عنها . . فنشد نعومة أظفارهم
قد تولت أمرهم مربية أجنبية — وهذا لاشك من دواعي
نفرهم ونحر ذويهم — فلما شبوا الحقوا بالمدارس الأجنبية
فنضحت على عقولهم ، وصبغت نفوسهم . . وغبرت أدواقهم

ولوثت أفسارهم ، فترفعوا عن أمنهم ، وتعالوا على شعبهم .
ما ذنبهم إذا كانوا لم يتلقوا من الثقافة العربية كفايتهم ؟
ما ذنبهم إذا كانوا لا يعرفون شيئاً عن الشيخ « محمد عبده » ولا
يعيزون بين « عبد العزيز البشري » و « خان الخليلي » ؟
ما ذنبهم إذا كان أهلهم نخورين بأجنبيتهن ؟ ما ذنبهم إذا
كانوا لا يجيدون الحديث بالعربية .. كما لا يجيدونه بالفرنسية
أو الإنجليزية ؟

ما ذنبهم إذا كان أبوهم لم يحزنه أن يرأى كذلك ؟ ..
وعدت إلى نفسي مرة أخرى على صوت « توتو بك » ،
بقول لي :

— هل تعلمت الرقصة الجديدة ؟
— ولا اقديّة .
— أنت لا ترقصين ؟
— أحل .
— كيف ؟ هذا أمر غير معقول !
— ولم لا !! إني لا أحب الرقص .
— لا تجبته ؟ هذه مسألة من ضروريات الحياة ..
كلاكل والشرب .. كيف تعيشين بلا رقص ، لا . لا . لا بد
أن أعليك الرقص ، سأعتبر نفسي مستولاً عنك منذ الآن .

ولم أدر بماذا أجيبه .. ولكنني فضلت ألا أدخل معه في
مناقشة فقلت له :
— إن شاء الله .. سأحاول تعمله .

وانتهت تلك الزيارة على خير ، وتنفست الصعداء وأنا
أودع العائلة الأرستقراطية وأعدتهم — وأبي - برد الزيارة .
وبدأ لي بعد ذلك أنه لم يعد هناك مفر من توطيد العلاقة
بيننا ، وبدأ لي أيضاً أن أبي في علاقته الجديدة ، حائر قلق ،
فهو راغب فيها ، كاره لها .. راغب فيها لأنه يهدف من علاقته
بصاحب الدولة إلى غرض معين من ناحية العمل .. ولأنه
— كما كنت أتوهم من قبل — يرى هذه العلاقة منعاة للفخر .
وكان كارهاً لها لخوفه على منها ، فقد أدرك مدى خطورتها
على ، وأفرعه من أولاده صاحب الدولة ، مسألة الرقص
والشرب .. وهو الذي .. طالما ضيق على الخناق .. وقسا
في تربيتي .

وكنيت واقفة أن أبي لن يسمح قط بما يفسد عليه تربيتي
وبما يضيع طول مجهوده معي ، ولو كنت أستطيع أن أحدثه
بصراحة لطبأت قلبه ، وأظهرت له مدى احتقاري لتلك
الطبقة الرفيعة ، ومدى نفوري منها ومن أسلوبها في الحياة

ولقلت له .. إن لدىّ درعاً يضيئ غوائلها .. ويجعلني أصد
كل شرور الحياة ومفاسدها .. وهو حبي ، لأحمد ، .. وعزى
على الاقتران به .

ولكن .. هل أجسر أن أقول هذا ؟

ولم يجد أبى هناك وسيلة يمسك بها العصا من الوسط ..
فبقى على علاقته مع الأب .. ويحبنى شرور الأبناء .. إلا أن
يقصر علاقته على الرجل نفسه .. فيلبي دعوته وحده ويعتذر
عن عدم حضوري بالمرض .. ويلجأ إلى .. أنه لا يرغب في
أن أترقب هؤلاء الأولاد ، المفاسيد ، .

ولم أكن في حاجة إلى نصحه بالطبع .. فقد كنت أنا
الراغبة فيه .. وقلت لنفسي : « بركة يا جامع ، .. وصمت
على أن تكون زيارتهم لنا .. هي أول وآخر علاقتي بهم ، وأن
أترقب منهما قدر ما أستطيع .

واستطعت فعلاً .. أنت أترقب منهما .. فقد جلدني
« توتو بك » (استطعت بعد ذلك .. أن أعرف .. أن اسمه
« تهاى » ، لأن أمه كانت تود لو كان بنناً .. فأطلقت عليه هذا
الإسم .. رحمة الله .. فقد استجاب الله دعاءها) .

أقول إن « توتو بك » جاءني بضع مرات بدعوى .

الذهاب معه إلى د سان استقانو ، ، أو إلى زيارتهم .. ولكي
كنت أعتذر دائماً بالمرض .

وذهبت ذات يوم إلى « الكاين » .. وجلست على إحدى
الأرائك .. أراقب الناس طوراً .. وأتشاغل بالقراءة طوراً
آخر .. وجأة وصل إلى أذني .. صوت محدود ملحن ..
يصبح بي :

— بونجور عابده .

وتلفت .. فإذا به « توتو » .. وقد سار مع صاحب له
على شاكلته .. وفتاتين .. ترتدي كل منهما « مايو » من
الساتان .. قد شدَّ على الجسد وانحسر عن الساقين .. حتى بدت
الفتانان أشبه بالعاريتين .
وأجبت على تحيته بهدوء :

— بونجور يا فتيم .. إزاي سوسو ؟

وانطلق « يرطن » بالفرنسية .. رافعاً كل كلفة .. كأننا
أصدقاء العمر :

— لقد عثرت عليك أخيراً أيتها الهاربة .

— إني آسفة لأنني كنت مريضة فلم أستطع أن أجيء دعوتكم .

— لا .. لا .. أنت تليئة مكسالة .. لقد أقسمت أن

اعليك الرقص . وما قد أمسكت بك فلن تفلق من يدي .

والتفت إلى أصدقائه مستدركا :

— نسيت أن أعرّفكم ببعض . عابده هاتم ، ابنة مصطفى
ماشاء عبد الرحمن .. وصديق « برى » .. وأخته « ميسى » ..
وصديقتها « كاميليا » ..

وأحييت رأسي قائلة :

— قشرفنا يا فندم .

وتتم الباقي بعض كلمات بلغات مختلفة .. لم تكن بينها
العربية طبعاً .

وعاد « توتو » يندفع في هذه :

— ما رأيك في أن نبدأ الدرس من الآن ؟

وقلت في دهش متسائلة :

— درس ؟ أي درس ؟

— لا .. أنت تلميذة بليدة لن تفلح معك إلا الشدة .

ثم التفت إلى أصدقائه .. « اوعسأ » إليهم داخل الكابين
صائحاً بهم :

— ادخلوا ! انتظروني برهة . خمس دقائق فقط . سأعود
إليكم حالا .

ودخل أصدقاؤه إلى « لكابين » .. ولم يسعى أمام الأمر

الواقع إلا دعوتهم إلى الجلوس .. وبعد خمس دقائق عاد صاحبنا فعلا ، وقد حمل في يده حقيبة « جراموفون » ، وفي اليد الأخرى كيس اسطوانات .

وبلا كلمة واحدة وضع الميكروفون على المنضدة ، وبدأ في إدارته ، واقترب مني قائلا ببساطة :

— هيا .. سأعليك الآن رقصة بسيطة « فوكس تروت » ، لن تأخذ منا سوى خمس دقائق .. فهي لا تزيد على أربع خطوات : واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. بسيطة جداً .. كأنك تسيرين .

وكنت أسمع إليه ، وأنا جالسة في مقعدي .. أنظر إليه فظرتي إلى إنسان مخبول .

وهمّ بأن يمسك يدي ، ولكنني نزعتها من يده .. وقلت له :

— أرجوك يا « توتو » بك ، إنني متعبة جداً لا أستطيع النهوض . لقد قلت لك إنني لا أحب الرقص ، ولا أريد أن أتعلله . فأرجوك ألا تضايقني بالإلحاح .

وهكذا لم أجد ما يردعه عنى سوى « قلة الذوق » ، فقد جدته كما يقول : « يسوق الهباله على الشيطنة » .

وكنت أنتظر أن يهزج أو يحضب ولكنه لم يفعل ، بل

أجابني ضاحكا :

— لن أياس منك أيتها التليذة البليدة .

ثم نظر إلى رفاقه وقال :

— دعونا نرقص هذه الرقصة .

وعاد يوجه إلى القبول :

— يجب أن نستفيد بالمراقبة .. انبهي خطواتنا ..

فهذا سيفيدك في التعليم .

وهكذا .. ما بين غصنة عين وانباهاها انقلب « الكاين »

إلى « بالو » ووجدتني أحلس عن غير قصد مني .. بل رغم أنني ..
في حلبة رقص .

وتملكني خجل شديد ، وغطاني أني لا أستطيع أن أفعل

شيئا لإيقانهم ، وأنى لا أجسر على طردهم .

ووجدت أن خير طريقة هو أن أعادر أما « الكاين » ،

وأسير على الشاطئ .. برهة ديثا ينتهون من محوهم ، وصمت

بالهوش هلا لمعادرة « الكاين » عندما وقع بصري ساة على

الشخص الذى لم أكن أتمنى شيئا كرويته .

رأيت « أحمد » مقبلا على « الكاين » ، وتملكني من

دويته فرحة لجائية .. كادت تدفعني لأن أجرى طارتي بين

أحضانه .. لولا مسكة من عقل .. ولولا نظرة غريبة
رأيتها في عينيه .. نظرة جعلتني أذكر لك المظر المحيط بي ،
المنظر الماجن والموسيقى الصاخبة والضججكات العريضة ..
التي ألقاها على القدر الساحر .. بلا أى سبب ، وفي اللحظة
المحكمة .. حتى أبدوا أمام أحمد ، - ظناً وعدواناً -
بما أنا أبعد الناس عنه ، وحتى يبدو له أنى أشارك هؤلاء
المخبولين رقصهم وبجونهم .

ولغت الطروف التي ألفت بذلك الحيوان الأرستقراطي
المهووس وأصحابه الحق إلى « لكابين » ، في تلك اللحظة غير
المناسبة ، ولم يسعنى إلا أن أتقدم إلى « أحمد » بحية ، معللة
نفسى بأنى سأوضح له جلية الأمر ، وأخو من نفسه سوء الظن
الذى قد يعلق بذهنه .

ولم يلغى « أحمد » بالهفة والحماسة المستظريين .. فقد صدده
- كما توقعت - ذلك المظر الذى لم يكن يتوقعه قط ، وفعلت
به الوسوس والطنون فعلها في لمح البصر ، فأبصرت بوجهه
محفقناً بغيظ مكبوت ودهش واستياء ، وخيل إلى أنه يقاوم
ثورة غضب تعصف بعنقه .

وسألتني في برود :

— كيف حالك يا عابدة ١٩ وكيف حال عمي . . ونيته ؟
يدولى أنك مسرورة ؟

وتحملت بروده وسخريته . . واثقة أنه بعد دقائق
سيصرف الفتية السخفاء . . وأخلو به وأوضح له الأمر . .
وحنى لو لم ينصرفوا . . فبني أستطيع أن أسير به برهة
أوضح خلالها ما التبس عليه قهقهه .

ولكن يبدو أن الظروف قد أثبتت إلا أن تعقد الأمر
وتعمن في مضابقتي . . إذ ما كدت أجيبه أحمد ، على تحيته
وأدعوه إلى الدخول إلى الكاين ، حتى لمحت أبي قادماً .

ولم أشك في أن المنظر الصائخب الراقص قد أساء أبي . .
ولكنه استطاع أن يكظم غيظه . . وسلم على أحمد ، وعلى
الفتية الراقصين الذين توقفوا عن الرقص لانتهاء الأسطوانة .
وقال « توتو » محدثاً أبي بتمتة البساطة :

— بونجور عمي . . سأشكو لك عابدة . . إنها كسولة
جداً . . إنها أبداً تلبئة رأيتها إلى الآن .

وأجاب أبي متضحكاً :

— لا . . لا . . سأقرض لك أذنها ، حتى تكف
عن كسلها .

ونظر إلى .. ووجد أن خير طريقة ينهى بها ذلك
الصخب ، ويصرف الفتية إلى حال سيلهم ، هو أن تنصرف
نحن .. فقال لي في عجلة :

— هيا يا عابدة .. فإني متعجل .. إلى أريد أن أتناول
الغداء سريعاً لأني على موعد .
وأجبت مطيعة أوامره :
— حالا .

وبدأت أجمع الوسائد من فوق الأرائك الخشبية المنبثة
في « الكابين » .. وأدخلت المقاعد .. ولم ير « توتو » بدأ
من أن يغلق الجراموفون ويحملة متعباً للانصراف .. وسأله
أبي ليجرد الحديث :

— كيف حال « دولة الباشا » ؟

— متوعلك قليلاً .

— كيف ذلك ؟ لا بأس عليه .. سأزوره اليوم
لأطمئن عليه .

وأغلقت باب « الكابين » وانصرف الفتية مودعين ..
وسرت وأبي وأحمد متجهين إلى العربية .. وكان أحمد طول
الوقت صامتاً لا ينكلم ، وتميت لو استطلعت أن أعجل بالشرح
له ، فقد كرهت أن أسبب له حزناً لا أساس له ، ولكنني

قلت لشيء .. إن عليّ أن أنتظر حتى فصل إلى البيت ..
 فلا شك أنه ستتاح لنا خلوة طويلة .. فأخى قد رحل إلى
 مصر ، وحدثني راقلة .. وأبي إما أن يخرج أو ينام .
 ودخل أبي العربة ، ودخلت وراءه وأفسحت مكاناً
 لأحمد حتى يجلس بجوارى .. متوقعة أنه لا بد أن يحضر
 للغداء معنا ، ولكنني وجدته يرفع يده بالتحية مودعاً .
 وأحسست بقلبي يغوص بين جنبي ، ولم يعد لي من أمل
 سوى أن تحدثني فيجبره على المنجى معنا ، فضلاً تكلم
 أبي قائلاً :

— إلى أين يا أحمد ؟ ألا تأتي لتناول الغداء معنا ؟

وتمنت أن يعقل وأن يتروى ولا يعين في غضبه ..
 وأن يتيسر لي فرصة الدفاع ، ولكنني رأيت وجهه تكسوه
 انقسامه مصطنعة وقال لأبي :

-- أنا متأسف يا عمي .. إني على موعد مع صديق
 قد دعاني لتناول الغداء .

وتمنت لو استطعت أن أصبح به متوسلة .. أركب
 يا أحمد .. أرجوك .. سأشرح لك كل شيء .. إني مظلومة .
 ولكنني لم أجرو .. واكتفيت بنظرات متوسلة صامتة

أصوبها إليه ، ولكنه لم يحاول أن ينظر إلى ...
وتملكني اليأس .. لا سيما وأنى لم أتوقع من أبى أن يلج
في دعونه .. فقد كان قوله مجرد تأدية واجب .. أو كانت
دعوته ، عزومة مراكيه ..

ولكنه مع ذلك كذب ظنى وعاد يقول لأحمد :
— ألا تستطيع أن تعتذر له بالتليفون ؟
وبدا لي القول كأنه آخر خيط ألتصق به قبل أن أهوى ..
وتطلعت إلى أحمد متوسلة .

ولكنه أجاب ببساطة قتلتنى :
— متأسف جداً يا عمى .. ليس لديه تليفون .
وكنت واثقة أن أحداً لم يدعه إلى الغداء .. وأنه قد
حضر خصيصاً لرؤيتى ، وكنت واثقة كذلك أنه لا يقل عني
لحظة على اللقاء ، وأنه قد لقي الأمرين في سبيل الحصول على
أجازة للحضور إلى ..

وكرهت أن يخلد كلانا .. بلا أى سبب ، وأن يعود
يانساً محزوناً .. وبتركنى شقية متناعة .. وأن تغلت من
أيدينا فرصة ذهبية كنا نوشك أن تتمتع بها سوياً بين
البحر والرمال .

وجاء قول أبى كأنه حكم على بالإعدام .

— السلام عليكم .. دعنا نراك يا أحمد ،

وتحركت العربية .. وحاولت جهدى أن أقاوم نوبة من
البكاء كادت تعصف بي .. واختفى شبح أحمد .. ورأيت
الكبايت والناس والبحر .. وسور الكورنيش ، تتواتر أمام
عيني في سرعة زائدة ، وقد ظللتها طبقة من دمع ترقق
في عيني .

لقد كنت في هذه الآونة أشبه بمحموم اعترته رجفة
ورعدة .. وكنت أستطيع أن أخمن ماذا ظن أحمد بي ..
إذا أبصرت على مهباء كبرياته القديمة وصلفه وتحديه .
لينة يكف عن كبرياته قليلاً

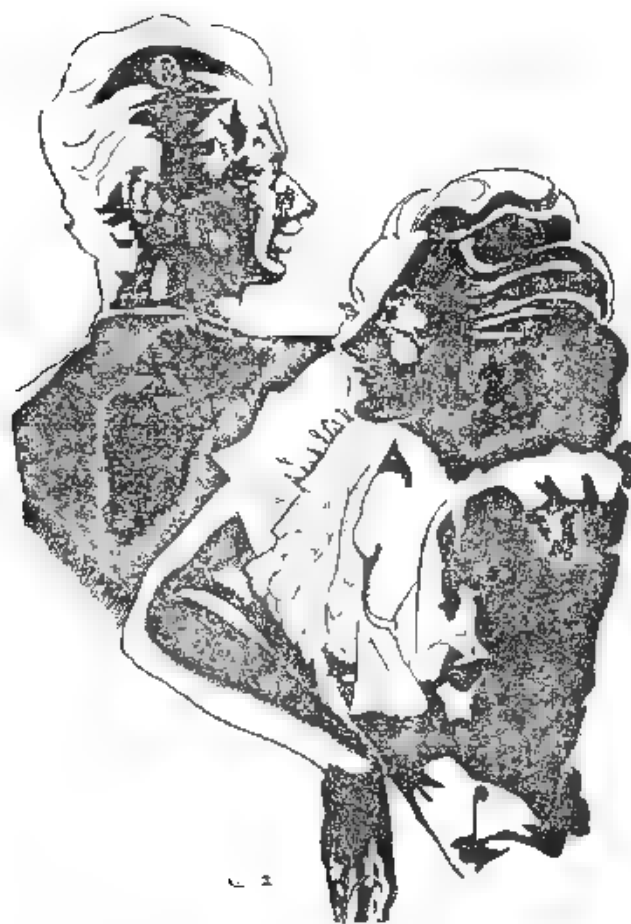
لينة تروى واقصد في غضبه ١١ لينة ترك لي فرصة
للتفاسم ١١

إنه معذور .. فإني شك في أن ذلك المنظر الذي رآه
في الكبايت ، يثير أهلاً الناس أعصاباً .
ولكن ما ذنبى ؟ وما ذنبه أيضاً ؟

لقد تملكى وقتذاك حزن مزدوج ولوعة مضاعفة ..
لوعة من أجل نفسى الحرمان منه .. ولوعة أشد من أجله هو .
فإن حزنه لا شك حزن شديد .. حزن يساوى حزنى عندما
أخبرنى أنه شاهد فى السينما مع « ابتسام » .

وكرمت ان أجد نفسي عازرة حيرى . . والا أستطيع
 أن أعيده إلىّ وأبدد أحزانه وأنهمه خطأ ظنه . . ولكنى لم
 أكن أملك إلا الصمت والسكون . . وإلا أن أتركه يذهب
 بلوعته ويفرّتي في أشجاني .
 إن شرماني الحب أن الحب يخلق لنفسه أحزاناً لأشبهه
 لا وجود لها .





فین

۱

إلى البيت .. وجلسنا حول المائدة وأما شاردة
وصلنا .. أتناول الطعام بطريقة آلية دون أن
أذوق له طعما .

وبدأ لي أن أتي أكل من شرودا .. ولم أشك أن
هناك ما يشغل ذهنه .. واتهبا من الطعام .. ونهض كلانا
في صمت .. وذهب إلى غرفته .. وذهبت إلى غرفتي ..
وارتيت على الفراش في ضيق ورأس .. وأخذت أستعرض
في ذهني كل ما حدث ، وأحسست بكره شديد لذلك الرقيق
المنحنت .. الذي سبب لي كل هذا الحزن .. ورأيت أن خير
ما أفعله هو أن أكتب لأحمد خطاباً أوضح فيه الأمر .

ونفضت من الفراش ، وخرجت من حجرتي أبحث عن
ورقة وقلم .. وزعت ورقة من كراسة لأبي فعود أن يكتب
فيها بعض الحسابات ، وعثرت على قلم ملق في أحد الأدراج
وعدت بهما إلى حجرتي كأنني عثرت على صيد ثمين .

وجلست لأكتب .. وكانت تلك هي المرة الأولى التي
أحاول أن أكتب فيها لأحمد .. أو لفير أحمد .. فسا كتبت
من قبل سوى بضعة خطابات كانت تطلب مني جدتي أن
أكتبها لها لترسلها إلى بعض الأهلين بالبلد .

وأخفت أفكر . . ماذا أكتب له ١٤ وكيف أبدأ
رسائي ١٤ وشعرت أن المهمة ليست بالهينة . . وأني لن
أستطيع بكتاتي أن أقنعه بنفس السهولة التي أقنعه بها فيما
لو كنت أحدثه وجهاً لوجه .

ولم أدر ماذا أقول له : « عزيزي أحمد ، . . لا تعبر عن
حقيقة موقفه من نفسي . . حبيبي أحمد ، . . ثقيلة على النفس
وركيكة في الكتابة .

وأخفت أكتب وأشطب . . فكلما كتبت شيئاً وجدت
به ركاكة وضعفاً . . وخيل إلي أنه قد يزيد من غضبه .
آه . . لو انتظر .

آه لو أتاح لي الفرصة . . لكي أحدثه وأشرح له .
بل ما أظنني كنت في حاجة إلى الشرح والحديث . . فقد
كان يكفي أن تشاك أصابنا ، وتلتقي أكفنا ، وينظر كل منا
في وجه الآخر . . حتى نفسي كل ما أحزنا ، ويغفر كل منا
للآخر كل ما أثار وسأوسه . . فقد كانت أعينا أطلق بالحب
وأشرح للاخلاص من أفصح لسان .

وملت أخيراً من الكتابة والشطب ، ومزقت الورقة ،
وعدت إلى فراشي متعبة مكدودة . . يجب علي أن أنتظر
شهرًا آخر حتى نعود إلى القاهرة . . فلتقي وأشرح له .

أجل .. إن كبرياءه لن تسمح له بالحضور مرة أخرى
إلى الإسكندرية .. بل عندما أخشى أن نمنعه أيضاً من
الحضور إلى دارنا بالقاهرة .

ولكن لا .. إني لن أخشى ذلك .. لأنى أستطيع أن
أحدثه بالتليفون .. فلقد سبق أن أعطانى الرقم وسألنى أن
أحدثه فيه إذا احتجت إليه .

وأخذت أتقلب فى قلق .. ولكنى أحسست أن باب
الفرقة يفتح .. ورأيت أبى بنادىنى :
— عايدو .

ونفضت من الفراش .. وتوقفت أنه سيسألنى عن شيء
خاص به : علة دواء .. أو رجاجة أسيرين .. أو أى شيء
مما تعود أن يسألنى عنه .
وأجبت :

— نعم .

— تعالى .

وخرجت إلى الصالة .. ووجدته قد ارتدى ملابسه وبدأ
عليه أنه يهيم بالخروج ، وقال :

— سأضطر أن أعود إلى القاهرة غداً .. فإن لدى بعض
الأعمال التى تستدعى وجودى فى القاهرة .

ولم يكن هناك أسهل على من أخن ما يحول بخاطره
قد كنت أدري الناس به . . وكنت دائماً أعرف ما ورا
حديثه .

وأدركت ببساطة . . مدى التأثير الذي أحدثه في نفسه
«توتوبك» ورقصه ومجونه . . وعلمت أن ما كان يشغل ذهنه
أثناء تناول الطعام هي هذه المسألة دون غيرها . . وأنه بات
يحبس من الفتى الرقيق بخطر يحيق بي . . من العسير صده أو
المخلص منه . . وأن التفكير قد انتهى به إلى أن خير طريقة
للخلاص هي العودة إلى القاهرة .
وعاد أبي يقول :

— لست أدري ما إذا كنت تودين البقاء . . أم تفضلين
العودة معي ؟ أنت . . وماتشائين .
وكنت أعلم أيضاً ما وراء قوله . . فما كان لي قط أن
أختار ما أريد . . أو أفعل ما أشاء . . بل كان عليّ أن أفهم
قوله جيداً . . ثم أختار بعد ذلك ما يريد هو وما يشاء .
هل يعقل أن يتركني وحيدة في الإسكندرية . . لو أنني
قد شئت ؟ . ولكنني مع ذلك لن أشاء . . فما أظن رغباتنا
توافقت في أية لحظة كما توافقت الآن .
إنه يريد أن أعود إلى القاهرة ، وأنا أشد منه لطفة على

العودة . لقد كنت أشعر أن معجزة قد حدثت وأن هودق إلى
القاهرة نجدة من السماء .

لقد اتفقنا في الرغبة ، واختلفنا في المقصد ، هو يريد منى
العودة فراراً من ابن صاحب الدولة ، وأنا أريد فراراً
من القرقة والبعد والأحزان .

وتبددت من نفسى اللوعة وتطايير الشجن ، وأحسست
بالسعادة تغمى نفسى ، وأنا أفكر في القاهرة وأستعرض في
ذهنى جلستنا في الشرفة ، ومسيرنا في الطريق ، ونجوانا على حافة
الساقية ، ووجدتني أقول له :
— أفضل السفر معك طبعاً .

ولم يكن بردى أى نفاق .

وقضيت ليلتي هاشة ، فرحة مستبشرة ، وفي اليوم التالي
حزماً حقاقتنا وعدنا جميعاً إلى القاهرة مبكرين شهراً عما
كان ينتظر أن نمسك في الاسكندرية ، فقد كنا في منتصف
أغسطس ، وكنا قد تمودنا مفادرة الاسكندرية في منتصف
سبتمبر .

وصلنا إلى القاهرة ، ولم يكن هناك فرصة للحديث يوم
الوصول إذ لم يكن قد استقر بنا المقام بعد ، وكان البيت مازال
في حالة اضطراب .

وفي اليوم التالي استيقظت وبى إحساس المقدم على أمر
خطير . . كنت أمدفح إليه دون رعى . . فنقد صممت على أن
أحدثه فى التليفون ، وكان بى شعور المعامرة ، ففاجأت من
قبل على أن أطلبه .

واتنظرت حتى انصرف أبى وأخى ، وانهمك الخدم فى
أعمالهم ، وكانت الساعة قد بلغت العاشرة . فحملت جهاز
التليفون إلى الطابق السفلى بعيداً عن مسمع جدى . ثم بدأت
أدير أرقام القرص .

ووضعت الساعة على أذنى وأصغيت ، فحملت إلى أذنى
شغل الخط . . فأعدتها إلى مكانها .

وبدا لى أن التليفون قد ركب رأسه وأصر على أن يمعن
فى محتابقى وإثارتى . . فلفقد طلبت الرقم على ما يقرب من
عشر مرات وأنا أجده مشغولاً .

وكنيت أخشى أن تضيق الفرصة السانحة ، فرصة خلوى
البيت ، وكنيت أحس بارتباك شدد وغيظ أشد .

وأخيراً .. وأخيراً جداً ، سمعت الجرس يدق فى الساعة
وسمعت صوتاً يخبىنى :

— ألو .

— السوارى ؟

— أفندم .

— أستطيع أن أكلم أحمد أفندي عيد السلام .

— أيها ؟

ولم يكن لدى أية فكرة أن هناك ، أحمد عيد السلام ،
مواه .. وأصايبى الارباباك ولكنى استدركت قائلة :

— أريد الملازم ثاقى أحمد أفندي عيد السلام .

— انتظري على الساعة حتى نبحث عنه .

وانتظرت طويلا ١٢ .. ربع ساعة دون أن يجيبني أحد ..
ووضعت الساعة .. ونذرت بالصير .. وعدت أطلب
الرقم مرة أخرى .. وحمدت الله .. أنى لم أجد السكة
مشغولة ..

وتكررت نفس المحادثة الأولى ، ولم أجد بدا من الرجاء
قائلة :

— أرجوك لا تتركنى أنتظر على الساعة . إني أريده في
أمر هام .

— سنرسل في طلبه من الإسطنبول حالا .

ويعد برهة أجايبى نفس الصوت *

— غير موجود يا أفندم .

— أرجوك بمجرد حضوره .. أن تخبره أن «يت خالته»
يريده في مسألة ضرورية .

ووضعت السماعة في يأس وصيق ، ولم تمض دقيقة واحدة
بس ما كنت أدير ظهري حتى دق التليفون ، ورفعت السماعة ،
فإذا بي أسمع صوته .. صوته هو الذي لا أميز من الأصوات
سواه .

وقال في لهجة لاتحلو من الجفاف والحدة :

— ألو .. أنا أحمد .

ولم أشك في أنه قد ميز صوتي ، ولكنني مع ذلك قلت له
بصوت أشبه بالهمس :

— أنا عايدة يا أحمد .

واستمر في حديثه قائلاً بفتضاب :

— نعم ؟

ولم أغضب لجفافه في الرد .. لأنني لم أكن أنوقع سوى
ذلك .. ولأنني كذلك كنت واثقة أن جفافه مصطنع .. وأنه
لأشك كلفه جهداً كبيراً .. وأن وراء بروده الكثير من
الدهش والكثير من الغبطة لحضوري المفاجئ .. ولحديثي معه
أو هذا على الأقل ما حاولت أن أنزع به نفسي ، لكي أتقبل
لهجته الجافة .

وأجبت في لهجة رجاء :
 — أريد أن أحدثك .
 — فهم ؟
 — فيما حدث في « الكاين » .
 — هذا الأمر لا يعني .
 — لا تكن عنيداً .. دعني أشرح لك أولاً .. ثم اغضب
 كما تشاء .

— من قال لك .. لمي غضب ؟
 — لأنك لم تذهب معنا إلى البيت .
 — لقد قلت إنني على موعد للقاء .
 — إذا لماذا حضرت ؟ ! حضرت لكي تمتد بضعة

دقائق ؟

— لقد كنت ماراً بالمصادفة .
 — أحمد .. أرجوك .. لا تمنعني في السخنة .. كي ما فعلت
 في الأسكندرية .

— ما فعلت أنا ؟ .. أنا الذي فعلت ؟
 — أجل .. أنت الذي فعلت .. لم يكن هناك قط
 ما يستدعي غضبك .
 — أنا لست غاضباً

— إن في صوتك ما ينم عن غضبك .
وهنا سمعت صوت « جدى » تنادى من الطابق الأعلى
فاجتبا باني قادمة . ثم قلت لأحمد :
— أرجوك أنت تحضر .. ليس لدى وقت للشرح في
التليفون .. إنى سأنتظرك .
ولم يجب على .. فعدت أسأل :
— هل مستحضر ؟
— سأحاول .

ووضعت الساعة مكانها ، وصعدت إلى جدى .
ولست أذكر فيما كانت تريدنى جدى .. أو لعلها طلبت
منى قضاء حاجة من حاجاتها التافهة التى لا تفرغ .
وكان رده سأحاول .. ردّاً غير قاطع .. فقد يحضر وقد
لا يحضر .. بل أغضب الظن أنه ربما ركب رأسه واتبع كبريائه
وامتعر فى المجر .

واتابى خليط من الفلق والعشيق ، والأمل والبهفة ..
وخطر لى أن أطلبه مرة أخرى .. وهبطت فعلاً إلى الدور
الأسفل .. وأنا أشاور نفسى : أخاطبه أم لا أخاطبه ؟
لو خاطبته فقد يزداد عناداً وإصراراً .. ولو لم أخاطبه فقد
يعلن فى غضبه .

ثم ماذا أفعل سوى ذلك !! وهل من سبيل لإحضاره
غير مخاطبتي إياه ، ودعوته للحضور ؟
ودق جرس الباب ، وذهبت بنفسى لأرى من الطارق
فوجدته أمامى .

أجل . . وجدته هو . . الذى ادعى البرود وتمنع
الغضب . . لقد حضر إلى بعد نضع دقائق . . كأنما قد
هبط من السماء بالبراشوت .

وكان يبدو أغبر مشعثاً ، يرتدى الحذاء الطويل ، وعليه
بنطلون وقيص ، ولحيت عربية صغيرة تقف بباب الحديقة . .
أغلب ظنى أنه قد استعارها من أحد زملائه للحضور بها .
ونظرت إلى وجهه ، فوجدت عليه مسحة غضب
مصطع ، ورغم أنى قد فتحت له الباب ، إلا أنه استمر يقف
خارجه ، وقال لى بلهجة حادة :

— ماذا تريدين ؟

— ادخل .

— ليس لدى وقت .

— لا تكن طفلاً . . كف عن هذا العناد . . ادخل
وإلا أغلقت الباب .

ودخل يضرب الأرض بحديد كعب حذائه الضخم . .

ثم وقف في الصلاة واحتماً يديه في خصره وقال متحدياً :

— نعم

وابتسمت . . ثم شدته من يده واتجهنا إلى الشرفة وجلست قبالة .

والتقت عينانا ونحن صامتان فترة ليست بالقصيرة . . وأحسست بالهجوم كلها تذوب بين عينينا . . وأخذت بحماية الغضب تنقشع عن وجهه وبدأ رويداً . . ثم سمعت صوته يهمس في حنان :

— لم فعلت هذا ؟ لم سمحت لنفسك بالبقاء وسط هؤلاء الرعاء ، ووسط الموسيقى المألجة ، والرقص الخليع ؟
لماذا أربأ بعينيك أن تنظر إليهم .

— كنت مكرهه . . فلقد هجم هو ورفاقه على الكاين ، واحتلوا احتلالاً حاطفاً . . فلم أستطع أن أطرده ، فهو ابن زكي باشا ، صديق أبي ، ورئيس الوزراء السابق . . ولم يكن في وسعي سوى أن أغادر الكاين . . وهمست فعلاً بأن أغادره في اللحظة التي حضرت فيها أنت . . لقد حدثت للسائلة كلها في بضعة دقائق . . كنت خلالها أشبه بالمدحولة .

— وما مدى علاقتك بابن زكي باشا هذا ؟

— تقصد « نو تو » ؟

— اسمه . تو تو ، أليس له اسم غير هذا ؟

— له اسم شر من هذا . . . تهاني . .

— ما شاء الله ، وما الذي جعله يحدثك هكذا بلا كلفة ؟

— اسمع يا أحمد . لا تضيع وقتنا عبثاً . إني أسمع لك
بالغيرة ، فكل محب لا بد له أن يعار ، ولكنني لن أسمع لك
خط أن تعار من مثل هذا الإنسان النافه . إني أرى بك أن
تقارن به نفسك ، وأربأ بنفسى . . أنت تغار على منه . .
إني لا أكن لأمثاله غير شعور واحد . . هو الاحتقار . .
هل فهمت ؟

ولم يتكلم . . بل رفع يدي إلى فمه وسها بشفتيه في رفق
واستر ملصقها بهما ، وساد الصمت حتى بت أسمع صوت
أنفاسه تتلاحق وأحس بدقتها .

وضفطت على يده ، ووجدتني بلا تفكير أجذب يده
إلى في . . يده هو إلى في أنا . . ووضعت يدي في راحته
وأخذت أحركها يطمه . . مقبلة كفّه قبلات صامتة .
وسمعتهمهمس :

— إني آسف .

— أما الأسفة .

— على أية حال، لقد أخذت ما أستحق من عقاب .. لقد
مضى علىَّ يومان منذ أن لقينك في الإسكندرية وأنا أشبه
بمحكوم صرخته حتى الغضب والياس .

— يجب ألا يغضب أحدا من الآخر .. يجب أن نتق
بأنفسنا إلى أبعد حدود الثقة ، فإرام أن نضيع العمر القصير في
أحزان مختلفة .

— ما ظننت قط أنك تؤثرين في نفسى بهذا القدر ..
وما ظننت أن لك في قلبى مثل هذا المقام .. لقد عدت
بعد أن تركتك إلى المحطة .. وأخذت أول قطار عادى إلى
القاهرة . لم أكن مدعوا على الغداء — كما زعمت — ولكن
الغضب أطاش صوابى .. وصمت على أن أهجرك بعد أن
أبصرتك في هذا الوسط الخليع وبين هؤلاء الرقعا .. وتركت
المربة تذهب بك .. وأنا أتحد على فراقك وأتصبر .. وكنت
السم في كبدي .. فأوجعه وأدماه .. وملئت نفسى بالمرارة ،
وكرهت الدنيا ومن عليها .. كيف تفعلين بي كل هذا ؟
إذا رضيت عنك رضيت عنى الدنيا .. وإذا غضبت عليك
رضيت عليها .

لقد جلست في القطار وأنا لا أحس بشئ مما حولى .
وحاولت جهدى أن أبعد عنى الوسواس ، وأن ألتص لك

الأعداء .. ولكن شيطان الشك كان يثقل على ويكيل لك
التهمة ويحمو الأعداء .. ويصور لك لي وقد انهمكت في الرقص
معهم ، ونسيتني وتطايرت من رأسك ذكرى ، ونقضت العهد
والمواثيق .

لقد كرهت أن أخفي لديك مجرد ذكرى باهتة ، وأن
تمحو الفرقة القصيرة أترى من نفسك وتنسك نبحوانا في
المنبد المقدس .. كنت أشعر أني أعذب نفسي .. وأحطم
قلبي .. ويزداد عذابى عندما أعود فأسمع نفسي بطهارتك ..
وبفرط إيمانك بي وبحبي .. أحس بأني قد طلتك .. وأني قد
تركك تتعذبن كما أنعذب ، وألمك قد تكونين راقدة في
فراشك تبكين .

كنت أتمنى لو عاد بي القطار لكي أعود إليك وأجثو
تحت قدميك وأعتذر عن سوء ظني ، ولكني أعود مرة
أخرى فأذكر الموسيقى الراقصة وأذكر قول الفتى الماخن :
إنك تليسنه مكساة ، وقول أليك : إنه سيقصر أذلك ..
وعدت إلى القاهرة وأنا أحمل هموم الدنيا وشكوكها .

وذهبت إلى الدار ، وإلى العمل ، وصحاني قد شيعت
إلى التبر عزيزاً لدى ، وكنت أسير كأنى أحمل على ظهري
مائة عام من العذاب واليأس .. حتى أبتأى عامل التليفون أن

• بيت حالي قد طلبى .. وطنته أهلك في مبدأ الأمر .. إذ لم
يخطر ببال قط أملك قد عدت .. ولكن العامل أنبأني بأن سيده
هى التى تكلمت .

وأدرت القرص بيد مرتجفة .. فإذا بصوتك يجهق ..
وإذا بنشوة تسرى فى رأسى فتملأ .. كنت أجيبك بنضب
وقلبى يتراقص ثملاً .. وقلب لك عند ما سألتنى الحضور أنى
سأحاوله .. ثم فغزت لى أقرب عربة ، كما أنا ، تاركاً على دون
أن أستاذن فى الخروج .. غير عابىء بشيء ولا مقدر لمسؤولية
لقد كنت أتمحرق شوقاً وأذوب وجداً .. كنت أريد أن
أراك وأخسر نصف عمرى .. أليس ذلك أهون من ألا أراك
ويذهب العمر كله سدى ؟





في انتظار المني

أنصت إلى أحمد . . وأنا أحس من حديثه بمنتهى
هياست عجيبة . عوتصني عن سابق لوعتي بخير عوض ،
وجعلني أستعذب الألم الذي أعقبه ذلك العتاب اللذيذ . فقد كان
حديثه يفيض رقة ويسيل عذوبة ، وكنت أحس منه بحرارة
الإخلاص ، وقرط الحنين .

وددت لو طالت جلستنا إلى ما لا نهاية ، ولكن اللحظات
مرت بنا حثيثات عجلى . لقد كانت لحظات عجيبة ركز فيها من
المتعة ما لو فرقناه على العمر جميعه لكانت العمر كله تمتعاً .
تمتعت وقتذاك لو وقف الزمن . . أو لو خرجنا عن نطاقه ففقد
سلطانه علينا ، وأصبحنا من الأشياء الخالدة مع الرمز كالجبال
والأنهار والكواكب والسجود ، حتى لا نحين لنا فرقة ولا تحمل
فنا نهاية .

ولكن الزمن لم يرحمنا . . بل دقت الساعة الواحدة . .
لتذكرنا بأننا ما زلنا بشراً ، وأما لم نصبح بعد كواكب
ولا نجوماً ، وأن على أن أتوقع عودته أبداً ، وأن عليه أن يعود
إلى عمله ، ليعتذر عن غيبته المفاجئة .

لقد هبطت بنا دقة الساعة من سماء الأوهام إلى أرض

الواقع ، ونهضنا وقد صفت قلوبنا وسعدت بهوسنا ، وسألي
قبل أن ينصرف :

— أليس من الواجب أن أصعد للسلام على . بنه ، ؟
وترددت برهة فقد كنت أفضل أن ينصرف دون أن تعلم
جدي ، ولكنني سمعتها تاديني ، ولم أجد بداً من أن أصعد
ويصعد معي .

ولقيته جدي لقاء حاراً . جعلني لا أندم على صعوده
لتحيتها ، وسأله :

— لم لم تحضر لزيارتنا في الإسكندرية ؟
— لم أستطع الحصول على إجازة طويلة .
— الحمد لله . إننا لم نتمكن هناك طويلاً . . ما أكره
الإسكندرية .

وخشيت أن يطول الحديث فأومأ لأحمد بإيماء خفيفة
برأسي حتى . تآذن في الخروج .
وودعته جدي قائلة :

— لم لا تمكث لتتناول الغداء ؟
— عندي اليوم «نوبتية» ، ولابد أن أعود إلى الشكايات ،
لقد مررت بالدار مصادفة فوجدت النوافذ مفتوحة ، وأدركت
أنكم لابد قد عدتم حضرت لأقول لكم حمد الله على السلامة . .

وبدا لي أن الجدة العزيزة لم تذلم الكذبة بسهولة ، وإن
كانت قد وافقت عليها ، وخيل لي أنها تعلم كل ما ينشأ ، وأنها
تعرف أن دعوتها بالتليفون . على أية حال إنني لم أعد أخشاهما
منذ مرضي . . فقد أفلعت عن نصائح أبي تماماً ، وضربت بها
عرض الحائط ، وتركت نفسي على بحيتها تغمري بالحنان
والدليل ، وأصحت بطريقة غير مبشرة عوناً لي على حب
« أحمد » ، ولم أشك في أنها تقر ميلتي إليه ، لأنها هي نفسها
— كما سبق لي القول — كانت تميل إليه .

وانصرف « أحمد » ، وودعته حتى الباب ، وانفقت معه
على موعد اللقاء التادم .

وعندت إلى « جدتي » فجلست معها استطاراً لأوبة أبي .
وكان « أحمد » موضوع حديثنا . قالت جدتي :

— أحمد . ولد طيب ، وهادي . وابن حلال ، ما رأيك
به يا عايدة ؟

ونظرت إليها نظرة فاحصة ، ولم أحاول أن أجيب قبل أن
أفهم ما وراء حديثها . ترى هل تستندرجني الجدة الماكرة ؟
وأحبها بقلة اكثرات متبائلة :

— من حيث ؟

— كل شيء .. ألا يعجبك ؟

- لا بأس به .
 - أنا شخصياً أجده خير من يصنع لك .
 - لي أما ؟
 - أجل !
 - من أى ناحية ؟
 - ناحية الزواج .
 وأطرقت برأسى . . . وتصنعت الاستحفاف . . . وإن كان
 حديثها قد صادف هوى فى نفسى . . . وأحسست منه بمتعة
 كبرى .
 وعادت جدتى تسأل :
 - ألا ترىته زوجاً صالحاً ؟
 - قد يكون . . . ولكن الزواج لا يحظر فى بابل الآن . .
 إن وقته ما زال بعيداً .
 - لقد فضجت وأصبحت دست بيت . . . إلى تزوجت
 وأنا أصغر منك بخمسة أعوام على الأقل .
 - فى رمنك كان هذا معقولاً . أما الآن . . .
 ودق جرس الباب ، وسمعت صوت أبى ، فكففنا عز
 الحديث ، وهبطت إلى الطابق الأسفل .

• • •

مضت بعد ذلك بضعة أيام قل أن يحضر « احمد » مرة
أخرى . . كان يداعب رأسى حلاطاً الأمل العذب والفكرة
المعسولة . . وكنت أستعيد في نفسى بين آونة وأخرى قول
جدتى : « لقد نضجت وأصبحت . . ست بيت . »
قد أخذ الحلم البعيد فى التجسد شيئاً فشيئاً ، وخيل إلى
أن الأمانى التى كانت حلماً من أحلام الدجى . . تو شك أن
تصبح حقيقة .

أجل . . إنا نمنطبع لأن التفكير جدياً فى الزواج . .
فكثيراً ما قلت لأحمد عند ما كنا نحوض سوياً فى هذا
الموضوع إن أماننا زمناً طويلاً . . وكان ردى الدائم هو :
« لسه بلدى » .

كس أطن دائماً أنه ما زان عينا أن نتظر فهو لم يزل فى
رتبة صغيرة ، لا أظن راتها . وهو اثنا عشر جنياً - يهـ -
لنا عبثاً طيباً دون أن تلجأ إلى معاونة أحد .

كنت أريد أن تكون فى حياتنا مستقلين ، تكفى أنفسنا
دون ما حاجة إلى معونة أى ، وكان هو مفعماً بالأمل واثقاً
من سرعة ترقيه ، مطمئناً إلى المستقبل ، يعتقد أن توسع
الجيش ، سيضمن له قفزات سريعة إلى الرتب العليا ، وكان
يرى أنه لن يلبث طويلاً حتى يرقى إلى رتبة « الملازم أول » .

و.. يوز باشى، وحينئذ يستطيع أن يتقدم لخطبتي .. بعد أن يكون قد ضمن لنفسه مرتباً يجعلنا نعيش في رغد .

وقلت لنفى إنه يستطيع التقدم لخطبتي من الآن .. على ألا يتروح إلا حينما يحين الوقت المناسب .. حتى تتاح لنا فرصة أكبر للقاء .. وحتى أحرر نفى من سباح الخوف الذى أحيط بها .. وأطلق مشاعرى بلا رهبة ولا خشية .. كنت أريد أن يصح لكل ما بالآخر صلة واضحة .. تمكثنا من التمعح حيناً .. ولا تجعلنا تستر عليه أو نكتمه كأنه منكر أو جريمة .

وصممت على أن أعرض عليه الأمر، وأذكر له حديث جدتي في أول لقاء .

وفي ذات غروب .. هبطت إلى الحديقة .. أستريح فيها وأنسى بقطف بعض الزهور تنسيقها في الزهريات .. وكانت الأحواض كلها خالية استعداداً لموسم الشتاء .. إلا حوضاً كبيراً في ركن الحديقة .. قد حشد بالداليه العالية الجروع الكبيرة الأزهار .. وخضت في الحوض .. لكي أتق بعض أنواع يافوتية اللون رائعة المظهر .. ويدو أن الحوض كان حديث العهد بالمسقى فقد وجدت قدى نفوس في الطين لجأه .. وعند ما حاولت إخراجها خرجت غارية بمجردة

وبقي الخزاء مدهوناً في الطين . . ووقفت على ساق واحدة -
الساق التي ما زالت مغروسة بجذائنها في الطين - رافعة الساق
العارية . كأي . أبو قردان . . ثم انحنيت بحذر لكي أزرع
فردة الخزاء ، المغروسة . . وكدت ألمسها عند ما أحسست
بتوازني يختل فلم أجد بداً من أن أستند يدي على الأرض
حتى أحفظ توازني وغاصت بداي في الطين واضطرت أن
أهبط بقدمي العارية إلى الأرض حتى أستطيع تخليص يدي .
وبفأة أحسست بفراشة تهبط على وجهي فأسرعت يزاحتها
ياحدى يدي الملوثة فتأثر الطين على وجهي .

فلم أر بداً من ترك الخزاء ، والعودة إلى البيت لنفسي
قدمي وبدي ووجهي . . واستدرت لأعود ، فوجدت
أحمد ، قد وقف برقبتي ، وقد ارتسبت علي وجهه ابتسامة
مرينة . وقال ضاحكاً :

- ما شاء الله . . منتهى النظافة والأناقة . أجز بأمهات

للمستقبل ! !

وتقدمت منه رافعة يدي في وجهه وقلت مهددة :

- تنح . . وإلا اضطرت إلى احتضانك وتقبيلك !

- ياريت !

- ألا تخشى الطين ؟

- أبداً . . . بطينه ولا غسيل البرك . .
 وأممت في الاقتراب منه وأنا مادة يدي قاتلة :
 - ها . . ابتعد خير لك . . وإلا لوئت بدلتك !
 - أنجسرين ؟ . . ألا تعلمين أن من يقطع زرار جتدياً
 يحبس ستة أشهر . . فما بالك بضابط . . وأى صابط . .
 صابط قديم محترم . . برتبة ملازم أول . .
 وظفته يمزح . . ولم أكن قد حاولت النظر إلى كتفيه ،
 ولكي رفعت بصري إليهما . . فإذا بي أرى نجمة جديدة .
 وصحت في فرح شديد :
 - ما هذه ؟
 - « نجوم الضهر » !
 - لم لم تخبرني من قبل ؟
 - لأفاجئك بها . . لقد طللت أؤجل زيارتي من يوم
 لآخر حتى لا ترفيني بغير الرتبة الجديدة .
 وفلت مهتة من أعماق قلبي :
 - مبروك . . يا أحمد .
 - مبروك علي . . والا عليك ؟
 - علينا سوياً !
 وتذكرت ما صمت عليه من قبل ، وهو أن أطلب منه

التقدم إلى أبي لخطبتي ، ورأيت الظروف مواتية ، والفرصة
سائغة .

ومد ، أحمد ، يده فأمسك بيدي الملوثة بالطين ، ومسحني
بمحواره . . وحاولت التخلص من يده قائلة :

— دعني حتى أزيل هذا الوحل . وأعود إليك حالاً !

— لا . . لا . . لا داعي لإضاعة الوقت ، إن لدى

أخباراً سارة تستحق منك احتمال الطين حتى تسمعها .

ورفعت حاجبي وتساءلت :

— شيئاً غير الترقية ؟

— أجل . . شيئاً أفضل

وسرت بخاطري فكرة الخطبة . . ولم أشك أنه ينوي
أن يفتحنى فيها .

وجلست بمحواره على مقعد الخديقة . . حافية القدمين . .

ملوثة اليدين والوجه . . ورفعت وجهي متسائلة :

— ماذا عندك ؟

— سأنال شيئاً أفضل من الترقية .

وازداد دهشى وعدت أكرر قوله :

— شيئاً أفضل من الترقية ؟ . . ما هو ؟

— سأقبل إلى الحرس .

— حقاً ؟ ...

— أجل .. لقد استدعاني القائد في مكتبه ، وأباني
أنه أبلغني أنني قد اتدبت للخدمة في الحرس « الملكي » وهناك ،
وطلب مني أن أقدم نفسي لقائد الحرس غداً .
وشرد ذهني .. وعادت فكرة الخطبة تلح عليّ ..
وأحسست أنني أوشك أن أحن من الفرح .
وعاد هو يقول :

— هل تعرفين معنى أن أقبل إلى الحرس ؟
ولكنني هزئت رأسي متسائلة :
— كلا !

وأجاب هو على سؤاله :
— معناه أنني أستطيع أن أحقق أحب أمية إلى نفسي ..
أستطيع أن أقدم خطبتك بقلب قوی غير هباب ولا وجل ،
لقد أصبحت ضابطاً في الحرس « الملكي » .. وسيد صاعف
مرتبني ولنستطيع به أن ننشئ بيتاً ونحيا حياة هائلة ..
ألا تعتقدين أن خمسة وعشرين جنياً كفيلة بصد حاجتنا ؟
وكانت نفسي تفيض بالحمد والشكر .. كيف لا وقد
أكرمنا القدر إلى أبعد حدود الكرم ! لقد حقق آمالي
بأسرع مما كنت أتصور .

كنت في الظهيرة أسمع حديث حديق عن الزواج فأحس
أنه أمنية صعبة المنال وحلم بعيد التحقيق . . كنت أحس أنه
- كما تعودت أن أقول - دلسه بدري . . وكنت أمني
نفسى بخطبة عاجية ، وزواج مؤجل ، وأن تنتظر حتى يرقى
إلى رتبة اليوزباشى .

أما الآن وفي غمضة عين ، فقد أصبحت مآربنا ملء يدينا
ولم يعد الزواج أمراً بعيداً . . أو أمنية صعبة ، ولم يعد بنا
من حاجة إلى التعلل بالخطبة .

ونظرت إلى يدي وقلت له :

- دقيقة واحدة أغسل فيها يدي وقدمى ، فإني لا أطيق

الجلوس بمثل هذه القذارة !

- دعيني أتولى غسلها عنك . امنحني هذه المتعة . دعينا

نحتنى بقرقتي بغسل يديك على هذا الحوض . سيرى بنا .

وجدتني من يدي إلى حوض قريب وأجلسنى على حافته
وفتح الصنبور ، وبدأ يغسل يدي ، وبلل منديله بالماء وأخذ
في تنظيف رجلي ، ثم مددت ساق أسفل الصنبور ، واستمر
هو يغسل قدمي بأصابه مزبلا عنها ما علق بها من الطين .
فلما انتهى من غسلها بدأ في عملية « زغرغة » ، وأنا لا يصحكى
شيء « زغرغة » ، باطن قدمي . وانطلقت أضحك وأرفس

بقدمي وأحاول زرعها من يده وأما جالسة على حافة الخوض .
وجأة سمعت صوت أبي ، وقد وقف في نهاية الممر الذي
به الخوض ، وقد نجهم وجهه وتماءل في دهشة :
— ما هذا البيت ؟

ولم أكن أتوقع قط أني أراه وقتئذ ، فقد كان لا يعود
إلى البيت في مثل هذا الصباح المبكر ، وأحسست من مرآه
كان . دشاً بارداً ، قد صب فوق رأسي في يوم قو .
وتعسكني خجل شديد . وارتج علي ، فلم أنبس بينت شفة .
ولم يكن ارتباك . أحمد ، ومفاجأته . بأقل مني ، ولكنه
سرعان ما تمامت نفسه واستعاد رباطته . ونهض واقفاً وتقدم
إلى أبي مصاحفاً إياه .

ورد أبي على تحيته في اقتضاب ، ثم وجه القول إلى :
— زكي باشا سيزورنا الآن هو وابنته . . استعدى
للقائما .

ولم يقل أكثر من ذلك ، ثم أدار ظهره ودلف إلى الدار .
ولم يكن المنظر الذي وجدنا فيه أبي بالمنظر الذي يستدعي
كل هذا الخجل والارتباك . . فقد كان لا يزيد على أن يكون
هواً بريئاً . ولكنني كنت أعلم أن أبي لا يستسيغ بسهولة
مثل هذا اللهو . . وإلى لاشك سألني من لومه وتقريعه

الشيء الكثير .. وقد تكون نتيجة تضيق الخناق على ..
وعصاة من ناحية أحمد .

وأحسست بسحابة غم .. نعم نسي .. ولكنها سرعان
ما انقضت عندما تذكرت ترقية أحمد ونقله إلى الحرس ..
وإقدامه العاجل على خطبتي .

لو ضبطني أبي قبل اليوم لرأيت في ذلك فاجحة كبرى ..
أما اليوم فإن آمالي في المستقبل أضحت كفيلة بأن تعرف
في تيارها كل عقبة هم ، وكان فرحي طاعياً .. يتضاءل بجواره
كل حزن وغم .

ووقفت أمام أحمد بعد أن انصرف أنى إلى داخل الدار
وقد أفعمت نفسي بخليط من مشاعر مختلفة .. وأنصرت
في وجهه سخابة هم .. لم أشك في أن مبعثها .. هو زيارة
ركي بلنا التي أبأتى بها أنى .

ومددت يدي أشد بها على يده وأقول له في ثقة وإيمان :
— أحمد .. لا تدع هذه الحشائش الطفيلية تفسد علينا
زهور حياتنا .. ما دمتنا واثقين من أنفسنا .. فدع الرياح تمر
من فوق رؤوسنا .. دون أن تقتلع جذور هوائنا .

وسرنا سوياً حتى بلب الحديقة وقلت في شبه مجاملة :
ألا تبقى قليلاً ؟

— لا .. إلى أفضل الانصراف الآن .

— ومتى ستعود ؟

— سأعود غداً لمقابلته .. أى الأوقات أنسب للحضور

— تعال فى الخامسة .. بعد أن يستيقظ من نومه ..

وقبل أن يخرج .. أظن هذا هو أنسب وقت .

وانتجه أحمد إلى الخارج ودلفت إلى الداخل .. وصعدت

إلى حجرتى لأبدل ملابسى ولاستعد للقاء الضيوف .

وساءلت نفسى فى ذهنى : ماذا حدا بهم إلى هذه الزيارة ؟

بل ماذا دفعهم إلى الحضور إلى مصر .. مع أنى كنت أتوقع

أنهم مازالوا فى الإسكندرية ؟

وأنتمت ارتداء ملابسى .. ورأيت صاحب بئى

الأفكار .. وفى نفسى فرحة ظاهرة .. وخوف خفى ..

وأمل واضح .. وياس بهم .

وسمعت صوت عربة تقف بالباب .. ودق الجرس ،

فهبطت لاستقبال الضيوف .

وقطعت الباب وأصأت الأنوار ، ووقفت وأبى متأهين

للترحيب .. وأقبل « صاحب الدولة » من نسختين .. السحرة

الرجال .. والنسخة البناني — أعنى هو وابنته — وحمدت الله

على أن « توتوبك » لم يكن معهما .

وجلسنا فى حجرة الاستقبال .. وجرى الحديث بيننا

تأبياً ملاً . . . وتحدث أبى مع . صاحب الدولة ، عن أسرار
البورصة ، والقطن ، والحرب المأدمة ، وعن موقف تشمبرلين
مع هنر ، وعن نجاحه فى إقرار السلم الموقت .

وانطلقت « سوسو » تخوض فى ميرة الناس ، فلم تترك
امراً إلا نهشتها بلسانها . . فأمأتى أن ابنة فلان باشا ذهبت
إلى النمسا ووقعت فى غرام أحد الموسيقين ، وأن زوجة
الوجيه فلان بك تخونه مع صديقه فلان باشا .

ثم انتقلت من النهش فى أعراض الناس إلى أخبار السباق
والجوكية والأزياء . . إلى الفرقة الفرنسية التى ستعمل فى
الأوبرا فى العام القادم . . وتساءلت : لم لا تحضر عنبراب
الفرق الأجنبية حتى ترقى الذوق المصرى وتهديه ؟

وأحسست من حديثها باشمزاز شديد ، وقلت لها بهدوء :
— إن الذوق المصرى له طابعه .

— طابع مشوه فاسد .

— أنت مصرية ؟

فأجابت وكأنها تنفى عن نفسها تهمة :

— أنا لست مصرية . . إن جدى لأبى ينحدر من سلالة

تركية عريقة الأصل .

— لأجل هذا نكرهين المصريين ؟

- أنا لا أكرهم .. ولكنى أرتى لهم .
 وتواترت على ذهنى إجابات مختلفة همت بأن أقذفها بها
 ولكنى تذكرت أنى وتذكرت أنهم ضيوف عندنا .
 وقلت محاولة تغيير مجرى الحديث :
 - الحرارة شديدة فى هذا الصيف .
 - وكل صيف .. إن مصر لا تطلق .
 وشعرت أنى لا أستطيع تحويلها عن التعريض بمصر ،
 فقلت متسائلة فى سخرية :
 - وما الذى يقيبك فى مصر ؟
 - لولا تلبد الجو السياسى لكنا فى الخارج ككل عام ،
 ولولا بضعة الأشهر التى نفضيها فى الخارج كل عام .. لما
 أحسنا أننا نجيا .. نحن هنا فى بلد الأموات ، بلد المقابر
 والموميات .. أليست هذه من أكبر مفاخرنا ؟
 ولم يمكنى نهوض أيتها وأستعداده للخروج من الرد
 عليها .. وانهمكنا فى التحيات .. وفى الترحيات ، وخرجنا
 لوداعهما .. حتى استقلا العربية .. وتحركت بهما .. وهما
 يشير أن لنا بأيديهما .
 وحمدت الله على انتهاء الزيارة .. فقد كنت فى أشد الحاجة
 إلى الهدوء والراحة ، وإلى أن أحلو بنفسى .. فأفكر فى

الآشياء التي حفل بها يومى ، والأحداث الخطيرة التي توشك
أن تقع فى الغد ،
ترى ماذا يكون رد أبى ؟ هل يمكن أن يخيب أملى ؟ هل
يمكن أن يرفض ؟

ولكن .. أى عيب يمكن أن يجده فى أحمد ؟ هذا المخلوق
التمودجى . هذا الإنسان الكامل ، الجميل الخلق والخلق ،
الطيب الطاهر والباطن ، الخلو الحديث ، اللطيف المعشر ،
القويم المبادئ ، المستقيم السلوك ، المحدث فى عمله ، المخلص
فى كل تصرفاته . إنسان ذو المركز المشرف والمرتبة المحترمة ،
وهو بعد كل هذا أقرب الناس إلى .. فهو ابن خالى ،
وصديق أخى .

لا .. لا .. لا أظن أبى إلا مرحباً به ، محبباً له إليه .
إن أبى رجل صارم قاس .. فهو يقسو على حتى يضمن
لى حسن المصير وطيب المال . وأى مصير يمكن أن يكون لى
أحسن من زواجى بأحمد ؟ إن صرامته وقسوته فى معاملتى
وتريقى .. كان يقصد بهما أن يقينى الفساد ، ولا أظن الزواج
من الفساد فى شيء .

وهكذا استطعت أن أطعمن نفسى وأهدى قلبى .
وذميت إلى الفراش ، وأغضت عيني ، ونمت قريحة .

واستيقظت في الصباح وقد خطر لي خاطر .
 لمَ لا نحاول أن نستعين بجدتي . . ولمَ لا أخبر أحمد بما
 قاله حتى يوسطها لدى أبي .
 ومضى النهار وأنا حائرة قلقة ، ولا أكذبكم القول أني
 صليت لله لكي يستجيب طلبي . وكنت أنظر إلى الساعة بين
 آونة وأخرى أستحشا على السير حتى تبلغ الخامسة . وازدردت
 غذائي دون أن أتذوق له طعما .
 وفي الخامسة إلا ربعا . . دق الجرس ، وهبطت لأنح
 بنفسى ، فقد كنت واثقة من أن الطارق هو أحمد .
 ولقيته وأنا في حالة شديدة من الاضطراب والقلق . وقلت
 له هامة : اعرض الأمر على جدتي ، ولكنه أجاب :
 — دعني أسلك أقصر السبل . لا داعي للقف ، ولالو ساطلة .
 سأخاطبه كرجل لرجل . أنا لم أعد بعد صغيراً . ما دمت تريفني
 أستحقك وأستحق حبك . فإن ذلك يملؤني ثقة بنفسى
 واعتداداً بقدرى .
 — أمرك يا أحمد . ربنا يوفقك . إنني أحس بقلق شديد :
 لقد صليت لله ألا يخذلنا ، وقرأت الفاتحة مائة مرة .
 وضحك أحمد وشد على يدي . وممس :
 — اطمئني يا عايدو . أين هو ؟

- إنه يرتدى ملابس وسبب حالاً .. سأصعد أنا إلى
غرفتي حتى أبدو كأنى لا أعرف شيئاً عما أتيت من أجله .
انتظره هنا حتى يهبط .
انتظر أحمد فى الصلاة ، وصعدت إلى الطابق الأعلى ، وقلبي
يدق بعنف حتى ليكاد يقفز من بين أضلعي .

وسألتني جدتي :

- من ؟

- أحمد .

- ولم تركبته وحده ؟

- إنه يريد أبى .

- يريد أباك ؟ إذا ؟

ورفضت كفتي قليلاً وأجبت متجاهلة :

- لا أدري .. لم يقل لى شيئاً .

ولم تطل تلك الأكذوبة على جدتي . فقد كانت هى نفسها

تدري ، لأنها هزت رأسها وتمتمت فى صوت خافت :

- ربما يرفقه .. ويجعل لكل منكما نصيباً فى الآخر .

واذعيت أنى لم أسمع ، واتجهت إلى حجرتى ، وخرجت

إلى الشرفة ثم عدت إليها ، وارتيمت على الفراش ، ثم نهضت

بعد لحظة وعدت ثانية إلى الشرفة .. لقد كنت على حال

من القلق لا أستطيع معها أن أستقر في مكان .

وسمعت بعد ذلك وقع أقدام أبي نهبط الدرج إلى الطابق
الأسفل ، ورادت دقات قلبي عنفاً . . ثم سمعت صوت أبي
يحياه قائلاً :

— أهلاً .. أحمد .. أنت هنا .. كيف الحال ؟

— الحمد لله يا عمي .

— أرى على كفك نجمتين .. مبروك .. لقد ترقيت

بسرعة . منذ متى ترقيت ؟

— الله يبارك فيك .. ترقيت بالأمس فقط .

— عال .. عال .

وسادت فترة صمت قصيرة كنت أحس فيها مدى ارتباطك

أحمد .. وأدعو الله أن يعينه . وأخيراً سمعته يقول :

— إني أود أن أحدثك يا عمي في موضوع خاص ..

أستمع لي ؟

— بالطبع .. إني على موعد الآن .. ولكي أستطيع أن

أستمع إليك برهة .. تعال .

وسمعت وقع أقدامهما يتعد ، وبدا لي أنهما قد انجها إلى

حجرة الصالون .

ولم أعد أسمع شيئاً ، وأحسنت كأنني أنقلب على جبر

الغصا من فرط القلق والاضطراب وتوتر الأعصاب .
وأخيراً سمعت وقع أقدامها مرة أخرى يسيران في
المسألة .. ثم يتجهان إلى الباب الخارجى ويهبطان الدرج ،
وأسرعت إلى الشرفة فوقفت يبابها ولحمت ظهرهما وهما
يتجهان إلى العربة ، ثم ركب أبى بعد أن نصالحا ، ورأيت أحمد
يسير في طريقه والعربة تتحرك في طريقها .

ترى ماذا حدث ؟ ، كيف كانت النتيجة ؟
وظلمات أتبع أحمد بعصرى وهو يتعد .. أحاول أن أفرا
من مشيته ومن هيكله ما أستشف منه دجلة نفيه .. وأعرف
منه مقدار فرجه أو يأسه .

أنى مشيته تناقل ؟ وفى خطواته تباطؤ ؟ .. أنى كتفيه
تهدل ، وفى ظهره انحناء ؟ أنى رأسه طائفة .. وفى هامته
خطض ؟

ماذا قد حوى هيكله المتباعد : أهباء وأمل ، أم شقاء
وبأس ؟

لئن مشيته هى .. مرفوع الهامة ثابت الخطى .
وهيكله هو .. بارز الصدر ، عشوق القوام .
أيمكن أن تكون هذه المشية المتزنة ، والهيكل الأشم ،
لإنسان خائب الأمل ، مهبط الجناح ؟

لا.. لا.. إن أبي لاشك قد أجابه إلى مطلبه .. وإن أمنية
العمر لا بد أن تكون قد تحققت
ولكن لم لم يصعد إلى لينبئني ويحتضني ويرف إلى
الهدوء؟

لعله قد شغل من أبي .. أو قد فضل أن يجعل تصرفه
وسمياً ، وأن ينتظر حتى ينبئني أبي ،
بالي من سحفاء .. لقد جرى العرف في هذه الأمور بأن
يوافق الأب مبدئياً .. على أن يؤجل البت حتى يأخذ رأي
الابنة .

أجل .. إن أبي لابد سيعرض علي الموضوع ويأخذ
رأبي فيه .

حقيقة إنني أعرف أنني لا رأي لي عنده ، ولكنني أظن
أنه سيأخذ رأيي من باب الشكليات ، وإن كان سيفرر أولاً
مصري فيما بينه وبين نفسه .. ثم شركني أختار كعادته دائماً
على أن أختار .. ما يريد هو ، وإلا أرغمي عليه .. هذا هو
ما تعود أن يفعله في كل شيء ، فمن الأولى أن يفعله في مسألة
خطيرة كهذه .

لأنه سيعود ليلاكعادته ، ثم يتناول العشاء ويقول لي إنه
يود أن يتحدثني في أمر هام ثم يبدأ بالمقدمات الطبيعية وهي

انى قد نمت ونضجت ، وأنه يود أن يفرح بى ويطمن على
رأن سعادة الفتاة تتوقف على أن تجد الزوج الملائم .
تلك هى المقدمة التى لا بد أنه قائلها .

وأخذت أصور لنفسى بعد ذلك . . كل ما سيقوله
كلمة كلمة . . وحرفاً حرفاً . . وكل ما سيبألى عنه . .
وأجيبه به .

ثم يهرج بعد ذلك إلى الموضوع مباشرة فيخبرنى أن
« أحمد » قد طلب منه يدى ، وهو يرى فى أحمد خير إنسان
يصلح لى ، ويحدثنى عن رأيه فى خلقه ، وينبئنى أنه قد عين
ضابطاً بالحرس ، وينتهى إلى النتيجة بأنه شخصياً موافق على
قبوله ، ولكن يترك لى حق الاختيار .

وأطأطأ : أنا الرأس خجلاً ، وأرتبك وأتلعثم . . ثم أقول
له كما تعودت أن أقول دائماً :

— أملك يا أبى .

وسيجيبنى كعادته :

— على خيرة الله .

ثم ينهض ويقبل جيبى .

واعجباً ! أية فنانة ماهرة كنت إذ ذاك وأما أجلس على
نراشى ، وأصور لنفسى كل تلك التفاصيل والدقائق وأرسمها

حسبما أشتهى فأنا له بها أمتنى وأنتهى منها إلى أنى قد أصبحت
فعلا خطية أحمد .

وأفقت من أوهامى راضية .. مغتبطة .. تماما كأن
ما صورته قد حدث .

ولكنى عدت أسائل نفسى :

— لم لم يحاول أحمد العودة لإخبارى ؟ يا له من أناقى ،
يا بى إلا أن يخص نفسه بالغبطة .

ألم يكن من الواجب عليه .. على الأقل .. أن يحدثنى
بالتلفون ليطمئن قلبى ؟

من يدري ربما سيتحدث بين آونة وأخرى .

وليئت أرقب التلفون ، وأعدو إليه كلما دق ، ويبدو
أنى لم أستطع أن أخفى قلقى واضطرابى .. فقد سمعت صوتى
تنادينى ، ثم تأمرنى بالجلوس إلى جوارها وتضمى إليها ،
وتحس رأسى بحنان ثم تقول لى :

— يا بنتى .. لا تأمنى إلى العذر . كوني قوية وشجاعة ،
هوذى نفسك الرضا بلو افع واقبل مانعطين ، لا تسكثرى من
الآمال ، فوطيفة القدر هى أن يخيب آمالنا .. حاولى ألا تعطيه
الفرصة للشكاة .. لا تطالبى شيئا ، بل انتظرى حتى يعطيك هو
وابتنسى شاكرة حتى يخيب أمله بدل أن يخيب هو أملك .



قیدِ قید

الكثير من حديث جدتي المتشائم وتحذيرها
لم أفهم من القدر الشامت والآمال الخائبة ، فما كان
لديّ أمل استعداد لقبولها . . أو التفكير فيها .

كيف تصحني الآن . . وآمالي توشك أن تتحقق ؟
ساعة ، أو جزءاً من ساعة ، ويأتي أبي فيقطع الشك
باليقين ، ويجعل من الأحلام حقائق واقعة ، ومن الآمال
وقائع ملموسة محسوسة .

بل ما أظن بي من حاجة إلى الانتظار ، فقد سمعت في تلك
اللحظة صوت بوق عربتنا يدوي من بعيد ، وكانت نفسي
محصزة للانتظار ، وكنت مرهفة السمع متوثبة الأعصاب .
وأغلق باب العربة ، ثم دق جرس الباب ، وجلست في
مكاني لحظة . . غافقة القلب ، واجفة الفؤاد ، ثم سمعت وقع
الهدام أبي يصعد في الدرج ، وأقبل علينا على غير عادته ، وبه
خفة غير خافية ، وقد علت وجهه بشاشة لم تتبها فيه .

وكان يحمل في يده صندوقاً من الشيكولاتة ، وضعه على
المنضدة ، وأخذ يسأل جدتي عن أسنانها ، وعن صحتها ،
وانتظرت أن يطلب تجهيز العشاء ولكنه لم يذكره ، بل استمر
مفوض في أحاديث غابرة تافهة جعلتني أوجس خيفة رقت له :

— أ أمر تجهيز العشاء ؟

لقد كنت أبني أن يسير الأمر حسب ما تخيلت . .
وأن يتم عشاءه ، ثم يحدثني في الأمر الطام
ولكنه هز رأسه وأجاب :
— ليس الآن .

وتحيت لو استطعت أن أخترق حجاب رأسه أو لو كانت
لدى المرأة الكامنة لأسأله صراحة . . ماذا قالت لأحمد ؟
ومضت فترة خلتها دهرأ . . وهو يتحدث عن مسائل
عالية في الثقافة ، أو هكذا بدت لي بالنسبة لما كان يشغل
رأسي ، حتى بلغ في اليأس منتهاه ، واعتقدت والإسى على
نفسى بأنه لا بد قد رد أحمد غائباً ، وأنه لا ينوى أن يذكر
شيئاً عن الموضوع .

رحمت بمنادرة الحجر . . عندما رأيته يرفع إلى رأسه
ويقول :

— عايدة . . لي عندك بعض الحديث .
وأصابتني رجفة هزتني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي . .
وتوقفت في مكاني والتفت إليه وأنا لا أكاد أتمالك وقلت :

— نعم . . .

— اجلسي . . .

وجلس على مقعد أمامه . وقد اضطلعت جدتي على
أريكة طويلة ، وجلس هو على حافة مقعد وقد استند بمرصقه
على ذكته ، وبذقته على راحه كفه .

وبدا قوله في صوت هادي . وطبقة مرتبة :
— لقد أصبحت الآن فتاة كاملة ، وقد أثمرت فيك
تربيتي . . حتى بت أشعر بالاعتزاز بك .
وأخيراً . . تحدث .

أخيراً . . بدأ مقدمته . تماماً كما توفعت ، نفس الكلام
الذي صغته لنفسى .

وكما تصوّرت أيضاً . . أطرقت برأسي في خجل شديد
وأحسست بلساني يعقد . . فلم أسس ببنت شفة .

ولم أع من مقدمته شيئاً كثيراً . . قد كنت أتجمل
النهاية . وأمتيق بفكري الفاضله ، وتمنيت لو يوفر على نفسه
مشقة المقدمة ، ما دمت أما نضى أحفظها عن ظهر قلب .

النهاية . . لقد اجتزاها بسلام . . وسمته يقول أخيراً :
— ولقد كنت دائماً أتوقع لك وأنت خير الفتيات . .
زوجاً ملائماً يضمن لك أحسن العيش ويجعلك سيدة الناس .
وصمت برهة اضطلع خلالها بظهره على ظهر المقعد وغير
من جلسته موضع ساقاً على ساق . . وأتم حديثه قائلاً :

— ولقد وفقني الله إلى إنسان لا أعتقد أننا يمكن
أن نطمع في خير منه .

وقلت لنفسى :

— أجل . . ليس هناك في الدنيا خيراً منه .

واستمر هو يقول :

— وأنا نفسى موافق عليه . ولكنى رأيت قبل أن أعطى
كلمة حازمة أن أستشيرك في الأمر ، وأعرضه عليك حتى أضمن
أهلك قريرة راضية ،

وكنت أقول له إنى راضية كل الرضا ، بل إنه لا يرضينى
في الحياة سواء .

ولكن الحياة ورهبة الموقف عقلاً لسانى ، فاستمررت
مطرقة الرأس ، مطبقة الشفتين ، منتظرة حتى يكمل حديثه
أو يشرح لى ما حدث بينهما .
وبداً شرحه قائلاً :

— لقد حدثنى اليوم زكى بلشا فى التليفون وأنبأنى أنه
سيحضر لزيارتى فى المكتب بعد الظهر ، لأمر خاص ، ولم
يغب عن ذهنى ما يعنيه بذلك الأمر الخاص ، فقد لمح لى به
مرة من قبل .

ورفعته عني أحلق فيه فى ذهول شديد .

ذكي باشا !! ما دخله في الأمر .. وما الذي أفعه
في الموضوع ؟

واستمر أبى في حديثه وهو يهز ساقه بهدوء :

— رقى الساعة السادسة .. حضر إلى مكتى ، وأبأني
بعد مقدمة قصيرة أنه طالما أعجب في وبصاميتي ، وأنه
يشرفه أن يتاسى .. وأنه من المرات القلائل اللاتي أبصرته
مها .. استطاع أن يحزم أمك فتاة كاملة .. هادئة الطبع ،
جميلة الخلق ، طيبة النفس .. فضلاً عن جمالك الذي لا يضارع
وأنه من بين كل من رأى من بات معارفه وأصدقائه
وأقاربه لم ير خيراً منك ولا أصحح ، وأنه يسره جداً أن
يطلب يدك لأمه ، واستمر الباشا في مديحه حتى أخجلتني ..
ولم أجد ما أقول له سوى أننا لستاه قد المقام ، وأنه يشرفنا
بظليته وبنسبه .

والتي على أبى فطرة فاحصة يستشف بها دخيلة نفسى .
ولا أظننى في حاجة إلى أن أشرح دخيلة نفسى
وقتذاك .. ماذا أقول ؟ .. وقد كنت أشبه ينان رفموه
إلى هام السحب ، ثم تركوه يسوى إلى قرارة الأرض
فتأثر حطاماً .

لقد كنت في حالة لا تساعدنى حتى على الألم .. كنت

مشدومة مذهولة أحس كأنى واقعة تحت تأثير كابوس
بحيف ، وأن ما حولى إيس من الواقع فى شىء .
وأدهش أبى ما أصابنى من وجوم وإطراق ، واستمر
يتم حديثه قائلاً :

— إتنا لم نكن نحلم قط بمثل هذا النسب ، ولا أظننا
نطمع فى أفضل منه ، بل ما أظن أن هناك أفضل منه ، طيبة
أصل ، وعراقه بخند ، ومال وجاه وسلطان ، وشباب بضر
ومستقبل مزدهر . . إن ، تهاى بك ، أمامه مستقبل حافل ،
أمامه الالتحاق بالسلك السياسى ، وأمامه الحياة الياية ،
ولمناصب الوزارية . . غداً يسلك طريق آيه ، فالمناصب
العلاشيه وراثية ، و زكى باشا ، يحتمل أن يعود إلى الحكم
فى أول انقلاب يحدث ، فإن الصحف تجمع على أنه رجل
الساعة . . .

• • •

أى صحف يهمنى به هذا الأب الأبله ؟ ماذا يهمنى أنا من
عردة ، زكى باشا ، إلى الحكم ؟ أى مستقبل حافل ينتظر
ابنه الثاقه الذى لا يصلح لشيء ؟ أى سلك سياسى هذا الذى
يرجون فيه بهؤلاء الرقعاء ، الذين إيس لديهم ذرة من الإيعان

ببليد ١٩؟ وأي ماصب نيابة ، وأي مراكز رفيعة يضعون
فيها هذه الأصنام المسوخة ؟

مالي أبأوماله ؟ ! ليكن من يكون ، وليعد أبوه إلى
رقاسة الوزارة ، أو ليذهب إلى الحجيم .

إني أريد أحمد . . ماذا فعل معه ، وماذا قال له ؟

ووصل إلى صوت الأب كأنه صوت ناع يأتي من

جوف قبر :

— لقد وقفنا الله إلى خير نسب . . إني شخصياً جد

موافق . مارأيك أنت ؟

ووجدت صوتي ينبعث متحشراً في صدري ، بالرد

التقليدي الذي لا أملك غيره ، وكأن إنساناً غريباً هو

الذي يتحدث :

— أمرك يا أدي .

ووصل إلى رده الأخير . . تماماً كما توقعت :

— على خيرة الله .

ثم نهض فطبع على جبينه شبه شكلية ، وغادر الغرفة .

يا للسخرية ! ! لقد بدا لي أن لقدّر يقفراء على آخره

وبمقته ساخراً ، وتذكرت قول جدتي : لا تكثري من الآمال

فوطيعة القدر هي أن يخيب آمالنا ، فحاولي ألا تعطيه الفرصة

للشهادة بك .. لا تطلبي شيئا .. انتظري حتى يعطيك هو
وابتسمي شاكرة حتى نخبي أمه ، بدل أن يجيب هو أمك ، ..
كيف أستطيع ؟

كيف يمكن أن آخذ ما أعطى ، وأبتسم شاكرة ؟ كيف
يمكنني أن أرضى بذلك الزبد الذاهب جفاء ؟ كيف يمكنني
أن أستبدل بجمال الجوهر زيف القشور ، وبالبث فاراً ،
وبالفدير الصافي مستنقماً قندراً ؟

كيف يمكنني أن أعيش مع هذا التائه ، الفارغ الرأس ،
الحاوي النفس ؟ كيف يمكنني أن أعيش بلا أحد ؟
وسمعت صوت جدتي تتمن قائلة :

— أيها الأحق .. ستودي بها إلى مصير أمها .. إن
ذنبها في عنقك .

ونظرت إليها فوجدت وجهها شاحباً متجهماً ، وبدأ لي
صدرها أقرب ملجأ ألذ به ، فارتيمت بين أحضانها وانددت
في نوبة من البكاء .

وبعد برهة سمعت صوت أبي يناديني للشاء ، وكان
صيراً على أن أمالك ، وأن أخني مشاعري ، فهيمت لجدتي
وبالكاء يخفقني :

— قولي له إنها ذهبت لتام ، لأنها تحس صداعاً .

وربقت جدتي على ظهري وأجابت بحنان :
— ادهى إلى فراشك . . كفكفي دمعك ، وتجلدى .
ذلك هو كل ما قلته لجدتي وقالت لي . . لم تتحدثي
بأكثر من ذلك ، ولكني لم أشك في أنها تدرك كل
مشاعري وتفهم كل ما بي .
ولكن ماذا في وسعها أن تفعل ؟
أنا أعرف أبي . . كما تعرفه هي ، ويعرف كلاماً أنه
لا فائدة هناك من مناقشته .

ثم أتى لا أجسر أن أقول إنى لا أريد فلاناً لأنى أحب
فلاناً . . إنى لا أجروقط أن أقول إنى أحب . . حتى جدتي
نفسها لم تصرح لها بشيء . بل فهمت كل شيء من تلقاء
نفسها ، ولم تحاول مرة واحدة أن ترحنى بالسؤال
أو النقاش أو الخوض في مشاعري نحو أحمد .
لقد كنت أستطيع أن أتحمّل كل شيء إلا أن أقول
لأبي إنى أحب .

وفكرت في أخى . . وقلت إن علياً صديق لأحمد . .
ويستطيع أن يفهم إحساساتنا بسهولة .

ولكن ما الفائدة ؟ ما دام لن يستطيع التأثير على أبي ؟
لقد كنت أحس أن بين الاثنين هوة عميقة . . وأنها على

اختلاف بين في كل شيء . . ليس بين أحدهما والآخر
أى تشابه في المشارب أو تقارب في الأهواء . . كان أخى
إنساناً عاطفياً رقيقاً ، مرهف الحس ، وكان أرى لا يعترف
إلا بالذهب المادى ، ولا يقدر إلا الشيء الذى يستطيع
أن يحسكه يده . . ولا يفهم إلا أن الحياة المال ، والمال
الحياة ، وأن النقود هى كل شيء . . هى التى ترفع إلى
السماوات السبع . . أما سواها فأوهام باطلة .

إن أخى سيفهمنى كما فهمتى جدتى ، وكما يمكن أن يفهمنى
أى إنسان له قلب لم يقد من صخر . . إنسان يدرك أن فى
الحياة أشياء غير المدة الملبوسة ، وأن الجسد البشرى يغذيه
شيء غير الماء والطعام والهواء . . شيء يسمى الحب .

ولم يكن لن تقنعه هذه الحرافات ، ولن يسمح لأحد بأن
يضيع فيها وقته .

ليس هناك فائدة . . لقد وقعت الواقعة ، ولم يعد أمامى
سوى الاستسلام . . أو الانتحار .

ولكنى كنت أجن من أن أفكر فى الانتحار ، أو على
الأصح ، أشجع من ذلك . . إن الانتحار لا يعنى سوى قتل
الجسد ، ولكنى صممت أن أقتل الروح والقلب والشاعر

ولا أبق منى سوى جهد بلا حس ، ليفعلوا به ما شاءوا
وما لجرح بميت إيلام . .

لقد كان الخطأ خطئ من بادية الأمر . . أما الذى
تركت نفسى تتردى فى هاوية الحب . . وتركت إرادتى
تتهوى ومقاومتى تنهار . . لو لم أنزلق إلى هاويته لكنت
الآن سيدة نفسى . . ومالكة مشاعرى . . أسخر من كل
شئ . . وأتلقى ضربات القدر وكأنى درع من النحاس . .
لا يجيب إلا بالزئير . . تلعطه فيرن ، وتداعبه فيرن .

لو لم أطلق لمشاعرى العنان لاستطعت أن أفقد نصيحتى
جدى ، فانتظرت حتى يمتحنى القدر أنفه ماعنده وتقبلته
شاكراً ساخرة . . وخيبت أمه قبل أن يخيب أمل .

ولكن لم هذا الخلط من الظروف الماسجة ؟ ألم يجد
بين فتيات مصر جميعاً . . من يضعها فى طريق ابن صاحب
الدولة ، الهمام . . سوى ؟

إلى أجزم أن الملايين منهم يتمسك لو كر مكانى ، وإنهم
سيعتبرونه دلفطة ، كبيرة . . فلم لم يختر واحدة منهم . .
ويعتقنى أنا لوجه الله !

إنه أرادنى لآلى لا أريده ، ولو أردته لآله على الظروف .
ومكنا الظروف تآلى إلا أن تهب لنا ما لا نريده .

ولم أذهب بعيداً .. وأنا ما حاولت قط أن أتطرق
الأوتويس (رقم ١٤) في محطه مصر لكي أعود إلى بيتنا
في حدائق القبة إلا ورأيت الأوتويس (رقم ١٠) المذهب
إلى مصر الجديدة .. تتواتر على العربيه قلو العربيه .. دون
أن يبدو (رقم ١٤) أى أثر ، وفي المرة الوحيدة التى أردت
أن أذهب فيها إلى مصر الجديدة اختفى (رقم ١٠) وأقبل
(رقم ١٤) يتوالى الواحد بعد الآخر .
إذا كانت الظروف تعاكسنا فى الأوتويسات ، أفلا يحق
لها أن تعاكسنا فى الأرواح ، هتملنا غير ما نشتهي .
ما علينا ..

لقد قضيت ليلة سوداء .. نباحي فيها المضجع ، وجفاني
المرقد ، فلم أذق فيها للنوم طعماً . وعندما أجهلنى السهر قيل
الفجر ، استسلمت للنعاس ، قرأت فى المنام أنى وأحمد كلانا
يركب زورقاً يخوض به عباب اليم ، وأنه كلما حاول أحدهما
الاقتراب بزورقه من الآخر ، قذفته الأمواج بعيداً ، وأحيراً
وبعد أن أصابها الإعياء ، استطاع أن يقترب منى بزورقه ،
وسألنى أن أفز إليه ، ومدّ لى يده فأمسكته يدي ، ووثقت
على حافة الزورق ، وهممت بالفقر إليه عندما علت موجة
عالية آمدت الزورقين ووجعت نفسى أهوى فى اليم وقد

جذبتني معي، وأخذنا لغالب الموح سويًا، وقد تشابكت أيدينا،
حتى غلبنا على أمرنا وهوننا إلى القاع .
واسقطت فرعة مرتاعة، وأما أحسن أني منكم محطمة .
وأخذت أنبليل كأن رأسي قد ألجبه حتى خبيته .
وأقبلت على جدي فجلست بجواري ، وضعتني إليها ،
وقالت في صوت حنون :
— لا تيأس يا بني .. لا تفقد الأمل .. سأحاول معه
ما استطعت .

— لا فائدة .. لا تقول له شيئاً .
وبقيت في الفراش ذلك اليوم حتى العاشرة ، ثم تركته
أخيراً وكأنني قائمة من مرض أفعدني أشهراً طوالاً .
وعند الغداء تحاملت على نفسي وهبطت إلى الطابق الأسفل
وانتهى الغداء دون أن يتبس أحدنا بيفت شفة .. وقبل أن تترك
المائدة قال أبي :
— زكي باشا دعانا إلى الغداء في عزبته بكر ، وسنذهب
من الساعة العاشرة لنقضي هناك اليوم بأكمله .
ثم وجه القول إلى أخي :
— أنتحضر معنا ؟
وهزّ أخي رأسه بالرفض وأجاب باقتضاب :

— إلى مشغول غداً .

وقال آبي في لحظة زاحرة :

— إنه يوم خطبة أختك !

ورفع « علي » حاجبيه ، ونقل بصره بين كليسا في دهش
ولم يرد على قوله :

— حقاً ؟ .. مبروك يا عايدة !

وتتمت بوضع كلبات مدغمة خاتمة ، قصدت بها ، الله
ببارك فيك . .

وتركها المائدة ، وصعدت إلى غرفتي وقبعت فيها كأتى
كومة عظام .. أمكذا قضى الأمر ؟ ووقعت الكارثة !

ورفعت عيني المبللتين بالدمع إلى السماء وسألتها الرحمة !
وخطر لي خاطر أحسست منه بشيء من التشجيع والعزاء .
ونصت إلى « انغام » فتوحات ، ثم أغلقت حجرتي وبدأت
الصلاة .

وأخلفت أركع وأبجد ، وذهني شارد ، ونفسي واهنة
ودعوت الله أن يهب لي معجزة تنقذني مما أنا فيه .

وانتهيت من الصلاة . . دون أن يحدث المعجزة ، ولكن
تملكني شعور بالهدوء والاستلام ، والسكينة الناتجة عن
البأس وعن الإحساس بالعجز ، وبأن هناك قوة أعلى تحكم

في معايرنا... وأما لا نملك إلا الخضوع لها ، والرضا
بحكمها...

ودق جرس التليفون ففادرت حجرتي للرد عليه..
وأمسكت بالساعة في الوقت الذي رأيت فيه أبي يغادر الحجرة
وقد أتم ارتداء ملابسه استعداداً للخروج.

وسمعت في التليفون صوتاً.. أحدث في جسدي رجفة..
لقد تحدث أحمد أخيراً.. ولكن في وقت غير مناسب..
ورفعت عيني خلسة فأبصرت أبي ينظر إليّ متربحاً..
وقلت متجاهلة صوت أحمد:

— آلو.. مين يا فتدم؟

— أما أحمد يا عابده.. أريد أن أتحدث معك قليلاً.
وأصابني ارتباك شديد.. ولم أدر بماذا أجيبه.

ورغم أني كنت أنلهف على سماع صوته.. وعلى عادته
ثابتي لم أستطع أن أقول أكثر من:

— لا.. ليس الآن.

ورأيت أبي يهز رأسه مستفسراً ويتساءل:

— من؟

وخفضت الساعة قليلاً.. ثم قلت له:

.. أحمد يسأل عن.. علي..

ثم قلت في الساعة :

— إنه غير موجود الآن .. لقد خرج .

وانتظرت برهة لم يجب خلالها أحمد بكامة واحدة ..
وسمعت الخط يفتق .. فوضعت الساعة بكون وعدت إلى
حجرتي .

وأحسست بهوم الدنيا كلها قد أثقلت كاهلي وأنقضت
طهرى ، وبدأ لي أن الظروف قد ناصبتني العدا .. حتى كلمات
مسلية في التليفون قد أبتها علي .

وكنيت أعرف أحمد تماماً .. وأعرف كبريائه وقوة
إرادته ، وقدرته على كبح جماح نفسه وعلى تحمل أحزانه ،
وكنيت واثقة من أنه لن يخطو إلى دارنا بعد أن خذله أبي ، وأنه
سيترفع عن الحضور إلينا مهما كلفه ذلك من مشقة وحزن .

كنيت أعرفه صبوراً ، شديد الجلد .. وكنيت واثقة من
شدة حبه لي .. ولكي كنت أعرف كذلك أنه لا ينحني
ولا يظأطىء رأسه ، وإنه لا يذل نفسه ، بل يكتنم لوعته ويكبت
حزنه ، وكنيت أعرف أن أقصى ما سيفعله هو أن يحدثنني
بالتليفون ليبتني بما حدث وليعرف رأيي في الأمر .

وكنيت أتلطف على مكالمته .. لا لأن لدى ما أقول ،
ولا لأن لي رأياً في الأمر أود أن أعلنه به . فقد كنت أشعر

أني بلا رأى ولا حول ولا قول .. وأني أشبه بالشاة ..
لا تملك إلا أن تسير إلى مصيرها المحتوم ، وأن تمثل صاعرة
إلى مدينة القصاب .

لم أكن أنلهف على مكائته .. لأني أود أن أدر أماً أو
أرم خطرة ، بل كان كل ما أوده .. أن أسمع صوته .. وأن
أستعين منه بكلمات تعينني على السير في القفار الموحشة التي
أوشك أن أخوض غمارها .. ونكون زادي في الفرقة
وسلوق على البعد والوحدة والوحشة .

وأدركت أنه لن يحاول — بعد ردّي عليه في التليفون —
أن يعيد الكرة .. وأنه سينأى بنفسه عن نأياً تاماً
وأحسست بالتمرد والثورة .. وتملكني حنق شديد .
أوفد حرمت .. حتى كلمات وداع .. هي زادي
إلى الأبد ؟

وسمعت صوت أقدام أبي تهبط الدرج إلى الحديقة ، ثم
سمعت صوت العربة تتحرك .. فانطلقت إلى التليفون بسرعة .
إن الفرصة سانحة لكي أحدث .. ولكن أين أستطيع
أن أحده ؟ .

من أين كان يتحدث ؟

إني أعرف له رقمين : رقم الشكنات ، ورقم الميس ..

والساعة تكاد تبلغ السادسة وهو ينتهي من طابور بعد الظهر.
كما قال لي - في الخامسة والصف - .. إذا فلا شك أنه قد
تحدث من إحدى الرقبن .

ولكن من يدري . . قد يكون تكلم من تليفون
في الخارج . . أو لعله قد خرج بعد أن تكلم .
على أية حال سأحاول .. فتلك هي بقية أملي .
وأدرت رقم الميس . . وأخلفت أنصت إلى دنين الحرس
فترة طويلة .. وأخيراً أجابني صوت :

- مين يا فدم ؟

- أيمكن أن أتحدث إلى الملازم أول أحمد عبد السلام ؟
- وإذا لم يكن موجوداً .

وأرتبكت رهة إذ لم أتوقع هذا السؤال ، وقلت مترددة :
- إذا لم يكن موجوداً سأحاول أن أطلبه مرة أخرى .
- ألا نقول له شيئاً ؟
- لا .

- لا بد من أحمد عبد السلام بالنات .. ألا يصلح أحد
غيره ؟

وبدا لي أن المتحدث أحد زملاء أحمد .. وأنه يظنني
أحدى الفتيات اللعابيات .. اللاتي أباأن أحمد أنهن كثيراً

مايشاكسن الضباط في ليس إلى حد أن إحداهن كانت تعرف
أدوار نوبتيهم ، واحداً واحداً ؛ ولم أشك في أن الضابط
الذي أجابني يحيى بحديثه مداعبة وغزلاً .

وأحسست بالدمع يكاد يطفر من عيني ، وأجبت بصوت
محنتق :

.. أرجوك إذا كان موجوداً دعني أتحدث إليه .. إني
أريته في مسألة هامة .

ورجرت له طبعتي الحادة من عيئه . وقال في لحظة رقيقة مهذبة
معتذراً :

— أنا متأسف يا فندم .. لكن أحمد قدّم نفسه أمس إلى
الخبرس السوارى لأنه حقل إلى هناك وأظنه نوبتي اليوم .
.. أستطيع أن أعرف رقم تليفونه ؟
.. أجل .

ثم أملأني الرقم .. وشكرته ، ووضعت السماعة .
وعدت أطلب الرقم الجديد .. وردّ على صوت سألته عن
أحمد فأجابني بعد فترة :

— حضرة الضابط معاكى يا فندم .

ثم سمعت صوت أحمد :

— آلو .. مين ؟

— أنا عايدته

ولم أشك في وقع الإبرسم ولصوت على مسمعه ، فقد
مضت فترة قبل أن يجيب بصوت خافت حاول جهده أن
يكسوه ما استطاع من الهدوء :

— أجل يا عايدته ؟

— أنا آسفة .. لم أستطع أن أحدثك لأن أبي كان يقف
أمامي .

— لقد استطعت أن أدرك هذا .

وانتظرت أن يقول شيئاً يطرق به الموضوع ، ولكنه
حمت .. فلم أجد بداً من أن أبدأ أنا الحديث فقلت :

— لمك لم تنبئني بما حدث بينك وبين أبي .

— ألم تعرفي بعد ؟

— عرفت بطريقة غير مباشرة !

— ليس عندي أكثر مما عرفت .

— أود أن أعرف تفاصيل الحديث .

— تفاصيل لا تسر .

— كيف ؟ ماذا قلت له ، وماذا قال لك ؟

— قلت له ما يقوله كل رجل عاقل يتقدم لخطبة فتاة .

— وماذا قل هو ؟

— لا داعي لأن ننكح الجرح .

— أرجوك .. قل لي ! .

— قال لي ما زلت صغيراً ، وأن مرتبي محدود ، فلما

قلت له إنني سأقاضي خمسة وعشرون جنياً ، صمكت في سخريه وأجابني إنني لا أستطيع بهذا المبلغ أن أنسى بيتاً محترماً دون أن أكون عالة على أحد ، ونصحتني أن لا أفكر في الزواج الآن .. وأنه خير لي ألا أرهق نفسي بعبء لا قبل لي على احتماله .. ثم قال إنه لا يفكر في زواجك الآن لأنك ما زلت صغيرة .. فلد قلت له أنه يمكننا أن تتم الخطبة الآن على أن يؤجل الزواج كما يشاء .. أجاب بأن هذا ليس من مبدئه .. فإنه يكره أن تطول الخطبة .. ويرى أنها ستشتغل عن الدراسة .. وقلت له إنني أستطيع أن أنتظر ، فأجابني في حدة وهو يتحفز للقيام كأن صبره قد عيل .. إنه لا يستطيع أن يعد بشيء .. ونصحتني ألا أتعلق بالآمال .. وأن أحبر ما أفعله هو أن أصرف نظري عن هذه المسألة ، وأني إذا كنت مصراً على الزواج فهناك الكثيرات من الفتيات ممن يصلحن لي .. هذا هو كل ما قلت ، وكل ما قال .. تلك هي التفاصيل المرّة التي لم يكن ينقصها .. سوى أن يطردني من البيت .. ولقيد طردني فعلاً .. فقد قال لي إنه مضطر إلى الخروج

لأن لديه موعداً هاماً . . ثم شدة عني يدي قائلاً : دعنا نراك .
وهو يكاد يعني بها : لا تدعنا نراك . .

وكنيت أسمع حديثه وأنا أحس به بحز في نفسي ويليه
رأسي ، وعندما انتهى منه قلت أنتم معذرة :

— إنني آسفة جداً . . كان يجب ألا أعرضك إلى مثل
هذا الموقف . . ولكنني قلت لك إننا يجب أن نترك حديق
: تجلس البعض ، فأبيت إلا أن تتقدم بنفسك .

— النتيجة واحدة . . كان لا بد لنا من تحمل الصدمة ،
ما دامت نملك هي آراؤه ومبادئه . . ماذا متفعلين أنت ؟

ماذا سأفعل أنا . . ليتني أستطيع أن أفعل شيئاً لو أن
لي حرية التصرف . . ما كانت بي من حاجة إلى أن أحدثه
في ثيليفون ، بل لفررت من الدار وذهبت لأرتقي
أحضانه إلى الأبد .

وأدركت من حديثه أنه لم يعلم شيئاً عن الخطبة التي توشك
أن تحدث ، والكارثة التي توشك أن تحي . . ولم أجد لدي
الشجاعة الكافية لأن أبينه بها . . فقد كرهت أن أطعه يدي
بالسهم المسموم . . وكنيت مازلت آمل في معجزة من السماء
توقف المصائب . . إن دعواتي إلى الله وصلواتي الحارة لا بد أن
تستجاب . . إنها مدججتي الوحيد ، إنها كل ما أستطيع أن أفعل

ولم يستغرق مني التفكير سوى ثوان معدودة ، وأجبت
على سؤاله :

— وما أستطيع أن أفعل .. سوى أن أترك الأمر لله
والظروف ؟ .

— أعليتنا أن نخضع ونستلم ؟

.. هل لدينا سوى ذلك ؟

— إذا كان هذا هو رأيك .. فكما تريد .

وصمت .. وصمت .. وكانت تجيش في نفسي عواطف

شتى .. وكنت أود لو ناجيته بأعذب الألفاظ .. ولوركت

أمام قدميه وأغرقت يديه بإتقبل .. ولكن الألفاظ لم

تسحقني ولم أجده ما أفصح به عن مشاعري .

وطال الصمت حتى لم أجده ما أنطقه به سوى تلك

الكلمة البليغة :

— دعنا نراك ؟

— إن شاء الله

— مع السلامة .

— مع السلامة .. يا صديقه .

ووضعت السماعة ، وأما حاففة على نفسي .. كان لدى

الكثير مما أود أن أفوهه ، ولكني لم أقبل شيئاً .. كتب أعم

أنه يروح تحت أعباء الحزن والفشل .. وإن كان يتصنع
التجملد وقلة الاكتراث . كنت أود أن أغسل همومه وأربل
أحزانه . وأن أقول له إنى سأحبه دائماً ، وإنهم يستطيعون
أن يتحكموا فى جسدى ، ولكن قلبى سيظل ملكاً له ..
لا يخفق إلا بحبه .. ولكنى لم أجسر حتى أن أقول له حقيقة
ما يوشك أن يحدث .. كنت جبانة مترددة .

وهكذا حرمت نفسى العزاء الأخير .. ملوق التى
كنت أتوق إليها وأتلمس عليها .. حرمت نفسى مناجاته
الغنية ، وحديثه الخلو .. أعز متاع لى فى هذه الحياة ..
وختمت حديثى معه تماماً كما ختمه معه أبى « دعنا نراك » ..
أو على حد قوله « لا تدعنا نراك » .. وأدركت أنى لن
أفراه إلا بفعل المصادفات .. وتدير الظروف .. فما أظن
كبريائه إلا فارضة علينا فراقاً أبدياً .. ألم يقل لى هو
نفسه ذات مرة إنه خالص أعز صديق لديه لمدة عشرة
أعوام لشعوره أنه أهان كبريائه .. وأنه استمر يتجنب
رؤيته ولقاءه .. رغم حبه له .. حتى يوم ما هذا ١٩٨٢ لم يقل
لى إنه ليس هناك فى هذه الحياة ما يستطيع إزالته .. حتى
أنا .. وأنه على فرط حبه لى يستطيع أن يرغم نفسه على
نسيانى .. مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة ؟

وأحسست أن ذهني يوشك أن ينفجر .. وذهبت إلى
حجرتي ، وارتعيت على الفراش كأنني في شبه غيبوبة .
وفي الساعة التاسعة عاد أبي إلى البيت ، ولم أجد بداً من
التحمل والنزول للمساء ، وكنت أشعر أنني أنحرك كالاشباح .
وسألني أبي خلال الطعام :

— ما بك ؟

— لا شيء !

— لمَ لا تأكلين ؟

— أحس بوعكة بسيطة .

ثم تركت المائدة .. وصعدت إلى حجرتي .. وأويت إلى
الفراش ، وبعد برهة سمعت صوت أبي يصعد الدرج . ثم سمعت
صوت جدتي تناديه . وذهب إليهما ، وكانت حجرة بيده
لاصقة لحجرتي وكان يفصل بينهما باباً معلقاً .

ووجدتني أرهف السمع وأنا أسمع جدتي تقول له :

— اجلس .. أريد أن أحدثك .

— أنحسين بشيء ؟ . كيف صحتك ؟

— ليس بخصوصي أنا .

— ليس بخصوصك ؟

— أجل .. أريد أن أحدثك بخصوص عايدة .

- ما لها عأيدہ ؟
- ألم تلاحظ عليها شيئاً ؟
- لم تأكل في العشاء ، وقالت لي إن بها وعكة بسيطة !
- إنها لم تأكل منذ يومين
- وله ؟
- ولم تم طول الليل !
- ما هذا الكلام ؟ . ماذا تقصدين به ؟ لم لم تأكل
- ولم تم ؟ . ماذا يمنعها ؟ ! أريضة هي ؟
- ليست مريضة ..
- أفصحى إذا عما تريدین قوله ؟
- ألم يحضر إليك أحمد لخطبتها ؟
- أحمد ! ! أجل لقد كلني بالأمس .
- وماذا قلت له ؟
- ماذا قلت ؟ أتريدین أن أقدم لك حساباً عما قلت ؟
- أريد فقط أن أعرف !
- رفضت بالطبع !
- وله ؟
- لأنه ليس هناك وجه للمقارنة بينه وبين ابن زكي باشا
- فلا مستقبل له إلا ذلك للترقي المحدود .. ولا دخل له إلا ذلك

الرائب الثابت .. ولا شيء يرجي منه قط .. هل تريد أن
تلقى عمرها زوجة صاغ أو بكباشي ، وتظل تعدو وراءه
من العرش ، لمسى مطروح ، لمقباد إلى أدنى بمشة
الضباط . أي أحق بفضله على ابن رئيس وزراء ؟

— هذان وجهة نظرك أنت .. فرئيس الوزراء قد
يفعلك أنت .. ولكن الذي سيفعلها هو زوجها .

— بل رئيس الوزراء سيفعلها أيضاً .. فهو يستطيع أن
يحمل من ابنه شيئاً مذكوراً .. يجب أن نتطلع إلى أعلى ..
أكنت تريد لي أن أرفض ابن ركي باشا .. لأجل أحمد ؟
إني لم أجن بعد !

— ولكن لست أنت الذي تنتق .. كان يجب عليك
أن تختارها بين الاثنين .

— لقد استشرتني في خطبة ، تهاني بك .. رغم أني
كنت أستطيع أن أبت وحدى في الأمر .. لأنني لست
بالغني الفاعل التميز ، ولا بالذي لا يقدر مصلحة ابنته .

— أين هذه الاستشارة التي تحدث عنها ؟ لقد كان
حديثك فرحاً عليها .

— لقد سألتها عن رأيها فأجابت بالقبول !

— ولم لم تأخذ رأيها في أحد ؟ لم لم تجعلها تناضل
بين الاثنين ؟

— ليس هناك محل للفاضلة .. ثم إن أدري متي
بهذه الأمور .

— إنها هي أدري بنفسها .. إنها تفضل أحمد لأنها تحبه .
وصاح أبي في حلق شديد :

— تحبه ؟ من قال لك هذا ؟ أمي التي قد قالت .. ؟
أمن أجل هذا لا تنام ولا تأكل ؟

— هدى .. من روعاك .. واخفض من صوتك .. وكف
عن هذا الصراخ .. إنها لم تقل شيئاً .. ولكنني أستطيع أن
أفهم مشاعرها دون حاجة منها إلى التصريح .

— كفى عن هذا الهراء .. لا أريد أن أسمع أكثر
من هذا .. هذه هي التربية التي أجهدت نفسك فيها ؟
أنتسمحن لنفسك بأن تقولى إنك تدركين أنها تحب ؟
وإنك تفهمين مشاعرها ؟ لقد أفدتها بتدليك .. لقد
جنيت عليها .

— أمي جنابة أن تتركها تتزوج من تكاء ؟

— جنابة أن أسمع لها بهذه المسخرة !

— بل الجنابة هي التي ستفعلها أنت .. إنك مخلوق

أناي منذ الصغر .. أنت أنايتك قد أفسدت حياتك
 وحرمتك المعيشة الهادئة وستفسد بها حياة ابنتك .. أنت
 لا يهلك سوى نفسك ... تنظر إلى كل شيء بمنظار
 مصلحتك .. ولا تفهم الأمور إلا من وجهة نظرك
 أنت .. أنت تريد أن تفاخر بنسب ورثاء ..
 وتنتظر من وراء النسب أبهة وسلطاناً ونفوذاً .. أنت
 تريد أن ترضى غرورك وأنايتك ، ولكك لم تحاول قط
 أن تفكر بعلمتها أو تعتبر مشاعرها .. حتى لكأنك بك
 أنت الذي ستزوح لاهي .. خير لك أن تدعها هي تبث
 في مصيرها .

— لقد بت في مصيرها وانتهى الأمر .. لا أريد أن
 بناقشني إنسان في هذا الموضوع ، وخير لك أن تكفي
 نفسك مشقة التدخل فيه .. أنبئها أن تستعد للسفر في
 الساعة العاشرة صباحاً .

ثم ضحك ضحكة ساخرة وأردف قائلاً :

— لا تخشى عليها من الأرق أو الجوع .. فسنام بعد
 ذلك مل .. جفنيها .. وتأكل مل .. بطنها .. دعها لي أنا ..
 لا تحملي همها .

وساد السكون بعد ذلك .. وانتهت المناقشة التي عرضت
خلالها قضيتي على بساط البحث .. وانتهى الأمر فيها بتأييد
حكم الإعدام .

لم يخذلني قول أبي كثيراً .. فما كنت أتوقع سواه ،
وما كنت أتظر منه إلا مثل هذه الثورة والسخرية .. وتمت
لو لم تفانحه جيتي .. فقد كنت أود أن أساق إلى «مسيري
المحتوم بلا ضجة ولا فضيحة .. وألا أعرض نفسي لمثل هذه
السخرية المريرة .

مافائدة المناقشة والجدال ؟ متى كان للشاة أن تناقش
قضاياها ؟ وللمحكوم عليه بالإعدام أن يجادل جلاده ؟
يجب أن أتجاهل وأن أتمسك .. يجب أن أكنم مشاعري ،
وأخفق قلبي .. بل يد همرو لا يبدى

وأعصت عيني .. واستمر ذهني يتخبط في أفكاره
واستعصى النوم علي .. واشتد في الإنهك .. ونهضت إلى
النزقة أخيراً أناجي السم ، وأستلهم الماء الرحمة وأسألهما
للإفلات ، وملأت صدري بنسيم الليل الرطب عله يطفئ
حرارتي ويهدي من نائرتي ، ثم علت إلى الصلاة أستعين
بها على إطفاء حرقتي ، وتخفيف لوعتي ، وأقطع بها الليل
للطويل ...

وأخيراً منحني الله نعمة النوم ، ففعلت بضع ساعات ،
خارجة عن سلطان الهموم . ، مستريحة من الأشجان
والأحزان . . ليت الله يتم نعمته فيمنحني الراحة الكبرى ،
والهدوء الأبدي . .

استيقظت صباحاً فإذا بالشمس قد ملأت الحجر . .
ونهضت مشاقة وبني إحساس السوق إلى مشقة .
لا . . لا . . يجب أن أتجد . . يجب أن أكون شجاع . .
لي أذع الصدر يشمت بي . . إن الشهداء يافون إلى
ساحة الإعدام وهم يتسمون . . فيجب ألا أقل عنهم
شجاعة .

يجب أن أتم الفاق والرياء . . وأن أقيم وقلبي فاع
بلك ، وأن أحكم ونفسي موجعة دامية .
يجب أن أجعل قواذي يحمي وقلبي يتحجر .
ومثل هذه الأفكار بدأت أستعد للسفر .
وقبل العاشرة . . تحركت بنا العربة . . قاصدة إلى عزبه
صاحب الدولة ، قرب المنصورة .
وفي الطريق أخذت أرقب الأشجار والمساظر تتوالى
عني . . وقد أسندت رأسي على مسند العربة ورحلت في شبه
غيبوبة .

وأخيراً توقفت العربية ، وصمعت ألى ينادينى ويأمرنى
بالرول .. وأبصرت ، صاحب الدولة ، فى استقبالنا
وبجواره ، سوسو هانم ، و « قوتوبك » خطيبى المبجل .
إن ذاكرتى لاتكاد تبنى من ذلك اليوم الاسود شتياً ،
إن ما وعاه دهنى من العزبة والبيت ومن كل ما أبصرته
يومذاك لايزيد على صور باهتة شاحبة قليلة ممتعة .
أما الشئ المحسوس الذى عدت به ، فهو خانم .. دس
فى أصبعى .

خانم ١١٩ استغفر الله ، لقد كان قيداً أطبق على يدى
أو حبلاً لف على عنى .. حقاً ما ظننت قط أن الإنسان
يمكن أن يخفق من إصبعه .
لقد عدت إلى القاهرة ، وأنا لا أحمل من الرحلة النعسة
سوى هذا الخاتم المنحوس ، والعيد الثقيل .. ماذا كنت
أريد شراً من ذلك ؟





الطير يفتيت

إن القاهرة .. وأنا أتخيل أن الأمر كله ليس
عمر سوى كابوس خفيف ، أو حلم مزعج .. وأتوهم
كل ما حولي أشباحاً وأطياناً . لكن شيئاً واحداً هو الذي
كان يعيدني إلى وعيي ويشعري بالواقع المرير ، هو القيد الثقيل
الذي كبلت به والذي كان يحز في أصبعي وفي قلبي .
أبجهدتني مشقة السفر وضجيج الحوادث التي خلل بها
يوم ، فأوبت ! فراشي مكندودة متعبة ولم يستحسن النوم
على جسدي المحتلم فسرعان ما أغضض الكرى عيني ودرحت
في سبات عميق .

حيا الله اليوم .. لقد كنت أفضي فيه أسعد أوقاتي ، كان
ينقذني من شقاء ملح وعناء مقيم .. كنت أحتصر به يقظتي
التعسة ، وكنت أخرج به عن نطاق التفكير فيما أنا محاطة به
من وقائع مروعة ، وقد بكرتني أحياناً .. فيب لي في الأحلام
لقاء مع أحمد ، ويعيد إلي ذكريات حوالي .

واستيقظت في الصباح وأنا أشعر بحض الراحة والهدوء
والقدرة على الصبر والتحمل ، ونهضت أباشر أعمالاً في البيت
وأعطي أوامري للخدم كما تعودت أن أفعل من قبل عازمة
على أن أكف عن ذلك الإنهيار ، وألا أعطي أبي فرصة

للسخريه أو التأيب أو التحكم وأن أدو طيعية مهيا كاهى
الامر .

وتناولنا الإفطار ، وتقبلت تهشمة أحي وأنا أرسم على
وجهي ابتسامة متكلفة مصطنعة ، وحلست ألى بتناول الشاي
ويتشغل بقراءة صحف الصباح ، ثم رأته يدمع إلى يا حذاها
وقد وضع أصبعه على مكان معين .
وقرأت نبأ خطبتي في أخبار المجتمع ، ولم يكن في النبأ
- بالطبع - شيء جديد ، ومع ذلك فقد أحسست منه
وخزاً في قلبي .

ألا يحدث لكم أن نكونوا على علم بوفاة إنسان . .
ولكنكم مع ذلك تتأثرون بقراءه لعيه أو تلاوه رثائه ؟
لقد كان للخبر في نفسي وقع النقي ، ووجعة الرثاء .
وتذكرت أن أحمد سيقرا النبأ ، كما قرأته ، وتصورت
وقعه عليه ، فأحسست بهرحى يدي وفرحى بنكا . وكان
الكارثة قد وقعت مرة ثانية .

كنت مارلت أرجو أن يحدث شيء . كنت ما زلت
أنوقع معجزة السماء . . ووددت لو خفي الأمر على أحمد ،
حتى تحدث المعجزة . . فأقص عليه المسألة كلها . . وكأها قصة
مسلية .

أما كان يجب علىّ أن أحبره ، حتى لا يظننى مشركاً في
الجرم ، وبتوهم أنى خدعته ؟
وشرد ذهني ، فأخذت أتحمّله وهو يقرأ النبا ، وكيف
سيحاول التجلد والتمايل ، وهو مروّع محزون .
وطويت الصحيفة في صمت ، ووضعتها على المنضدة . .
وصلعت إلى حجرتي وكأني قد شيعت ميتاً .

بدأت بعد ذلك فترة من المشغول ، فقد أصرّ أبي على
مبدئه في أن يقصر فترة الخطبة ما أمكن . ورأيت نفسي أهمك
في أشياء مختلفة متباينة تصبغ كل وقتي ، ولا تترك لي فرصة
التفكير في أحزاني .

كنت منهمكة في أحب ما يمكن أن تهلك فيه أبة فتاة
مقدمة على الزواج ، وهو التجهيز لعرسي ، شراء الأقمشة ،
والتنصير ، وقياس البروفات ، وامتغاء الأثاث والفضيات
والأطعم المختلفة ، وكان لي مطلق الخيار في أن أطلب ما أريد
بلا قيد ولا شرط ، ولكي لم أطلب شيئاً عظيماً ، بل كنت
أوفق على كل ما يقدم لي .

لقد كانت العملية في حد ذاتها عملية مسلية ، شغلت كل
وقتي ، وكان تأثيرها مسلوياً لتأثير النوم ، وهو إنفاذي من

هنا التفكير في الواقع ، ولكنى مع ذلك كنت أحس أنها
مستتهى يوماً ما .. وستكون نهايتها بداية الكارثة الحقة .

كنت أتمنى أن يطول التجهيز للزفاف إلى الأبد .. فقد
كنت ما زلت آمل في الخلاص .. وكان إيماني في رحمة السماء لم
يتبدد بعد .. وكنت أحد في فترة التجهيز مسحة الأمل .. وكانت
رغبتي في أن تطول تلك الفترة أشبه برغبة إنسان يشيع عزيزاً
لديه فهو لا يود قط أن تنتهي الجنازة حتى لا يصل إلى القبر بل
يود أن يطول به السير إلى ما لا نهاية .

وكنت أفكر أحياناً .. كيف كان يمكن أن نكون تلك
الفترة .. فترة الاستعداد للزفاف .. لو أن الأمور سارت في
طريقها الطبيعي .. ولو أنه لم يحدث هذا الخلط من القدر ؟

كيف كنت أقضى فترة التجهيز .. لو أن أمية النفس
تحققت .. وتمت خطبتي لأحمد ؟ أى نعيم كنت أفرح فيه لو أن
هذا المخرج والضجيج كان استعداداً للزفاف إلى أحمد ؟

ولكن لا .. لا أظننى كنت مهتمة كثيراً بهذه التوافه .
فقد كانت سعادتي بأحمد نفسه تطفئ على كل هذه الصيانات
والماديات .

لقد كان هو وحده الأمل المشود .. كان يكفى
من أعيش معه في صحراء جرداء مقفرة موحشة ،

في الحصول على الرزق موباً . ونجاهد في سبيل العيش ماً .
إن كل هذه المسع الراتفة تصال بجواره . إنها لا تستطيع
أن تجلبه ، ولكمه يستطيع أن يجلب حراً منها .. وهو الشديد
الإيمان ، لقوى الأمل ، الآتي النفس ، الكريم الخلق .

وكنتم أحلو إلى نفسي - حلال هذه الممعة من
المشاغل - في بعض الأمسيات ، فأجلس في الشرفة المحبوبة ،
وأذكر حديثه عن الأمان التي كان يأمل تحقيقها ، والتي يريد
أن يعيشها زمناً رغداً .. ويتمن في الخيال وبداعيني
الأمل ، فإذا في أغرق في أحلام عجيبة .. وأتحيل نفسي لينة
الرفاق بأكة حزينة .. وقد فقدت كل أمل .. ثم بطرق أذني
وسط صبحج الناس وصخبهم وقع حوافر خيول تفرع
الأرض وأسمع صهيلاً وهممة . ثم أبصره بعامة المشوقة ،
وحذاته الطويل ، كفرسان الصور الوسطى .. وقد أمسك
بيده مدسه .. والقوم قد خيم عليهم الصمت وكأن الطير علا
رؤوسهم ، وفروا من الدهش أفواههم ، وجلسوا في تقاعدهم
لا يتحركون كأنهم .. وهو يقترب مني باسمياً .. فيرفعي
بين ذراعيه .. ويمسك القوم المشدوهين المبهوتين ، ويخرج
ني من وسط الضجيج والأوار ، إلى هدوء أيسل وطنته
فيرك جواده ، ويضعي أمامه .. وينطلق .

يطلق .. وينطلق .. وينطلق .. لا يستقر أبداً على
نقطة الأرض .. وأمكت منية في أحضانها وهو ثابت على
حواده يسابق به الريح .. حتى يستقر بها المقام في بقعة خلت
من السكان وهجرها القطان .. أياً كانت هذه البقعة — حتى
لو كانت قبرا تتوسد أحجاره سوياً — لأنها أحب إلى نفسى
من حمة الخلد .

ذلك كانت أمانى المجرنة .. التى كنت أعزى بها نفسى
وأمنحها بتصورها .. زمناً وغداً .. وأنزعها — للحظات ..
من وسط هذا الشقاء الذى أيسنها وأذبل عودها

وكننت خلال هذه الفترة أدعى من أن لآخر .. مع
الخطيب الكريه .. إلى حفلات مختلفة .. كنت أجلس
فيها شاردة الذهن ، صامتة اللسان لا أجيبه .. إلا بقدر
ما أسكته .. وعودت نفسى طابع ابتسامة ترسم على شمس ..
دون أن يكون لها أى صلة بشاعرى .. بل كانت مجرد
طابع ، أو قناع أضعه على وجهى .. بلا أقل جهد
ولا مشقة .

وأخيراً حدد موعد الزفاف ولم يكن قد بقى عليه سوى
بضعة أيام .. عندما أبصرت أنسى ذات مساء .. قد ارتدى
بدلة السهرة وأقبل على يسالى عن بيوت ، أى الاسود

الذى يرتديه مع قبض السبرة . . لأنه لا يجد . . بيونه . .
وسأله وأما أعليه . البيون . : إلى أين هو ذاهب ؟
ولم أدر وأما أوجه السؤال . أى كست كمن يرفع عز
جمل - طابة الأمان لقسية ، فإذا بها تنفجر فى يده
وتتركه حطاماً .

ماذا نصورون إجابته ١١٩

لقد قال بساطة :

— مدعو إلى زفاف أحمد ، إنه سيتزوج الليلة .
لقد انفجر فى ردة . . الذى ألقاه بمنتهى السهولة
والساطة . . كما انفجر أشد لألغام فتكا .
ماذا روعى من النبأ ؟ . .

ألم أكن أنا نفسى أوشك أن أرف بعد بضعة أيام ؟
أكنت أنتظر منه أن يقضى عمره أعزب ؟
ماذا بضيرنى إذا تزوج الآن ، أو تزوج بعد حين ،
ما دمت قد فقدت الأمل فيه . . وما دمت أبادئة بالحدلان ؟
ولكننى مع كل ذلك ، وجدت نفسى أوشك أن أتهاوى
بعد كنت أشعر — مع كل ما حدث — أنى لم أفتنه
بعد ، وأنه ما زال هناك أمل .
لما الآن ، فقد دنت الريح أمل .

ماذا يمكن أن آمل ، بعد هذا ؟
لقد أصبح أحمد - أو بوشك أن يصبح بعد بضع
ساعات - رجلاً ، لقد أصبح إنساناً ، لا أمل لي فيه ،
ولا رجاء لي منه .

وأحسست من تلك الصدمة أني بت على استعداد لأن
أثور على كل شيء ، وأحطم كل تقليد ، وأن أواجه أبي
وأقنف في وجهه بكل ما يحول محاطري ، وأن أقول له إنه
رجل أمانى ، وأن أطلق هاربة من البيت ، متحدية كل قوة
وكل سلطان . . لقد أعطى الصدمة قوة غارقة ، ووهب لي
اليأس ثورة عنيفة .

ولكن ما الفائدة ؟

ما الفائدة ، وقد أضحي أحمد ذلك سواى ؟
ماذا يمكن أن أرجو منه ، وقد أضحي روحاً ؟
لقد استطعت أن أبتعد أمام كل ما سبق من الصدمات ،
أما هذه الصدمة فقد جعلتني أنهار تماماً

وانسكأت على المنضدة وأمسكت بها ، حتى لا أتهاوى
على الأرض ، وأحسست بحلقى يحف ، وهتفت بصوت
خافت مجروح :

- أحمد . . سيتزوج ؟

وبهت أخى من لهجتي ، وروحه شحوب وجهي ، وترك
اليون يسقط من يده ، ثم تقدم إلى وأمسك يدي وسألي
في دهش ؟

— ماذا بك يا غايده ؟ تعالى اجلسي على الأريكة .
وحاولت أن أنحامل على قدمي ، ولكنني تهاويت على
الأريكة .

وعاد علي ، يتساءل في فزع :

— ما بك . . . تكلمي ؟

وبلا إرادة وجدت نفسي أردد :

— أحمد . . سيتزوج ؟

وأحسست بشفتي تحتلجان . . وعضضت شفتي السفلى
حتى كدت أدميها . . محاولة أن أكنم نوبة البكاء التي توشك
أن تحتاجني .

وجلس أخى بجوارى وضعتي برفق وهتف بحنان :

— غايده ؟ .. غايده ؟ ما بك !! تكلمي !! قولي شيئاً .

وبشر قوله الخنون منبع الدمع في مقنتي ، فلم أشعر إلا
وأنا أنشح . . وادمغت في لبكاء أرتجف بين يديه كريشة
في مهب الريح .

واسنم أخى يضمني إليه ويربت على خدي حتى هدأت .

ثم مدّ يده إلى ذقني ، ورفع وجهي ونظر إلى عيني
المغرورقتين وبدأ لي أنه قد فهم كل شيء ، وحس قائلنا :
— لم لم تقولي لي . . لم لم تتحدثي من قبل . . لم
رضيت بخطبتك ؟

— وما الفائدة ؟

وبدا عليه الحنق وقال بحدة :

— ما الفائدة ؟ . . هذا مصيرك . . مصيرك أنت
وحدك ! أنت التي ستشقي . . أو تسعدين به ! كيف تخضعين
صاغرة ذليلة . . دون أن تعترضني ، أو تنبسي ببنت شفة ؟
— وماذا كنت أقول ؟

— ماذا كنت تقولين ؟ ١١ توري وقاومي . . حطمي كل
شيء . . اصرخي . . استجدي . . هذه حياتك . . أتركينها
تذهب سدى ١١ إننا لم نعد بعد في زمن الاستعباد . . كيف
ترغمين على زوج لا تريدينه . . هذا منك جبن وخور .
— لقد حدثته جدتي !

— وماذا قال ؟

— سخر وثار . . وقال إن الأمر قد انتهى ، وليس
لأحد أن يعترض عليه . وإنه هو أدرى الناس بمصالحتي .
— وماذا ستفعلين ؟

وتهدت في يأس وأجبت :

— لا شيء .. ماذا أستطيع أن أفعل ؟ لقد قضى الأمر
وليس أمامي سوى الخضوع والاستسلام .. هذه مشيئة الله .
ورأيتني يطرق برأسه ، وقد بدا عليه الشقاء والحزن ..
وكرهت أن أغرقه في أحزاني ، وأن أشركه في مصابي ،
فقلت وأنا أتصنع الجملد :

— قم .. يجب عليك أن تذهب .. كل شيء سيهون ..
الزمن كفيل بمحو كل شيء .. إنه ينسينا ما نحب ويعودنا
ما نكره .

كان مجرد كلام أعزى به نفسي .
كلام هراء .. كنت آخر من يصدق أو يقتنع به
أي زمن هذا الذي ينسينا ما نحب ويعودنا ما نكره ؟
أهناك شيء يمكن أن ينسيني أحمد .. ويعودني البلية
الأخرى ؟

ونفض أخى .. وقد ألقى « بالبيون » على الأرض ..
سار إلى حجرته بخطوات متعاقبة .

ودلفت إلى حجرتي .. وارتيمت على فراشي .. كأنني جثة
هامدة .. ولم أحاول أن أخرج إلى الشرفة .. ولا أن أضرع
إلى السماء ، أسألها الرحمة . ولم أحاول أن أصلي أو أدعو الله ،

لقد ينسب من كل شيء . . . وكفرت بكل شيء . . . ولم أعد
أؤمن لا بالسما ولا بالمعجزات . . . ولا عدت في حاجة إليهما .
لقد حطمتي التيس . . . وجعلني بلا حس . . . وأفقدني كل
أمل ، وأطفأ أعمى كل شعاع . . . وطمس كل بارقة .

لَمْ فعل أحمد هذا ؟ . . . لَمْ تعجل ؟ . . . ألم يقل لي إنه
س يدفعه إلى الزواج إلا الحب ؟
أترأه قد أحب ؟ . . .

لا أظن . . . أترأها الرغبة في النار لكبريائه الجريئة
وكرامته المهدرة . . . والرغبة في أن يكون هو البادئ
في الزواج ؟ .

أترأه قد تزوج لإعاطي والانتقام مني ؟ بعد أن أناه
بأخطئي ؟

ولكن ماذا ؟ . . . ما حيلتي في الأمر ؟

لشد ما أخطأت بعدم إعلانه بالخطبة . . . كان يجب أن
أخبره بها وأرصح له ظروفها ، وأبين له أنني مكرهة عليها . . .
وأنني لم أجده ، ولم أفضل عليه « توتو » .

لأني حتى الآن خبطة من ذكره اسمه . . . ولكن ماذا
أسميه ، وأبوه نفسه كان يدعوه به . وإذا كان اسمه الآخر
« ترائي » ، شراً منه . . . فماذا أسميه ؟

كان يجب أن أوضح له الأمر بنفسى وأبينه أنى سأظل
مخلصة له أيد الدهر ، وألا أتركه يفاجأ بالبياض الصحف . .
فأظلم نفسى ، وأتركه يتهمى بما أنا منه بريئة .

ولكن ما الفائدة من كل هذا ؟ . ما الفائدة فى أن أكون
لديه بريئة أو مطلومة ، وأن يعرف أنى نسيته أو أبى سأذكره
إلى الأبد ؟ ما فائدة هذا ؟ . ما دمت قد حضعت للقيود والذل
ورضيت بأن يذهب كل ما فى طريقه ، وأن يمزق كل ما كان
بيننا من موثيق وعمود !
ولكنى كنت مكرمة . . أما هو فما عذره ؟ .

أما كان يجب عليه أن يتريث قليلا ؟ أو قد همت عليه بمثل
هذه السهولة حتى يستبدل بى أية مخلوقة ، ليجعلها تحس محلى . .
وتتخذ فى حياته بوضعى ؟ !

أريد أن يرى أنى وغيرى سواء . . وأن أية فتاة يمكن
أن تغنى عنى ؟

أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ وأنه لم يعد به من حاجة
إلىّ ، وأنه قد طردنى من ذاكرته ، بل ومن قلبه ، ليضع هذه
فى توسك أن يرف إليم مكافئ ؟
ولكن من هى ؟

ابتسام ١١٩

عجبا . . . أى شيطان دفع إلى رأسى بهذا الاسم
أجل لاشك أنها هى دون غيرها

لقد وضع الأمر . إن أمه قد أحست بصدمة ، وعرفت بنيا
خطيئ ، وخيبة أمله في ، وبأسه مني ، ولم تجد وسيلة لتعويضه عن
القتل ، ولرد الإهانة ، سوى أن تعجل بزواجه من ابتسام ، التي
كانت تراها - على حد قوله - عروسه الأصلية وزوجته العتيدة .

وسمعت صوت د علي ، ينادى أحد الخدم . وعجبت لعدم
ذهابه ، وصمتت على أن أرجوه أن يذهب ، حتى لا يحقد
على أحمد ، وحتى لا يظن أسى أنا التي جعلت أخى يتمتع عن
الذهاب ، وحتى لا يظن أنا قد صمما على مقاطعة ، وذهبت
إلى د علي ، ورأيتهم يخلع ملابسه . فقلت له بلهجة متوسلة :
- علي . . أرجوك أن تذهب . . حتى لا يحزن أحمد ،
وحتى لا يظن أن بيننا خصاما . . اذهب من أسى أنا .

ونظر إلى د علي ، ثم أخذ يرتدى ملابسه ثانية ، وقبل
أن يخرج سأله هامة :

.. من سيتزوج ؟

.. الفتاة التي قلت لك مرة إنى رايتها معه في السينما . .

ابتسام .

.. .

مرت الأيام القليلة الباقية على موعد زفافي .. بطيئة
متأقطة .. وكنت أحس أني أعيش وأتحرك وسط ضباب
معتم كثيف .. يريني كل ما حولي من مرنبات ، كأنه أشباح
باهتة .. أو ظلال سوداء .. ولا أكاد أبصر خلاله أو
وراءه .. سوى أكداس من الظلمات .. تفرق المستقبل
الموحش البغيض .

وأخير أحل يوم الزفاف .. وكنت في أواخر سبتمبر ..
وهو أحب شهور المسلم إلى نفسي .. وأملؤها بالذكريات
الحلوة .. واستيقظت قبيل الفجر وأما أحس ببرودة صباح
الخريف تسلي من الشرفة .. فأغلقت بابها ، وعدت إلى
الفراش ، ولكني ظلت أنقلب دون أن يساعدني النوم ..
ففقدت الفراش .. وخرجت إلى الشرفة ، واستقبلني نسيم
الرطب ، يمسح وجهي بكفه الندية .. ووجدتني أنفسم منه
شبهتاً طويلاً أغسل به حنايا صدري وأندي به حرارته .

وكانت السماء منمقة بسحب الخريف المنثورة في الأفق
المحمرة الحواشي .. الموشاة الأطراف .. إيناناً بمطلع
الشمس ، وأوراق الشجر قد كسيت بقطرات الندى المتلازمة
المنساقطة إلى الأرض كالدموع الطامنة ، وأبصال الزئبق
تتلا الحديقة .. وأعواده الحملة بالزهور البيضاء تتمايل

مع دباب النسيم... وأوراق الورد الأحمر متناثرة على الطير
والداليا تشاغل زهورها على أغصانها العالية.. وحوض الماء
الذى أجلسنى به أحمد، عليه وغسل لى ساقى فيه.. تنساقط من
صنبوره قطرات الماء..

ما أقدر المناظر المعينة.. والأجواء المخصوصة.. على
بحسب الذكريات.. وعلى إثارة الشجن.. رب صوت عابر
أو نسمة رطبة، تعيد إلى نفوسنا حشداً من الأحداث...
وتقلنا إلى عالم آخر.. رب يقيق صفدع، أو زقزقة عصفور،
تنكأ في نفوسنا جرحاً أيل وقرحاً شنى.

رب ورقاء متوفى في الضحى

دات شجر صدحت في فن

ذكرت إلفاً وعهداً سالفا

فبك حزناً فهاجت حزنى

فبكأنى ربما أرقها

وبكاهما ربما أرقنى

ولقد تبكى فما أفهمها

ولقد أبكى فما تفهمنى

غير أنى بالجوى أعرفها

بهى أيضاً بالجوى تعرفنى

لم تكن ورقاء هائلة ، هي التي حركت شئني ، وانت ما في ،
بين كان كل شئ حوى .. السحب المنخفضة ، والسم الرطب ..
ومدامع الورق .. وأعواد الزيق .. وأوراق الورد .. وزر ،
الذلي .. وحوض المياه .. كل هذا تعاون على فذوب نفسي ،
وأضرم الحنين في قلبي .

ووجدت نفسي أنسلل إلى الحديقة ، وقد وضعت
على كتفي معطفاً ، ولففت رأسي « بإشارب » ، وانتعلت
حذاء خفيفاً ، وتسللت من الدار في سكون ، وسرت في
الطريق ، تحملي قدماي إلى الساقية المهجورة .. إلى المبد
المقدس .

وكانت الشمس قد بدأت تنسل برأسها من وراء الأفق
كأنها تستكشف الأرض ، والأشعة البرتقالية تغمر أعالي
الدور وأطراف الشجر ، وقد خلت الطرقات إلا من الخمال
المحلة « بالكرنب » تأتي من طريق « الوابلية » متجهة إلى
شارع « الملك » .

وسرت بحذاء السلك الشائك المحيط بشكات الحرم ،
أحوض المزارع .. متخذة طريقاً قريباً .. بدل الدورية الواسعة
عن طريق الجامع والشارع المجاور للسراي .
ووجدت نفسي أخيراً أشرف على الساقية من ناحية

المزارع ، وبدأ لي طريق السراى محوطاً بأشجار البانسيانس
القائمة على جوابه .

وجلس حيث تعودت أن أجلس ، وحيدة صامتة ..
أحس في جلستي بالكثير من العزاء ، وأتمنى لو استطعت أن
أخلد في موضعى لأعاده أبد الدهر .. وأن أخفي جزءاً من
ذلك المنظر الخرب .

وكان يراود نفسى أمل خفي في أن ، أحمد ، قد يأتى ، وأنه
قد يكون أصابه ما أصابنى من حنين .. ودفعه ذلك الدافع
الخفي الذى دفعنى إلى الهجى .

أحل .. إن مجبئ لا يمكن أن يكون عبثاً .. لقد حركنى
قلبي ، ولا بد أن يحركه قلبه .. إن موضع الشاعر لا بد أن يمدأ
بعد فترة .

وأخذت أسترقي السمع إلى كل صوت يقترب ، وأنعم
البصر في كل شبح يبدو على الطريق .

ومضى الوقت ، وأنا في جلستي - كما أنا - مغرمة
في الصمت والوحدة ، وأخذت الشمس تغلو في الأفق ،
والحياة تنب من حولي ، وأصغرات الفلاحين والرواب
تتعالى .

وأخيراً نهضت للعودة ، ألقس حريق بين المزارع ..
فاشلة المسعى .. غائبة الرجاء .

أى حقا أنا ؟ .. أى وم صورى حضوره ؟ .. أو قد
سيت أنه متزوج وأنه لابد أن يكون فى هذه الساعة منعماً بين
أحضان زوجته ١٩

لقد أضحيت عنده غير ذات قيمة .. ولم يعدلى مكان فى
قلبه ولا ذهنه .

ولم أحمل عليه ، وغداً أكون مثله ؟ غداً أصبح زوجة ،
ويصبح حبه جريمة كبرى وخيانة زوجية .

إن من الحزن أن أحاول التفكير فيه . يجب أن أقتلعه
من نفسى اقتلاعاً .. يجب أن أنسى حبه ، وأن يسيحى ، إن
لم يكن قد نسيه بعد .

ومضى اليوم ، لا أدري كيف مضى ، ولكن الدار
كانت تعج بالحركة ، وتضج بالاستعدادات ، والحديقة
قد انقلبت — بالمناضد التى وزعت فيها — إلى منتدى
عام ، والأسلاك المحملة بالثرثبات الكهربائية تتناثر فوق
الأشجار .

وكنت أما أجلس كالمثال ، مسلوقة الرشد ، فاقده القدرة

على التصرف أو التفكير ، أقرب ما يحدث كإنى مجرد
مشاهدة ، أو عابرة سبيل ، وكأن كل ما يحدث لا يعنى ،
أو كإنى لا أقوم بدور البطلة ، فى وسط هذا المسرح القائم
على قدم وساق .

وأقبل الليل ، وبات البيت شعله من النور ، وبدأت تتوافد
على الدار بعض العربات

وكان علىّ أن أبذل جهداً كبيراً فى التجدد والتفكير ،
وأن أخرج إلى القوم فأقبل تهانيم وتحيينهم ، وأرحب بهم
وابتسم لهم .

وخرجت ، بعد أن تعمدتني الأيدي بالزينة وبعد أن ضمتنى
جدتى بين أحضانها وطبعت على جبيني قبلة حسان .

وكان أول من لقيت ، صاحب الدولة ، وابنته ، وكانا
يحاسنان مع أنى فى الصالون ، ونهضا يرحبانى فى حرارة
وحفاة ، وأحلت « سوسو » تصلح لى زهرة حلى بها
كنف ثوبى .

وأخذ المدعوون يتوافدون زرافات ، فامتلت الدار بهم
وضاقت رحاب الحديقة على سعتها .

ثم حضر « توتو » أخيراً فى حشد من أصدقائه الذين

عرفني بهم في فترة الخطبه ، وكان يبدو متأقماً لامعاً برافاً ،
والواقع أنه كان حلو ، لصبوات ، جميل النفاطيع ، أرسقراطى
المنظر ، وكأقلت من قبل إنه قد يستهوى ملايين الفتيات ..
ولانى لولا سقم تفكيره .. وتفاهة عقيدته .. ولولا أننى
لم أكن أملك قلبى .. لما اعتبرت زواجه كارثة ، بل لما رأيت
فيه إلا كما رأى أبى « لقطه كبيرة » ..

وأقبل « تونو بك » وأصدقائه يحيطوننى بهالة من
الإكبار والإعجاب ، وحاولت جهدى أن أبادلم مرهمهم ،
وقلت لنفسى إبنى يجب من الآن أن أكون مخلوقة جديدة ،
وأن أحاول ألا أدع حب « أحمد » يتسرب من مكمنه ، بل
يجب أن أئده ، وأن أبدل كل جهدى لأظهر بمظهر المرحبه
بحياتها الجديدة .

ولم أكر قد رأيت أخى طية اليوم ، وعجبت لغيبته ..
ولكنه بدا لى أخيراً .. وتقدم إلى متكلفاً المرح
والسرور .

ولم أشك فى أنى قد نجحت فى العجد والتسك إلى أبعد
حد ، بل لى وحطت المسألة أسهل كثيراً عما كنت
أتصور .. ورأيتنى أروح وأغدو صاحبة مبتسمه .
« أى جهد ولا مشقة » .

واتحى بي أخى جانباً .. ثم همس فى أذنى :

— لقد دعوت أحمد .. فهل يسوءك هذا ؟

وأخضت بقوله .. وأصمت منه بما يشبه لسع الجحر ..
ولكن لم هذه الرجفة ؟ ألم أدع أنى قد انتصرت على
مشاعرى ، ووأدت حبي ؟

وقلت له وأنا أنكلف فلة الاكترات :

— يسوءنى ؟ لا .. لا .. على الرحب والسعة .

— لقد كان لابد أن أدعوه .. ردّ أ على دعوته ..
والا أخذه على غاظه ، ، وطن — كما قلت — أن
يتنا خصاماً .

— أجل .. أجل .. لقد كان لابد أن تدعوه .

ولقد تملكنى إحساس بالرهبة والخوف . ولكنه
كان خوف تمتع .. ورهبة لذينة .

ألم أكن أوشك أن أرى ، أحمد ، ، وأنحدث إليه ؟

ولكن أين ما ادعيته من كبت المصعر ، وقتل القلب ،
وواد الحب ١١ وعلام هذا الإحساس بالثمة .. والشعور
باللذة ؟

أحقاً قد وأدت حبي ؟

ولكن لم لا أوجل وأده هذه الليلة ؟ ليلة واحدة ١١

أستكثر على نفسي لبة واحدة ، أتزود منها للعمر كله ؟

وأخيراً انتهت الإجراءات الوهمية التي أجراها الشيخ
المعتم الذي لقبوه « بالمأذون » ، ووجعت نفسي في غمضة
عين قد صرت زوجة .

آية سخرية هذه ؟ لقد جلست أنظر إليه وهو منمك في
الكتابة ثم غتم كلاماً لم أسمعته وأخذت أردد معه أقوالاً كأنى
يغناه ، وأنا شاردة الذهن ، أصوب النظر في لفافة عمامته .
وأخيراً سمعت ألفاظ التهته تتواتر على مسمعي .

أهكذا انتهى الأمر ؟

أهذه الإجراءات التي تبدو كأنها « عقد إيجار » أو
« صفقة شراء » ، يقام لها من الوزن والاعتبار ما لا يقام بكل
ما أملك من مشاعر نحو أحد ؟

أتفاهم الأرواح ، وامتزاج الأفس والقلوب ، لا يحلل
الصلوات التي أحلها ذلك الشيخ المعتم بكتاباته وقراءاته ؟
أأضحي بهذه التفاهات لشكلية ملكا لرجل لا تربطني به
آية صلة ، ولا أحس نحوه أقل عاطفة ؟

أتربل هذه الكتابة كل عصبة .. بيني وبينه .. ويوقف
الحب العميق القوي مكتوف الأيدي ؟

أتبيح لي تلك الوثيقة المخطوطة . . أن أفعل .. ما لو فعلت
بدونها — حتى مع أحمد — لا اعتبر فاسدة ، واستحققت
الرجم بالمجازة ؟

يا حتى التقاليد وسخفها ؟

لقد قضى الأمر وأصبحت زوجة بفعل هذا المأذون . .
الحمد لله الذي لا يحمد على مكرهه سواه !

وأخذت الدار تعج بمن فيها . . واختلط الخابل بالنايل .
وامتلاأت الحجرات والصالون . . واحتشدت الحديشة بمن
فيها . . ووقعت أمابين الجموع أقلب فيهم البصر ، وأنطلع
إلى الباب بين آونة وأخرى .

ولجأه أحسست بقلبي يندق بعف . . وزال عني
كل ما ادعيت من تمالك وتجمل . . فقد رأيت أحمد يشق
حاربه بين المدعوين وبلغت بمنة ويسرة بحثاً عن شخص
يعرفه — حتى التفت عينا ما

وقدم إلى بثبات ، وقد كسا وجهه شبح ابتسامة ،
ثم شد على يدي قائلاً :

— مبروك يا عابده .

— الله يبارك فيك . . وأنت أيضاً مبروك .

ونتم برد غائت . . وبدأ عليه كأنه يقاوم اضطراباً

شديداً ، وأخذ يتلفت حوله كأنه يبحث عن مفر حتى وقع
بصره على أخى . . فاستأذن منى واتجه نحوه ، وسرعان
ما اختفيا بين المدعويين .

وتلكمى ضيق شديد ، وكرهت ألا يكون بيننا في اللقاء
الآخر أكثر من كلمتي تهنته . . أو على الأصح قمرة !
وأحسست بدافع شديد يدفعني إلى أن أخلوه ، وأن
أنفام معه .

حرام أن نختم حبسا بمثل هذه الخاتمة الجافة الباردة . .
إذا لم يكن من الفراق بد . . فلا أقل من وداع جميل . .
يعزينا عن البعد والحرمان .

يجب أن أشرح له الموقف كله ، حتى أرفع عن نفسي
الظلم . . وحتى نفترق حيين . . أو على الأقل صديقين .
وتسللت من بين الجمع الذي أحاط بي ، وذهبت أنتقل
بين المدعويين في الحجرات وفي الحديقة باحثة عنه ، دون
أن أجد له أثراً .

وأخيراً عثرت على أخى ، ولكنه كان وحده وحملت
أن أسأله عنه .

وروقت أمامه برهة . . وقد بدا على التردد . . وكأنيما
قرأ ما يحول بذهني فقد قال لي متسائلاً :

— ألم ترى أحمد؟ .. لقد كان معي سالا .. وقد ذهبت
لتحية يجيب بك .. ثم عدت إليه فلم أجده .
وهزرت رأسي باليأس ، ثم تركته وعدت أبحث وأتعب .
ألا يحتمل أن يكون قد رحل ؟
وأحسست بغيظ شديد .

هذا العيد المتكبر .. لم عجل بالانصراف ؟ .. لم لم
يُنظر ؟ ! لم يأتي على متعة الوداع ؟

وسرى إلى نفسي الحزن واللوعة وبت أضيق بكل هذا
الضجيج والصخب والأثوار .. وتلفتت إلى لحظة سكون
وخلوة ، ووجدت نفسي أنسحب من بين المدحومين
وأنتحى إلى الشرفة الخلفية المطلة على الجزء الساكن من الحديقة ،
والتي شهدت ميلاد جينا .. عندما رأيته أول مرة بعد
تخرجه .

وفي الطلبة السائده رأيت شجراً يستند بمرفقه على حافة
الشرفة وقد أولانى طهره وأخذ يحرق في لأشجار المضمضة .
وأصابني رغبة ، وهتفت بصوت غامض :

— أحمد ! !

أجل لقد كان هو بعينه أحمد .

ترى أى إحساس قد دفعه إلى المجيء إلى الشرفة ؟ أيشعر
كما أشعر . . وبحس كما أحس ؟

أريد أن يشهد الشرفة نهاية حب ولد فيها ؟ أريد أن يجعل
من المهد لحداً ؟

ليكن له ما يريد .

ومضت برهة قبل أن ينس ، ثم أجاب دون أن يستدير
ليواجهنى ، بل استمر مولياً وجهه شطر الحديقة :

— نعم .

— لم فعلت ما فعلت ؟

واستدار ببطء ليواجهنى . . وأجاب فى طعنة مريرة
مستكرة :

— أنا لذى فعلت ؟

— أجل . . لم تنتظر ؟

— أنتظر ؟ أى شىء أنتظر ؟

وافتربت منه ومددت يدي لأحدها بين يديه ، ومضت
برهة وكلانا ينظر إلى صاحبه فى صمت وهمست قائلة :

— لا تحقق على ؟ لم أكن أملك من أمرى شيئاً . . لقد

تعوّدت دائماً أن أخضع . أمت تعلم كيف نشأت ، وتعلم

أنه لم يكن في وسعي أن أقدم أو أرفض .. وكان الأمر
يبدو لي أنه لا يمكن أن يتم وأن السماء لن تتركني .. كنت
أصلي ليل نهار ، وأنتظر معجزة تقذفني .. وكنت واثقة
أنى سأعود إليك في النهاية ، حتى علمت أنك قد تزوجت ،
فأصابني صدمة قاسية .. حاولت نفسي وقلبي رأساً على
عقب ، وأحدثت في نفسي ثورة جامحة ، جعلتني أحس أني
أستطيع أن أقدم وأصرخ وأرفض .. ولا أنضع
كعبدة ذليلة .. لتدبت أشعر أني أجرو على كل شيء ،
وأنى على استعداد لأن أنطلق معك هاربة ، وأن أتبعك
حتى نهاية العمر ؛ عشيقه ، زوجة ، خادمة ، أى شيء ذات
يرضىني ، فما أصبحت أقيم لهذه الشكليات وزناً مادمت
أضمن أن أكون معك دائماً ، ولكن ما فائدة هذه المرأة ،
وقد جاءت في النهاية ، بعد أن قضى الأمر .. وأصبحت
يائسة منك !

ورفع يدي إلى شفتيه وأخذ يلثم أطراف أصابعي وطهر
يدي وباطنها ويمسح فيها وجهه بخنجر بالعم .
وسجت يدي من يده ، فقد أحسست بنفسى تهاوي
وتهار ، وشعرت بحرارة تسري من شفتيه ووجهه إلى كل
جسدى .

وعنت على وجهه سحابة يأس واكتئاب . . فقد أحزنه
أن أبخل عليه يدي بعد ما وهبت له من قبل شفئي . .
وتملكني حزن لحزنه . . واكتئاب لا كتابه . . وكرهت
أن أكون سبباً لشقائه .

وترك يدي من يده ، وأطرق برأسه وقال :

— لا فائدة . . يجب أن نفرق . . من الحق أن نحكم
شد أنفسنا برباط سيودي بنا سويّاً إلى الهاوية . . لا أمل
لأحدنا في الآخر . . فيجب أن نفرق وأن ننسى ونستعين
بالصبر . . إن الحياة لا تستطيع أن يفرض الإنسان فيها
كل ما يجب . . ولا أن يحب كل ما يفعل .

وهمت بأن أجيئه ، ولكن تخرج صوتي وتجمعت
الدموع في مآقي ، وحاولت مغاليتها فلم أستطع ، وأحسست
بها تنساب على صفحة وجهي .

ولمح هو دموعي تلمع في الظلمة . . فأعسك يدي بين
يديه . . ودفن فيهما وجهه . . وشعرت بدموعه الحارة
تنهمر قبليهما .

وأصابني رجفة شديدة . . وبلغ في التأثر أشده . . فما
رأته يبكي من قبل .

ومضت فترة صمت ، وتعطلت لغة الكلام ، وانقطع كل
تفاهم بيننا إلا بلعة الدموع الصامتة . . التي كانت تنهمر من
أعيننا في سكون فتجلو صدأً نفسينا وتعمل أحران قلبينا ،
وتحمل لنا العزاء والسلوان .

ما كان أمتعته من بكاء ١١

هل تصدقوني إذا قلت لكم إنني ما أحسست في حياتي
براحة كتلك التي أصابني من ذلك البكاء الصامت المشترك ؟
وأخيراً رفع إلى وجهه وقال في هدوء :

— إنني لا أريد منك شيئاً ، لا شيء مطلقاً ، وسأحاول
أن أهب لك هبة لا أشك أنك في حاجة إليها ، إنني لا أستطيع
أن أمنحك اسماً ، ولا مالا ، ولا بيتاً ، ولا بنين ، ولكنني
أستطيع أن أهب لك صداقتي . . أوجي الصامت الذي
لا أريد له مقابلاً ، إن كل إنسان يحتاج إلى قلب مخلص أمين
يضع فيه ثقته . . ويستعين به في التوابع والملسات . . إنني
سأكون لك أمّاً وأباً وأخاً . . يجب أن تفرق على هذا ، على
أن يذكر كل منا صاحبه ولا ينساه أبداً . . وأن نستدل
بالحب صداقة . . ما رأيك ؟

وأحدث قوله المملوء بالخبرة والإخلاص في نفسي
فعل السحر ، وأثر فيّ تأثيراً باعاً ، وشد كل منا على يد صاحبه

، نفقنا على أن نستبدل بحبنا الجارف صداقة متينة ثابتة .
 وقد نسالون أنفسكم : هل يستطيع عاشقان أن يزرعا
 حبهما ليغرسا مكانه صداقة ؟ وهل تقوى النفس البشرية على
 مقاومة رغباتها وتبديل مشاعرها وتحرير أحاسيسها ؟
 وعلى أية حال . . أستطيع أن أؤكد ، أنا كنا في عزها
 وقتذاك صادقين مخلصين ، وكنا نحس تماماً أن هذا هو خير
 عزاء يمكن أن نهدى به أنفسنا ونطوي به حرقه قلوبنا .
 وتناول يدي مرة أخرى وهم يرفعها إلى شفتيه ، وهو
 يظر إلى نظرة استئذان خشية أن أعجبها منه كما فعلت قبل ،
 لقد محبتها منه فعلاً . . لأمدها برفق هي ويدي الأخرى
 فأحيطه بذراعي . . وأضمه إلى بلاوعي ولا إرادة .
 قد أبيت عليه يدي . . ومنحه شفتي .
 ما عني من بأس ولا حرج . . قبله أخيرة . . هي زاد
 العمر كله .

أليس من حق الصائم أن يزود لصيامه حتى يستطيع
 أن يصلب عوده ويقم أرده ؟
 قبله واحدة وبعدها الزهد الدائم . . والصوم لأبدى
 والتفت شفتانا في لطفة عنيفة وشوق مستعر ، وتميت

أن تطل شفتينا ملتصقين حتى آخر العمر ، وأن يحمدي في علي
فه .. فلا ينزع أحدهما عن الآخر أبداً .

وأخيراً أيقظنا من نشوتنا صديق الموسيقى المنبعث من
الكحة الأخرى من الحديقة ، فعاد بنا الشرفة ، وبنا طريقه
النمالي وذبول الشاوي .

أي محتونة كنت عندما أقدمت علي ما فعلت ؟

ماذا كان يحدث لو رأنا أحد ؟

من يصدق أنني أجرو على ذلك في يوم زفاني ؟

ليحدث ما يحدث .. إلى ما دممت علي القبله قط .. فقد

كانت القبله أمتع عندي من يوم الزفاف .. وما بعد الزفاف .

وخرجت إلى زوجي ١١ أجس زوجي ١١ ألم يجعـله

ما ذور كذلك ؟ ١١ خرجت إليه ونفسي شجاعة وجراءة ..

ليفعل بي ما يشاء .. فلقد أمسبت قريرة النفس ، مطمئنة

البال .. ليأخذ من جسدي ما يشاء .. فإن مالك قلبي .. ما زال

يملكه .





عبدالله التائب

الشهر الأول من زواجي « شهر العمل » في فندق
قضيت « مينا هارس » .. ولست أستطيع بالضبط أن
أحدد مشاعري خلاله .. بل ما أظن كانت لدى فرصة
لكي أشعر بشيء .. فقد كنت أشبه بجواد في حلبة سبق ..
سياق بين الحفلات ، والدعوات ، والسهرات ، والمآدب
الخافتة بصوف الليل وضروب النسيئة .

لم يكن لدى وقت لكي أهدأ أو أفسر .. وكانت حياتنا
مثلا للفراغ والجدة .. ولكنه كان فراعاً أشق من العمل
وأملًا بالحركة والجهد . ولم أحاول أن أقوم ، أو أرفض ،
أو أخلد إلى الراحة .. فقد كان يبدو لي أن ذلك هو خير
معين لي على تحمل حياتي الجديدة .. وأنه خير متقضى من
التفكير والحلوة .. وبين حضيقة مشاعري .. كنت أفضل
أن أستمع هكنا كطفل يحملونه من أطراف يديه ويلفون
به لفات سريعة حتى يصاب بدوار .. كنت أحس أنني بتلك
اللفات السريعة المنهكة من اللهو .. لا بد أن أصاب بدوار ،
ولا أعود أشعر بما حولي .

ولم يكن هناك مفر من أن أتعلم الرفض .. وعلامة
التفكير لا أبدأ لي . توتر ، أن هذه مسألة حيوية خصيرة .

فلم أجدهُداً من موافقته . وبدأت الدروس ، وبعد بضعة أيام كتب أستطيع أن أشاركه حجاب الرقص ، وأدور معه بين الراقصين .

وتعلت كذلك احتساء الخمر . ولم لا . . . وقد أفهمني زوجي أن من الخطئة والمعرّة والجهل أن أرفض الشراب . . . وأني لا بد أن أتعوّد شرب كأس أو كامين حتى لا أخجله بين رفاقة وزملائه . . . وشربت في المرات الأولى كأنني أشرب دواء مرأ . . . ولكنني تعوّدت بعد ذلك . . . إن العادة تسهل لنا كل أمر وتذلّل كل صعب .

وانتهى شهر العسل وعدنا إلى بيتنا الجديد . . . فيلا أنيقة في الدقي أعدت لنا خلال الشهر لذى قضياه في ميناهوس . . . وتوقعت أن يهدأ من حولي ذلك الصخب والضجيج . . . وإن أبدأ في الدار حياة مستقرة . . . وصممت على أن أقوم بواجبي كزوجة خير قيام ، وأن أرعى شئون الدار .

لقد كان «توتو» رغم تفاهة عقلية وسخافة تفكيره ، رقيقاً معي في شهر العسل إلى أبعد حدود الرقة . . . فصممت على أن أبذل جهدي لكي أحصل له بدهي وتصكيري . . . وأن أسأله أن أزرع أحمد من قلب شيتاً فشيتاً . . . وأحله محله . لو استطعت .

وبدأ لي أنه شيء من الإرادة أستطيع أن أبحر فيما نويته
ولاسيما أني لم أعد ألتقي بأحمد . . وأوهمني البعد أن تأثيره
على قد خف ووهي .

وفهمت من « توتو » أن إيجارته انتهت بانتهاء شهر العسل
وأنه عين في منصب رئيسي في إحدى الشركات الأجنبية
الكبرى . . وتوقعت أن يبدأ عمله . . وأن يخرج في الصباح
ويعود في الظهيرة . . كما يفعل كل ذي عمل . . وأن الأمر قد
لا يتخلو من ذهابه أيضاً بعد الظهر . . وصممت على أن أبدأ
عملي في الدار كما كنت في بيت أبي . . وأن أشرف على أعمال
الخدم ، وأراقب المطبخ . . وأن أكون « سيدة بيت » بمعنى
الكلمة .

ولكنني وجدته يخرج أول يوم ، ثم يعود بعد ساعة .
ويطلب مني ارتداء ملابس للذهاب إلى جروبي . أو إلى
« نادى سبورتنج » أو إلى أحد النوادي الأخرى ، لقضي
الصباح بين « شلة » من أصدقائه المتزوجين والعزّاب .
وأدهشتني عودته . . ولكنه أنبأني أنه قد أنهى عمله .
وأنه لا يستطيع أن يعطيهم من وقته أكثر من ساعة . . بل
إن ساعة كثيرة عليهم .

والظاهر أن الساعة فعلا كانت كثيرة عليهم . . فقد بدأ

يبتل بها وأصبح لا يكاد يذهب إلى الشركة إلا لأخذ مرتبه .
وما العجب في ذلك ؟ ١؟ وأي عمل يمكن أن يقوم به
تونو بك ؟ وهو الذي طالما صرح أنه لا يكره شيئاً كالعمل .
إن العجيب حقاً هو أن يعطوه عملاً ، إذ كان كل ما يطلب
منهم هو الراتب الشهري ، مراعاة لحاظ : صاحب الدولة ،
وتوقعاً لعودته إلى الحكم . . وكانت الشركة بعيدة النظر فلم
تبتل عليه به لأنها لا تريد جهد « تونو بك » أو خبرته . .
ولكنها تريد نفوذ أبيه .

وهكذا بدأت أجده نفسي مرة أخرى في شهر عمل
جديد ، وقد يكون قضاء شهر في الفراغ واللهو أمراً يمكن
احتماله ، أما أن نقضي العمر كله هكذا فذلك ما أفرغني .
لقد تعودت دائماً أن أفعل شيئاً ، وأن نقضي بعض
الوقت في اللهو للترويح عن نفسي بين آونة وأخرى ، ولكني
لم أتصور قط أن أصبح كل وقتي في اللهو . . لقد كان هذا
فوق طاقتي ، فما كان لي، جُلُود على ذلك الإجهاد والسر .
لقد أخذت السأمة وأمللت تعزيتي . . حتى بدأت أجده
بعض التسلية في أحد الوادى التي يعلم فيها ركوب الخيل .

كنت أفضل أن أضيع وقتي — ما دام لا — من تضييع
الوقت — في هذا البادى دون غيره من الأماكن المضيعة

للوقت ، لأنه كان أكثر هدوءاً .. ولأن رواده كانوا أقل
محدودة .. وكانت جلسته أقرب إلى أن تكون جلسة مريحة
عائلية .

وكان الدادى محبباً إلى نفسه ، وكنت أشعر بارتياح
شديد إليه .. وكنت أعجب بمنظره وأبنيته والجو المحيط به ..
لست أندى لم .. فكثيراً ما يرتاح الإنسان إلى شيء دون
أن يحاول أن يناقش نفسه في سر ذلك الارتياح .

كان يعجبني كل شيء فيه .. صالونه الزجاجي الذي يطل
على الميدان الأخضر الفسيح ، تبدو في أفضه أشجار الكافور
والجرازوريت ، والسرو المحيطة به .. والمدخنة التي تترأى لي
في أقصى الأفق من وراء الأشجار .. والذي قد تآثرت فيه
حواجز القفز .. وتفرقت فيه الخيل تسير خيلاً وقد اعتدل
عليها ركابها .. وبدأ شعرها في الشمس فضياً لامعاً أو أشقر
براقاً :

وكنت أجلس على الاراتك المنخفضة أقرب الميدان
من وراء الزجاج أو أتسلى بالقراءة في أشعة شمس الشتاء
الدافئة التي سمح الزجاج بحرارتها ، بعد أن حجب عنا برودة
الرياح .

كان كل شيء يشعني بارتياح .. صور الخيل الملونة

الأيقة المثثة على الحدران ، والفساء الخفي المغلق المفروش
يقش ، السبة . .

وكنت كذلك أستطيع عندما أمل الخلوس والحديث
والقراءة أن أخرج إلى منصده ، الببح بنج ، الموضوع في
الشرقة الخارجية ، فأنتلي باللعب مع بعض الصديقات
لوا لأصدقاء .

كل ذلك كنت يجعلني أفضل التنادي على سواء من
الاماكن التي كما ترنادها كجروبي أو مادي ، أسورتج ،
أو غيرهما .

وثمة سبب آخر . . سبب خفي لم يكن يحصر على أن يطل
برلمه صراحة بجوار غيره من الأسباب . . ولا أن يتخذ مكانه
في ذهني . ويهرؤ على أن يجرول بخاطرى دون خجل . . ولا
خشية . . بل كان يرسم في قرارة نفسي قابلاً منزوياً . . في
سكون وهدهد كأنه غير كائن .

كان السبب أفواها حبيماً . . بل إلى عند ما أسأول الآن
أن أسئل مشاعري وقتذاك أجده هو وحده أساس ذلك
الارتياح والرضا والتفضيل .

كنت أحب الفروسية والركوب والسبة ، وكل ما يمت
إلى الخيل بسلة . . لأن كنت أشم فيها عبق الماضي العطر . .

واسمع فيها لمحمة الممتع .. كنت أرتاح إلى كل هذه المناظر لأن
فيها أصداء من الذكريات الغابرة .. وكنت أكاد أبصر فيها
« أحمد » .. وأذكره بخناته الطويل ، وقوامه العارح ، وجلسه
على الحصان .. وحديثه عن الاصطبلات والطومار وأحواض
السق والعليق .

كنت رغم محاربتى لإخلاص لزوحى بالجسد والنهى ،
ورغم نجاحى فى ذلك .. وقناعى بمحباتى الجديدة ، ورضائى
بمحالنى الراحنة .. وتوهمى أن حب « أحمد » قد تضام فى قلبى
وانكش .

كنت رغم ذلك كله لا أستطيع التخلص من ذلك الحنين
الحنى .. الذى لا يجرؤ على الظهور والذى يجعلنى أستريح إلى
مكان معين دون أن أدرك لارتياحى سبباً .

ولم أحاول طبعاً أن أدخل فى روعى أرت ارتياحى
للفروسية وبملى الحنى إلى الخيل ، يعتبر خيانة لزوحى ، لأننى
كنت واثقة من نفسى مطبشة إلى قدرقى على أن أعصم نفسى
من الزلل .. بل إنى كنت رغم روثى لكثير من صباط
السوارى والحرس ، ورغم توقى أن أرى « أحمد » فى أى
يوم ، لم أحاول أن أسمع لنفسى نذ أنلهف على لقائه أو أتوق

إلى رؤيته .. بل كنت أكثر من ذلك أشكر الظروف لأنني لم
أره في البادية قط .

وسارت حياتي على وتيرة منتظمة لا تختلف يوماً عن
يوم ، واستطعت أن أتمود حياة الخمول والفراغ فلم أعد أتبرّم
بها كثيراً .

كنا نتيقظ في التاسعة أو العاشرة ، وبعد مضي ساعة
من الاستيقاظ نكون قد اتينا من الإفطار ، وارتدينا
ملابسنا ، ثم نخرج قاصدين إلى البادية ، أو جردن
أو إلى إحدى دور السينما ، ثم نعود في الساعة بعد الظهر
إلى البيت للعداء .. إذ لم نكن قد دعينا لتأخير عيد بعض
الأهل أو الأصديق . . وبعد الظهر نذهب إلى أحد
الأمّاكن التي لم نذهب إليها في الصباح ، وفي الليل إما أن
نذهب إلى السينما أو إلى حفلة راقصة ، أو إلى ملهى من
الملهى الليلية .

وكما في معظم زهايا .. مع صحبة معظمهم من الأزواج
الذين لا يختلفون في مشايرهم وأهوائهم وتطلعاتهم عن
زوجي .. والزوجات اللاتي لا يختلفن عني كثيراً بعد أن
أصبحت زوجة .

وهل أستطيع أن أسكر أني قد صيغت بصيغتهم المذلة

التافهة ؟ ألم يقل المثل « من جاور الحداد كونه بنساره » ،
« ومن عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم » ؟
وكان معظم لقائنا مع الصحبة في النادي ، ولا أنكر أن
الفترة الأولى من صداقتنا لم كانت بريئة لانشوبها شائبة ،
أو على الأقل ، إن كنت غدوعة بمظهرهم ، حسنة النية في
ظني بخلفهم . . ما ظننت قط أنهم عصبة ذئاب ينهش بعضها
ظهور البعض الآخر .

لم أكن أتوقع قط أن يخيب أملى في ذلك النادي
انحجب إلى نفسى بمثل هذه السرعة ، وأن يتضح لى أن النادي
للخيل وللذئاب .

كنت حسنة النية حتى بدأت ألاحظ ذات يوم أن أحد
الأصحاب « الزئاب » يلزم زوجة صاحب آخر كظلمها ،
وأهما كثيراً ما يحتليان في أحد الأركان فيقضيان الساعات
في همسات خافتة . وأدهشنى الأمر ، وقلت « لتوتو » : إن
فلاناً وفلانة لا يبدو منظرهما وتصرفهما مستساغاً ، وأنه
يجب عليهما أن يراعى مشاعر الزوج .

ووجدت « توتو » ينظر إلى « تم » يضحك في سخرية :
— الظاهر إنك ما زلت « غشيمة » . . . هذه الأشياء
طبيعية جداً .

وأصابني الدهش وقلت متسائلة :

— ما هي تلك الأشياء الطيبة التي تتحدث عنها؟

— سرقة الزوجات من أزواجهن ، والأزواج من

زوجاتهم .. هنا ناد ، وعاطبة .. كان يجب أن يطلقوا

عليه ، النادى الشرعى ، لكثرة ما يحدث فيه من حوادث

الطلاق والزواج ، أو على الأصح .. النادى غير الشرعى .

وأجبت مستنكرة :

— يجباً !! ما ظننت أشياء كهذه تحدث في ناد محترم ،

وبين قوم لهم مكاتهم ..

— وما دخل ذلك في الاحترام .. هنا يطلق الأزواج

وتزوّج المزاب .. إذا دخل مزوّجاً خرج أعزب ، وإذا

دخل أعزب خرج زوجاً .. لذلك كنت أفضل أن أدخله

ولبابك قبل الزواج حتى نخرج منه زوجين بدلاً من أن

نخرج مطلقين .

— هذا تشنيع منك ؟

— تشنيع ؟ هذه أقوال تستند على وقائع .. اسمي ..

هل تعرفين على بك رسمى .. لقد اشترك في النادى عزباً ، أما

درجته فقد كانت زوجة أحمد عبد الله .. هذه واحدة ، عدى

على أصابعك ، أما مدام سماعة ، فهذا ثالث لقب لها ، فقد

كانت منذ بضعة أشهر . مدام فنوح ، ، ومنذ ستة كانت
 . مدام محرز ، والأزواج الثلاثة أصدقاء وزملاء في السادي .
وعلى فتح الدين ، لقد « لطف » زوجته تلك من « سيو
سكارابي » ، ويبدو لي أن الأخير يوشك أن يستعيد هامه ،
وابراهيم زكي ، وعلى عبد الرحمن . . تبادل زوجتيهما .
ما رأيك ؟ أنتعبرين أقوالى تشيناً ؟

— هذه أشياء عجيبة ، لا يصدقها عقل !

— على أى حال . . لا يفلتك أمر محمود ، ودعى زوجته
تتاجى مع فتحى ، حتى تتيح له الفرصة لمرادة أخيه « ميسى » .
إنها حلقة مفرغة ، ليس فيها خاسر ، فهذا ينهش ذاك ، وذاك
ينهش هذا .

واقشعرت بى ، من أقواله ، وبدأت أحس نكره للنساذى
واحترقار لأعضائه ، ولم أعد منذ ذلك الحين أشعر بذلك
الارتياح الذى كنت أحسه من قبل ، وبدأت أتوجس من كل
نظرة خيفة ، وأتوقع وراء كل حديث شراً .

وبخيل لى أن أقوال زوجى لم تكن سوى مقدمة لأحداث
نوشك أن تقع . وأنه هو نفسه كان ينوى أن يتخذ مكانه
في الحلقة المفرغة ، وأنه كان يستعد لخوض معركة الذئاب . .
والاشتراك في عملية « النهش » .

كان من بين أصدقائنا الأقربين .. روجان : محمود شكرى
 وزوجته فاطمة صالح ، أوكنا كننا ندعوهما : حوده ، وطلمطم ،
 وكان الزوج أحد أولئك المخلوقات التى حرمها الله أية مزية من
 المزايا التى يمكن أن ينعم بها على عباده .. إلا مزية واحدة
 عوّضته عن بقية المزايا خير عوض ، وهى أنه خرج إلى الحياة
 فوجد فى انتظاره بضعة آلاف من الأقدمة ، وكوماً من النقود
 قد كدت فى جمعه أجيال من الآباء والأجداد ، وبذلوا فى سبيل
 الحصول عليه ما ملكوا من عرق وجهه ، وصحة وشباب ..
 وقد يكونون صحواً من أجله بالكرامة والخلق .. ولقوا من
 وراء جمعه صنوف الشقاء فى الدنيا ، واستحقوا العذاب
 فى الآخرة .. لقد ضحّت الأجيال المتعاقبة بالعاجلة والآجلة
 لكى يجمسوا كل هذا الحشد من الثراء .. ثم ذهبوا جميعاً ..
 وخرج صاحبنا الغني المقعد المكسال .. الذى لا يستطيع
 أن يكسب مجرد القوت .. ليجد كل ماشق التعساء فى جمعه ،
 لقمة منبئة مريرة ، ويجد كل مهمة فى الحياة محصورة فى أن
 يصرف ذلك الكوم من الثراء .. وأن يأكل تلك اللقمة
 السائلة الجاهزة .. لا يطلب منه إلا جهد الصرف ، ومشقة
 المضغ ، ولو استطاع أن يسعين عن بفتح له فسه ويحرك له
 فكيه .. لنفس .. كان الله فى عونته .

هذا هو « حوده بك » ، وظيفته في الحياة .. غنى .. أو ..
رجيه .. أو ، صريف .. وكنت أرى فيه .. هو وأمثاله —
نصف إنسان .. فالإنسان الطبيعي وظيفته في الحياة .. هي
الحصول على القود لكن يصرفها في سبيل العيش .. أما هو
فكان نصف إنسان .. النصف المتمم .. للنصف الأول ..
وهو أبوه الذي أورثه ما ملك .. كان أبوه يحصل على القود
ولا يصرف .. أما هو فيصرف ما لم يحصل عليه .. صدق من
قال « مال الكيزي للنزهي » ، أما طمطم .. فقد كانت تقوم
بدور « أوجه الصرف » ، أو البالوعة التي تنسرب فيها ثروة
الآباء الكرام .

كانت امرأة فاتنة .. حامله من النوع الصانع الصارخ ..
الصاحب الضاح .. الذي يمسك بتلابيب الأبصار ، ويفغر
الأنفواه .. « ويلوح ، الرقاب .. كانت عند ما تجلس أو تسير
تشرّب إليها الأعين وتمتد الأعناق .. فإذا سارت ظلت
العيون تتبعها حتى تختفي .

ليس من السهل على المرأة أن تعترف بحمال امرأة أخرى ،
ولكنني أقر وأعترف أنها كانت أجمل من رأيت .
كانت عاحية الجسد ، بيضاء نقية ، وكان وجهها مرسوماً
بمتهى الإنفات لا عيب فيه ولا هنة ، وكانت به استدارة

حلوة ، وكانت شغافها مصنوعتين جيداً ، وألفها دقيق ،
وأهداها تلقى على عينيها الخضراوين الصاميتين ظلالاتاً فامة .
وكنت أحبا وأحسن الظن بها ، رغم طيشها ونزقها . .
وكنت واثقة فيها . . لم يحظر بيالى أن أعار منها على زوجى . .
أولاً لأنى لم أكن أشعر بأى استعداد للغيرة على زوجى . .
وثانياً لأنى كنت أعلم أن لها زوجها

ولكن حدث أن بدأت الملح إقشالا منها على زوجى ،
واقبالا منه عليها . . وقد يكون ذلك شئ غير جديد ، فلعلة
كان موحوداً من قبل . ولكن لم يفتح له عيني سوى حديث
زوجى المستتر عن أعصاب السادى ، وعن سرقة الأرواح
والتزويجات .

ولم أعر الأمر كبير اهتمام فى بادى الأمر ، ولم أبد أقل
اكتراث عندما كان يتركى اللعب النجى ببح ، ويخلو هو إليها
فى أحد الأركان يتهاوسان ، أو يحاول أن يذهب شوصياها
بالعربة إلى أى مكان تريد الذهاب إليه .

ولم أبد أقل حباية بتلك الأركان . . كنت أحترق بنفسى
لوحاولت الاهتمام بتلك الإنسان الساف ، زوجى . . وكنت
أعبر غيرتى عليه تكرماً له لا يستحقه .

ولكن المسألة بدأت تدهشنى عندما وجدت أن زوجها

• حوده بك ، لا يغير الأمر أيضاً كثير التفات ، وأنه لم
يظهر أقل غيرة ، ولا أنهه أن تخرج زوجته مع زوجي
ليوصلها بعربته . . رغم وجوده هو وعربته .
لقد بدا لي كأنه يجد المسألة جد طبيعية .

وحتى هذا لم يكن يثيرني .. فما كنت أعتبر نفسي مسؤولة
عن صيانة شرف الرجل ، وإثارة نخوته ورجولته . . إذا كان
لا ينافر على زوجته ، فذلك أمره وحده ، لا شأن لي به .
ولكن الذي أثارني تماماً . . وجعل دمي يغلي في عروق
هو أن الزوج المحترم ، بدأ بلازمي ، وينصب شراكه حولي ،
ويحاول أن يستعاض بي عن زوجته ، أو أن ينهش عرض
من نهش عرضه . . ولذا بي أجد نفسي - دون أن أدري -
داخل الحلقة المفرقة .

ولم يابه زوجي ولم يعترض . . كما لم يابه الآخر ولم
يعترض . فقد كان في شغل شاغل عني بزوجة صاحبه . . كما
كان صاحبه في شغل شاغل عن زوجته في .
وتملكني غيظ شديد . . فقد وجدته لا أزيد لدى
زوجي من سلعة بسيطة يملكها . . ليس أسهل عليه أن
يستبدلها أو يستعاض عنها .

ولم أجد هناك فائدة من أن أثير زوجي أو أثور عليه ،

أو أهمه أنى لست على استعداد بالقيام بذلك الدور المهيمن ،
فقد أدركت أنه لن يعاينى . . ولن يقلعه عن غيه خوف على
عرص ، أو ثورة على شرف . . وما دام قد استساغ لقمة
غيره . . فليستغ غيره لقمة . . أو - كما قال - ما دام ينهش
فلا بأس عليه من أن ينهش .

ورأيت أن خير ما أعله هو أن ، أرمى طوبته . . وأن
أدافع عن نفسى بنفسى وأن أتجاهله وأتغافل عنه . . معتبره
بنفسى بلا روج . . وأن أتركه يسير فى غيه ، على أن أصد
عن نفسى هجوم الآخر . . أنفيه وأبحاثه . . وأن أتسل
ماجية بنفسى . . هاربة من عصبه الدئاب .

ليفعل زوجى ما يفعل . . فما توقعت منه إلا كل نقيصة . .
وما كان لى أن أدهش من أى مسكر تأتيه عصته . . عصبه
النوات المدللة المرفهة . . الأستقراطية العليا . . القديرة
على كل سفالة . . الرقيقة المنتهكة . . الراطنة بالفرنسية . .
المترفعة عن الشعب . . شعب الهيج والأوباش .

ليعاذل زوجى من يشاء . . وليسرق من الزوجات من
يرغب . : فلن يكون لى به شأن . . ولن أكرمه بالغيرة أو
الاهتمام . . إن واجبى هو أن أترفع عنهم جميعاً . . وأن أبني
شريعة عفة فى هذا الوسط الملوّث .

أجل .. سادعه وشأنه .. ولكن .. على نفسي ..
وهكذا بدأت أنخذ لنفسي خطة الانكماش والتباعد ..
وتحاشى هجة السوء .. وتجنب محمود شكرى على الاختص
والإعراض عنه .. والفور منه .. حتى أصده تماماً .

وأملت من الخروج ، وخاصة إلى الادي . وبدأت أقبح
في دارى . ولم أجد إلحاحاً من روى في اصطحابي معه كما كان
يفعل دائماً عندما كنت أحاول أن أنحلف في البيت .. بل
بدالى أن ذلك قد صادف هوى في نفسه إذ كان يتبع له
فرصة الانطلاق وحده والتحرر من قيود صحتي حتى يخلو
له الجو مع صاحبه الجديدة : ططم هانم .

وانقطعت تماماً عن الذهاب إلى النادي .. حتى كان
موعد الحفل السنوى ، وذهبت بصحبة زوجى إلى الادي في
اليوم الهائى للاحتفال ، وكان النادي قد اكتظ بالمشاهدين ،
ورأيت مدرجات طويلة قد أقيمت . على الجانب الأيسر
للساحة .. الجانب الملاصق للسور المطل على الليل ، وابصرت
الأعلام الملونة ترفرف في أعلى الأعمدة .. والجواجز
البيضاء قد رصت فوق الأرض الخضراء ، وفي أحد الأركان
أقيمت منصة الحكام وقد أخذوا يتشاورون ويعلو صوت
أحدهم في مكبر الصوت بين أوتة وأخرى .

وانتهت وزوجي إلى مبنى الأعضاء . وقد بدأ كخليفة
للحل ، وأخذ الضباط يحولون في المكان بأحذيتهم الطويلة
وأردارهم اللامعة ، والرد الفضي الذي يحل أكتافهم .. أما
المتساقون المدنيون فكانوا يدور بأحذيتهم السوداء
ويتظلمونهم البيضاء. وحترم الكهنة الطويلة .
وقد شاع في المكان حوّة من الآلهة والأرستقراطية ،
وبدا كأنه معرض جمال وأزياء .. ووجهة .. وأخذ
المصورّون الصحفيون يلتقطون الصور للشخصيات المعروفة
والوجوه الخيلة .

وصعدت وزوجي إلى الشرفة العليا .. وملتفت زوجي
يمساً ويساراً كأنه يبحث عن شيء معين .. ثم وجدته يسك
يبدى ويقودني إلى أحد الأركان قائلا :

— هيا بنا نجلس بجوار حورده وططم .
وسرت بجواره .. فقد كان من الحق أن أبدى أي حركة
غير طبيعية للتراجع أو الانسحاب أمام حشد الناس الذي
يحدق فينا .

ولمّ التراجع ؟

ماذا يضرك من أن أصاحبهما خلال الحفل ثم نفرق

بعد ذلك ؟

وتبادلنا التحيات وسألاهما وغيرهما من الرفاق الجالسين
معهما . . عن سبب احتفائي وصراني عن الحجى . إلى الناس
فضحكت وقلت لاني كنت متوعدة المراج .

وجلسا تتحدث ، وأعطاني أحدهم برناح المسابقات . .
وأخفت أثنى على أسماء المتسابقين نظرة عابرة . . توفف بصرى
خلالها أمام اسم بارز من بين الاسماء وهو « ملازم أول
أحمد عبد السلام » .

ودعشت قليلا لأنى لم أتوقع أن أجده مشتركا في
المسابقات ، ولأنى لم أبصره قط راكبا في للناس . . وحتى
اليوم لم ألمح وجهه بين وجوه الضباط الرائحة الغادية ، رغم أنى
كنت أبحث عنه بعينى خفية . . خفية حتى عن نفسى .

وبدأ السباق . . ودخل المتسابق الأول الساحة وأخذ في
القفز . . ولم تمض بضعة ثوان حتى أحسست به « طمطم » تنهض
وتنسحب من جوارنا مستأذنة فائقة إنها ستعود حالا .

وانتهى المتسابق الأول . . وعلت أصدااء التصفيق . . ثم
بودي على المتسابق الثانى . . وبدأ القفز .

وبنفس الطريقة تسلل زوجى من جوارى ، ووجدت
نفسى أجلس وحيدة مع محمود شكرى .

وشمرت يدى يغلى فى عروقى .

إني لم أحاول قط أن أغار .. أو أنصرف بأى حق .
ليفعل زوجى ما شاء .. ولتفعل الأخرى ما شاءت ..
لينهب الإثنان معاً . إلى الحميم . فذلك ما لا أعبا به مطلقاً
ولكن تسلمهم وقتذاك .. بتلك الطريقة المكشوفة ..
ونزكى وحيدة مع الزوج البارد لتعاضى .. وتهاوس
الناس .. وتحول أبصارهم من ساحة السباق إلى جعلنى أعلى
بالعصب .

لم تعد المسألة مسألة غيرة .. وليكنها كرامة مهدرة
وكبرياء عظيمة .. واستهتارى .. واستخفاف بعواطفى .. على
ملا من الناس .

وم أستطع أن أمنع ذلك الدم المتصاعد إلى وجهى ..
والحرارة التى تبعث منه .

ورد من ثورتى أنى أحسست بيد الروح الاحمق تسلس
فتوضع على يدي بمنتهى البساطة .

ولم أجد وسيلة تكبح جماح غصبي ومع حدوث فصيحة
سوى أن أهض أنا الأخرى بهدوء ، وأعود أدراجى إلى البيت
وأنتظر عودة زوجى حتى أسوى الأمر معه .

وكما فعل الإثنان فعلت ، وتسلسل بين الصفوف هائبة
الدرج إلى أسفل ، ودلفت من الممر الضيق متجهة إلى الشرقة

السفلى الى كانت توضع فيها منضدة البنج بنج .. عندما
أوشكت أن أضرم بشخص قادم من الشرق .
ورفعت إليه بصرى .. متممة بيضه كلمات اعتذار ..
فوجدته أحمد .

وحاولت جردى أن أخفى ما بي من انفعال .. ومددت
إليه يدي مبتسمة فشده عليا .. وقد نمل وجهه سرورا ..
وسألني سؤاله التقليدى :

— إربك يا عايده !

— الحمد لله .

— إلى أين ؟

— إلى البيت .

— لمه ؟

— أحس ببعض التعب .

وبدا عليه الانزعاج وتساءل :

— كيف ؟

— صداع حفيف .. ولكنى أفضل أن أستريح .

— ألا تبقيين قليلا .. على الأقل حتى تشاهدينى ؟

وذكرت كيف كان دائما يقول لى إن أحب أمنية السم

هو أن أشاهده يقفز أمامي في مسابقة ، ويعتقد أنه سيستمد
من وجودي قوة تجعله يأتي بالمعجزات ، ويقفز إلى عنان
السماء .

وبدا عليّ التردد .. فعاد يقول :
— إنك لم تشاهديني أقفز قط ، وسأستمد من وجودك
قوة . إذا عرفت أنك تشاهديني فلماذا أتى فتر .. أستبقي ؟
ولم أكن أستطيع أن أقول : لا . فهزرت رأسي موافقة .
وشاع في وجهه الرضا وقال :
— أمامي اثنان حتى يحل دوري .. لن أجعلك تفتقرين
طويلاً :

وسرت إلى الصالون الزجاجي .. وهو يسير بجواري ،
واتخذت مجلسي على مقعد أمام إحدى الموائد ، وأشارت إليه
بالجلوس .. وتردد قليلاً وسألي في أدب ، ولهجة ملؤها
الاحترام :

— أين تهاني بك ؟
— تهاني بك ؟
وكدت أفهقه ساخرة .
ماذا أقول له ؟ أقول إنه « زاغ » مع عشيقته وتركني
ليتسلى بي زوج عشيقته ؟

تصوروا لو أني قلت له هذا ، وهي الحقيقة المسطحة
بلا أى مبالغة .. ماذا كان قائلانى ، وهو الذى يأبى الخلوس
دون أن يسألنى .. عن زوجى .. سعادة إليه المحترم .. خشية
أن يكون فى جلوسه بجوارى أمام الناس — وهو ابن عاتى —
ما يضايق زوجى .

تصوروا لو أني قلت له :
« اجلس .. إن زوجى لا يأبه كثيراً .. إياك على الأقل
أولى من الغريب .. »

ولكنى لم أر ضرورة للفضائح ، ولم أجد خيراً من أن
أقول له ببساطة :

— لقد كان هنا منذ لحظة ولاد أن باقى بعد قليل .

« اجلس بجوارى ، وراى بيننا — فى أول الأمر — صمت
قلق مضطرب ، وأحسنت بموجة الغضب التى كانت تحتاجنى
منذ رهة قد سكست ، وبالثورة التى كانت تصطخب
فى صدرى قد هدأت ، وسرى إلى نفسى — برغى — شعور
منع لبيد متزعزع من أغوار الماضى السحيق .

وطال الصمت ، وأنا لا أقول شيئاً ، إذ لم أجد فى رأسى
ما ، لا سوى بضع كلمات تافهة ، لا تناسب قط مع حرارة
الأكاسيس التى ترخر بها نفسى .

وأخيراً قال .. لجرد قطع الصمت :

— كيف حالك ؟

— الحمد لله .. وأنت ؟

وأطرق برأسه مفكراً ثم أجاب :

— لا بأس .. الحياه تسير .

وتذكرت أحاديثه عن أمانيه .. الأمانى المرجرة

والتي يعيش بها زمناً رغداً ، وقلت ضاحكة :

— كيف حال الأمانى ؟

— على خير ما يرام .

— أما زالت كما هي أمانى مستطاعة وأمانى وهمية ؟

— هل ما زلت تذكرن ؟ .. إلى لا أستطيع الديش

بلا أمان .. ولكن الأمانى تنعير مع الزمن .. فهي إما أن

تتحقق أو لا تتحقق .. فما تحقق منها سقط من حساب

الأمانى .. وما لم يتحقق أصابنا منه اليأس .. واستبدلنا به

غيره مما يتناسب مع تطور نفوسنا .

— هل ما زلت تمنى أن تكون نابليون أو شكسبير ؟

أم أن هناك أمانى أخرى تعيش بها زمناً رغداً ؟

وضحك في قهقهة خفيفة وأجاب وهو ينظر إلى عيني :

— من هذه الناحية .. لقد تبدلت أمانى تماماً .. لقد
بنت من مابليون وشكسبير .. لم تعد هذه الأمانى تطربنى
كما كانت من قبل .. لقد أصبحت لى أمنية جديدة .. بنفس
الاستحالة ونفس البعد .. لا أمل فى تحقيقها ، ولا رجاء
فى الحصول عليها .. لكى مع ذلك أحياها زماً وغداً .

— ترى ما هى الأمنية الجديدة ؟

وسمت برهة ، وحاول أن يتشاغل بمشاهدة القمر ..
ولكى عدت أسأل :

— ما هى ؟

ولم يجب .. عدت ألح :

— ألن تقول لى ما هى ؟

— لا .. لا أستطيع .

— ولامانى الأخرى .. التى كنت ترجو تحقيقها ؟

— تحققت كلها .. تقريباً .. تحققت كما أراد القدر ،

لا كما أردت أنا ، شقة متواضعة ، وزوجة طيبة ، وعربة
صغيرة وعلى قد الحال .. أما الابن فى الطريق .. ننتظر
قدومه فى القريب العاجل .

— أحقاً توشك أن تصبح أباً ؟

- أ كثر على ؟
- ما زلت صغيراً . . ماذا تنوى أن تسمى ابنك ؟
- لو كان ولد أسمته علياً .
- ولو كانت بنتاً ؟
- أنت أدري بأحب الأسماء إلى .
- حتى الآن ؟
- حتى آخر العمر .
- وأحبست أن مشاعري ترفف ، وعواظي ترق ،
وخشيت من نفسي ومن الجوارح الشاعري الذي أحاطا ، وهت
أحوال بحري الحديث ؟
- كيف صار ابتسام ؟
- ونجح قول في تبديد سحب الحنين التي خيمت علينا ،
وعاد كل منا إلى نفسه ، وأجاني بهدوء :
- الحمد لله ، لقد أجهدهما الحمل كثيراً ، منذ الشهر
الأول وهي في تعب مستمر . . قه وغيبان ، وقد بدا عليها
الضعف والإرهاق ، وبخشي الطيب الذي يعودها ألا يكون
الجنين في بطنها في رضع طبيعي .
- وبدأ لي من طبعته للمرة الأولى أنه ينوء بعبه حياته . .

وأنه لم يعد ذلك الإنسان الممتلئ بالآمال .. الشدائد أثقلت
بالحياء والمستقبل .

أجل .. إنه لا يبدو أسعد مني حالا ، ووددت لو طالعت
جلستنا وأفضى كل منا للآخر بهوميه ، وتشاركنا في الشكوى .
ألم يقل لي في آخر مرة إننا يجب أن نفترق أصغاه ..
وأن نحول جنبنا إلى صداقة ؟

وقلت له في صوت خافت :

— إنك لا تبدو سعيداً !

— لا أنا سعيد ، ولا أنا شقي .. حياتي طبيعية كغيري
من المخلوقات .. أكل ، وشرب ، ونوم ، ومشاعب ،
ووقت يمر .. ماذا يمكن أن نرجو من الحياة أكثر من
ذلك .. إن الحقائق ليس فيها شيء من بهاء الأمان وروعتها .
وعلا صوت الكبير من شرقه الحكم يأمر أحد
المنسابقين بالبدء في القفز ، وبذبه الذي يليه — الملازم أول
أحمد عبد السلام — للاستعداد .

وقام أحمد .. ومد يده يشد بها على يدي قبل أن يذهب
لامتطاء جواده .. وهتفت به بلهجة ملؤها الاخلاص :
— شد حيلك .. لا بد أن تفوز .

— أنت التي ستجعليني أفوز .

— إن شاء الله .

وبعد انصرافه جلست مكانى برهة ، ثم غادرت الصالون
إلى الشرفة الخارجية . . حيث كان يجلس حشد من الأصدقاء
والصديقات ، فاتخذت بجلى بينهم ، وجلست أرقب الفوز .
واتمى دور الراكب دون أن ألقى إليه كثير التفات . .
فقد كانت الأفكار تصطبغ في رأسي ، وكان الذهن يتنقل
في شروحه بين غضب على الروح ودعاء لفوز الحبيب . . أعنى
الحبيب السابق .

وبدا دور أحمد . . . وخرج بجواده من الساحة
الصغيرة ، التي تصطف بها خيل المتسابقين ، خلف مظلة
الحكام . . وتقدم الهوينى في ثقة واعتداد . . رافع
الرأس ، بارز الصدر . . ورفع يده بالتحية للحكام ، ثم أدار
جواده تجاه السدود .

وأحسست بقلبي يخفق بشدة . . كأنني أنا التي امتطيت
الجواد وأوشك أن أفوز . . وخيل إلي أن السدود مرتفعة
جداً ، وتمنيت أن أصبح به لأمنعه عن الفوز خشية عليه .
ولكنني لم أكن أملك إلا أن أكتنم أنفاسي وأرقب .

وانطلق الجواد يصرب الأرض بشدة وندرفع رأسه
وفتح خياشيمه وسار ببطء نحو سد الأول ، وأخذ يقترب
حتى أخفى منه على قبيد خطوات دون أن يبدو أنه قد تحفز
للوثوب ودون أن تكون لديه القوة الدافعة لتجاوز السد ،
حتى كنت أجزم أنه لن يقفز . . ومع ذلك فأكاد يصل
إلى السد حتى وجدته قد وثب بقدميه الأماميتين إلى أعلا ، ثم
هبط بهما من الناحية الأخرى مخلصاً قدميه الخلفيتين بمنتهى
البساطة والسهولة ، وأتم القفزة بهدوء كأنه لم يقفز ، ثم اتجه
إلى السد الذى يليه .

وكان السباق سباق قوة التحمل ، وهو سباق شاق ..
مرتفع الحواجز متعددتها لا يكاد الراكب يسلم فيه من الخطأ
ولذا لا يعمل فيه حساب للزمن .

واسترد أحمد ، فى قفزه عابراً الحواجز الواحد تلو الآخر
بمنتهى الهدوء والثقة ، والجواد يخلص سيقانه بمهارة عجيبة .

وملأنى الاطمئنان وأنا أراه يقفز بسهولة وأحسست بفخر
وكبرياء وأنا أسمع همسات الإعجاب تعلو من حولي ، وأبصرت
الأيدي تتحفز للتصفيق وقد أوشك أحمد ، أن ينتهى دون أن
يخطئ مرة واحدة .

ولم يكن قد بقى سوى الحاجز الأخير وهو حائط خشبي ،

رصد في أعلاه قوالب خشبية أشبه بقوالب الطوب .. ووثب
الجوادر فوق السد محملاً قدميه الأماميتين ، ولكنه لم يكبد
يهبط إلى الأرض ليخلص الخلفيتين حتى تعثر وكبا . واقلب
تراكمه في الهواء ، ودار الاثنان واختلط الراكب بالجوادر حتى
بدا كأنهما قد أصبحا قطعة واحدة .

وانطلقت متى صرخة مدوية .. وانطلقت بلا قصد
ولا إرادة .. فقد أحسست كأن يداً قاسية تعصر قلبي .. وكأنى
أنا الذى أدور على الأرض مع الجوادر ، وخيمت على عيني
سحابة عندما أبصرت ، أحمد ، يرقد وراى الحاجز بلا حراك ،
ثم أبصرت المربعات تخطط في ناظرى .. والأرض تمايل
، تتأرجع ، ولم أعد أحس بشئ ..

لقد صرخت ، وسقطت معشياً على ..

كيف حدث هذا ؟ . كيف أفلتت من الزمام ، ففقدت
ميطرتي على نفسي ؟ لقد كان منى عملاً لا شعورياً ، ولو كنت
أملك نفسى وكان أمرى يبدى لما وقع منى مثل هذا الأمر
الذى قد يصير أمراً مشيناً والذى يفضع خيثة النفس وربتها
حجب القلب .

ولكن كيف أراه يسقط تلك السقطة المروعة وأعمالك
نفسى ؟ كيف أرى الجوادر يسقط فوقه وأبصر جسده للعزير

الحبيب مسجى على الأرض ، ولا أصرح ولا أتقدم مشاعري ؟
لقد حركت سقطته كامن الحب ، وأيقظت مدجج المشاعر
فلم أر في الحسد الماوى المسجى .. إلا أحمد ، القديم ، حبيب
الروح وتوأم النفس .

وأفقت بعد قليل لأجد نفسى مضطجعة على أريكى في
الصالون ، وقد تجمع الأصدقاء حولى يحاولون إعادتي إلى
رشدى ، ومن بينهم استطعت أن أميز وجه زوجى ، وقد عاتته
علامات الدهش والارتعاج .

وللمرة الثانية وجدتني أتصرف على غير إرادة منى فأسأل
في لهمة وارتياح :

— ماذا حدث له ؟

وقال أحد الأصدقاء مهدئاً :

— لا خوف عليه .. ليس به سوى بعض الرضوض .
واستطعت أن ألمح في بعض الوجوه تساؤلاً وتغامراً .
ثم بدأ المنح ينفض من حولى ، ويصرفون لمشاهدة
المبايق ، ووجدت نفسى وحيدة مع زوجى .

وتذكرت فعلته الشائسة ، وتسلله مع صاحبه ، وتركه
إلى سخرية أمام الناس ، وكدت أصرخ في وجهه ، لكن

تذكرت ما فعلته أنا ، على غير إرادة مني . . من إغواء وهفوة
على رجل غريب .

قد أستطيع أن أعتذر أمام الناس بصلة القرى التي بيننا ..
وأني لم أصب بذلك الإغواء إلا لأنه ابن عاتى ، ولكن أمام
نفسى . . كنت أحس أنني مذنبه . . وأنى قد أعطيت زوجى
واحدة بواحدة .





على شفا الطاهرة

وزوجي إلى الدار يومذاك قبل أن تنتهي
عمر المسابقات ، وران الصمت بيننا خلال العودة ،
فلم بمحاول أحدا أن يناقش صاحبه الحساب أو ببس بينت
شفة عما يصطخب في رأسه .

ولم أكن أدري بالضبط نوع الأفكار التي تجول بخاطره .
ولما ماذا يمكن أن يكون رأيه فيما حدث . . لقد كان هناك
شئ - في رأسه ، وهو جالس إلى عجلة القيادة ، شارد الذهن ،
غارب البال .

ما هو ؟

غيرة ؟ . غضب ؟ . ثورة مكبوتة ؟ . ندم على ما فعل ،
وخوف من الحساب ؟ قلق وانتظار ؟

من يدري ؟ !

لو أنه كان رجلا عادياً ، وحدث من زوجته ما حدث ،
في ظروف عادية . . لما شككت في أنه غاضب لكرامته
تهنئ الغيرة صدره ، وتمصطخب الثورة بين جوانحه ! !

أى زوج يحتمل أن يرى زوجته تصرخ وبغى عليها في
حفل عام من أجل إنسان سواء ؟

قد أكون رقيقة القلب ، وقد يكون الرجل ابن خالتي ،

ولكن هل يمنع ذلك .. من أن تسرى في نفسه إحساسات
 العيرة والنصب والحجل من أقوال الناس ؟
 هما ما كان يجب أن يشعر به كل زوج .
 ولكن زوجي .. الذي يتركني بين الناس لأجالس زوج
 عشيقته دون أن يأبه لأقوال الناس .
 زوجي الذي حاول أن يذعنني في الحلقة المفرغة ..
 يتركني في عصبة الذناب ، ويطبق عليّ قانون النهش .
 هل يمكن أن ينار وأن يثور ؟
 لأنني أحس أنني مذنبه .. لأنني أكره أن أسبب لزوجي
 ما يهينه أمام الناس وأكره أن أخدش كرامته وأجرح كبريائه .
 وأحس أنني مذنبه .. لأنني أدرى من غيري بمشاعري
 إن ضميري يخبرني لأنني لم أستطع بعد أن أقتل حبي .. وكل
 ما استطعت فعله هو أن أكبه وأكتمه .. فلما أصدت بأول
 هزة .. انطلق من صدري صارخاً فاصحاً
 لا .. لا .. لا .. ما كان يليق بي أن أصل ما فعلت
 ودخلنا الدار في صمت ، وذهني يحول بين الزوج الصامت
 الفاضل الأفكار ، وبين الحبيب الساقط عن جواده المسجى
 على الأرض .

ومضت اللبلة بسلام .. سلام في الظاهر ، والقلوب
منطوية على ما بها .. ثم مرت الأيام بعد ذلك .. هادئة
واكدة .. لا يكاد يحدث أحدا الآحر إلا الأحاديث الهامة
الضرورية .. ونزكته يخرج وحده إلا تضع مرآت صحبه
إلى السبنا ، وعدا ذلك كنت أقيم وحدي في الدار أنسلي
بالعمل فيها أو في الحديقة أو بالقراءة .

ولم أحاول في هذه الأثناء أن أتدخل قط فيما يعمله
زوجي ، أو أسأله إلى أين يذهب أو ماذا يفعل . ولم أحاول
كذلك الاتصال به أحد ، سوى مرة واحدة أطمأنت فيها
بالتليفون على صحته ، وتأكدت أنه أفاق من سقطته بعد
قليل ، وأنه لم يصب منها إلا بضعة رضوض بسيطة .

وحل الصيف ، وانتقلنا إلى الإسكندرية ، ووجدت
نفسى مضطرة لأن أخوض معه مرة أخرى غمار التجربة
الاولى ، وأن أعود إلى رفقة الدناب الذين كانوا يحيطون
بما ليل نهار .. ففي النهار على الشاطئ وفي الكاين ، وفي الليل
ها بين كارتون وسان استفانو وغيرهما من أماكن اللهو لتي
كننا نقضى بها السهرة .

لم يكن هناك وسيلة للفرار أو التاعد . إذ لم يكن من
المعقول أن أحن نفسى في الدار ، ولا أن أذهب إلى البحر ،

ولا سيما بعد أن مللت طول الوحدة والتبوع في الدار ،
كما كنت في القاهرة .

ووجدت نفسى مكروهة على مشاهدة بقية القصة . . قصة
الغرام للعلی التي كان زوجى أحد أطرافها ، ومدأت أجلس
في الكاين وأرقب في صمت كما تعودت أن أفعل دائماً . .
وكان زوجى إنسان غريب لا يهمنى أمره .

كان المقام لا يكاد يستقر بنا في الكاين ، حتى ترندى
ططمطم . . ما يره رقيق دقيق يبرز منان جسدھا . .
ثم تنطلق شبه عارية ووراءھا زوجى يعدوان تجاه البحر .
وبعد برهة تطويھا الأمواح بعد أن يعتليا صهوة برسوار .
وتمر الوقت وأنا جالسة في الكاين وحيدة مع الزوج
- زوج ططمطم - ومع شبة أخرى من الأصدقاء أبرز من فيهم
للفرسان الثلاثة .

ولست أدرى كيف فاتنى الحديث عن هؤلاء من قبل
وهم مخلوقات عجيبة تستحق الذكر . . أدرى بين الرجال نسيح
وحدم .

الفرسان الثلاثة : كيكو ، ومفلو ، وبنجو ، أحماؤهم
هكذا لا تحرف فيها ولا تعورر ، هم إحدى عیناب الطیقة
إياھا . . الطیقة المدللة المرفقة .

وهم نوع عجيب من الآدميين .. يصعب على المرء تمييز
كبنه ، ويتعذر عليه معرفة جنسه .. فهم مزيج من الرجال
ومن ربات الحجال .. أو هم - من حق القول عليهم - أشباه
رجال ، ولا رجال .

يطالعكم « كيكو » بشكل رجل لا شك في رجوانته ..
فسيح الجبهة ، أسود الشعر ، عريض الصدغين ، متين البنيان ،
كثيف شعر الذراعين والصدر والساقين ، ليس به ما يوحى
بشيء سوى الرجولة الكاملة ، وليس لديه أية مواهب للتخنت
ومع ذلك فما يكاد يتحدث حتى يروعكم حديثه ، وتصرعكم
لهجة الرقاعة والتخنت التي تسيل منه .. فهو يتنى ويتدل ،
ويسلو ويأوه ، ويحشر كلمة « ماما » في كل جملة ، فهو
يقول إن « ماما » نهته عن كذا ، و « ماما » ابتاعت له كذا ،
ولا يفتأ يتعوج وينهر من حوله بقوله « إيه يا ختي ده .. »
ولا يملن عن سخطه وغضبه إلا بكلمة « يا سم .. »

هكذا كان كيكو .. ابن أمه ، وسليل عائلة كبيرة
الاسم ، عريقة الأصل ، كريمة المعتقد .. رحم الله أصلها ،
وأكرم مثوى الجدود الغابرين الذين تركز نسلهم في هذا
الخط الموثق المذكور .

أما الفارس الثاني فهو يروعكم من أول نظرة بشعره

الأصفر الذهبي المسدول على قفاه ، وجسده الأبيض الناعم
البض ، وقص الشفيون على يديه ، وأصابع قدميه تطل
من « الصندل ، ذى الكعب العالي ، وقد بدا في أطرافها
الطلاء الأحمر . « وحسوه في عين التي ما يصل على النبي . .
لا تظنوا بقولي تشيماً ولا تتوهموا فيه قرينة كاذبة ، فإني
أقسم غير حاتئة : أني لم أبصر أطراف الرجل مرة واحدة
غير مطالبة . بالميكير . .

أما العرس الثالث ، فما كان يقل عن أخويه فضلاً
في التخنث والرقاعة ، والدلال والميوعة .

مع هؤلاء . . وغيرهم . . كنت أنصى معظم وقتي . .
وروجي غريق في حبه بين أمواج البحر . . وزوج عشيقته
مارال يرى الشباك حولي ، ويصب الأحاويل . . تاركاً
زوجته نلهو مع زوجي كما تشاء .

وفي المساء كنا نشد رحالنا إلى كارتون أو المونسنيير . .
حيث يعاد تمثيل المسرحية إماما . . فتحاصر روجي صاحبته
وأجلس لمشاهدتهما . . ويجلس زوجها لعارلتي ، والرفاق
من حولنا .

ويزر الصيف وأنا صامدة صابرة . . كنت أثور في مبدأ
الأسر . . ثم أقام . . واجدة صعوبة في المقاومة ، وتهدئة

نفسى .. وكنت فى بعض الأحيان أوشك أن أهرع إلى أبى ،
ولكنى أعود فأخبر من نفسى .

ماذا يمكن أن يفعل لى أبى ؟ إنى أعرفه معرفة جيدة ،
وأعرف جموده وصراجه ، وسخائه وماديته .

ومن يدرينى أنه لن ينهرنى ويؤيبنى .. أو يتهمنى بأنى
لا أريد البقاء مع زوجى .. لأنى لا أحبه .. وأحب إنساناً
غيره ؟ ..

وعدنا إلى القاهرة أخيراً .. لنعاود سيرتنا الأولى .. أما
قابعة فى الدار .. وهو منطلق فى غيه .. محن فى ضلالتة .
ومرّ الخريف المحجب إلى نفسى .. المثير لأجمل ذكرياتى .
وبدأت أتعود حياتى .. واجدة كثير من التحزبة فى خلوتى
بالدار ، وفى عمل فى الحديقة بين الزهور المحببة إلى نفسى ،
وفى كثرة القراءة .

وفى ذات يوم وقد جلسا للقضاء قال لى زوجى :
— لقد دعاها أبى للسفر إلى العزبة نقضاء بعضه أيام .
واستمرت فى تناول طعامى دون أن أجيب .. فعاد
يتسأل :

— هل لديك مانع ؟

— لا .

— إذا سئذهب من الغد ، فقد دعا معنا بعض الأصدقاء .
— كما تشاء .

ولم أجد هناك ما يمنع من الذهاب . . فقد كان كل شيء
لدى سواء ، ولم أكد أفضل حالة عن حالة . . فقد تعودت
ماأما فيه حتى لم أعد أحس به ، بل أضحيت تماماً . كما قال أحد .
ولا سعيذة ولا شقية . . أكل ، وشرب ، ونوم ، ومتاعب ،
ووقت يمر . ماذا يمكن أن نرجو من الحياة أكثر من ذلك ؟
وفي اليوم التالي ذهبنا إلى العزبه . ولم أكن قد ذهبت
إليها سوى تلك المرة التي تم غيا الخطبة . . والتي كنت فيها
مذهولة ، لا أكاد أرى من حولي شيئاً .

وكانت الدار نفحة أثقة . . قائمة وسط أشجار البرتقال
والمانجو والكروم ومختلف أشجار الفاكهة .

والتقينا هناك بعض أصدقاء أبيه وأسره ، من استضافهم
معاً ، أو استضافنا معهم ، وكانوا خليطاً من أنواع بخلة من
النساء والرجال ، واستطعت أن أجد في طبقة الدوات أتراساً
أخرى غير تلك التي تعودت أن أبصرها في هذه الطبقة . .
أنواعاً تستدعي الاحترام ، لم تصحها الضرور ، ولم يتنقها
التدليل . . لم تمنح وفرة النعمة من نفوسهم ، متانة خلقهم ،
واختيشان نفوسهم .

نقد رأيت من بين الشباب والفتيات العريق الأصل ،
الموهوبين الثراء ، من لا يعرف آخر رقصة .. ومن لم يسمع
آخر أسطوانة أفريقية ، ووجدت من بينهم من يحفظ لشوقي
ولبنبي ، ولابن الرومي . ومن قرأ لكتابنا واحداً واحداً .
ووجدت من بينهم من يؤمن بمصر .. ويحب مصر ..
وجدت منهم من يتكلم العربية كأحد أبنائها !!

واستمتعت بدعوة الريف إلى حد كبير . وكان الجو صحواً
ولشمس مشرقة ، ولم تقطع السحاب المتناثرة في السماء في
حجب أشعتها إلا هبات مقصعة ، أما بقية اليوم فكانت
تسطع دافئة فوق الحضرة المعتدة على مدى البصر .

وكان مفروضاً أن تقضى في العزلة ثلاثة أيام ، ولكني
هوجت في اليوم الثاني زوحي يسبني أنه لا بد أن يعود إلى
القاهرة لأنه تذكر أن لديه عملاً في الشركة لا بد من إنجازه وأنه
سيحاول أن يعود في نفس اليوم .

وأدهشني قوله .. فترفعت قفاً أنه يمكن أن يكون لدى
زوجي عمل - أياً كان - يستدعي سرعة الانجهاز .. فقد كنت
أعلم أولاً أنه بلا عمل ، وثانياً حتى لو كان لديه عمل فـ كان
بالذي يحمل عبء مسؤولية ، أو يقدر عاقبة أو بأنه لنتيجة ،
وما كان بالإنسان الذي يقطع نزهة لكي ينجز عملاً .

ولكنني لم أحاول أن أناقشه .. فقد كنت أربأ بنفسى عن
 الاهتمام به .. وما كنت أهتم بوجوده أو عدم وجوده ، ،
 ولا كنت أهتم بتصرفاته إلا من حيث الشكليات ، فقد كنت
 أخشى الفضائح وأكره أن نكون مضطه الأمواء .
 وعاد إلى القاهرة ومضى اليوم دون أن يحضر ، وقضيت
 ليلتي وحيدة . وفي اليوم التالى لم يحضر حتى الطهيرة .
 وبدأت أحس بالثورة تعتل في نفسى ، فقد كانت تلك
 هى الشكليات التى تحز في نفسى .
 كنت أكره أن أفقد اعتبارى وأبدو مهجورة أمام هؤلاء
 الغرباء ، وبينهم أماس محترمون ، لا يقارنون من حيث الاعتبار
 بشرذمة الصحاب النافذين الذين تعدوا دنا رفقتهم .
 وصحمت في نفسى على أن أعود إلى مصر ، وأن أعطيه
 درساً قاسياً حتى يتعلم كيف يتصرف أمام الناس .
 وكان بعض الضيوف سيعودون بعد العشاء إلى القاهرة ،
 فعزمت على المودة معهم .
 وسارت العربى بنا قهّب الأرض ، وأنا مكروبة الصدر ،
 مهمومة النفس ، أتعجب من هذا الوضع الذى صرت فيه ..
 وأتعجب من سخرية القدر ، وأذكر المثل القائل : رضيت بألم
 وألم من راضى بي ..

ووصلنا إلى القاهرة وقد خيم الظلام ، وسارت العربات تقطع
شوارع القاهرة حتى أوصتني إلى باب الدار وشكرت أصحابها
وسألهم التفضل بالدخول ، ثم ودعهم ودلقت إلى الداخل .
ولم يبد من النوافذ الأمامية بصيص ضوء ، ولم أكن
أتوقع بالطبع أن أجد زواحي بالدار . . وكذلك كنت أعلم
أن الخدم يبيتون في بيوتهم فقد منحهم إجازة ثلاثة أيام ،
وهي المدة التي كنت أتوقع قضاءها في العزبة .

وحدث الله أني أحفظ معي بأحد مفاتيح الباب ،
وعبرت عن الحديقة ، وصعدت بضع لدرجات المؤدية إلى
الباب ، وأنا أحس بشيء من الرهبة والوجل ، فأتعتدت
أن أكون وحيدة في الدار . وامتدت يدي إلى مفتاح الكهرباء
المجاور للباب وضغطت عليه فابعث الضوء في الشرفة الكائنة
أمام الباب ، وأعاد إلى نفسي الطمأنينة .

وضعت المفتاح في الثقب وأدبرته ، ثم دفعت الباب
فانفتح بسهولة ، . وخطوت خطوة إلى الداخل مادة يدي
وراء الباب حيث مفتاح إضاءة الصالة .

وفي اللحظة التي ضغطت فيها على المفتاح الكهربي
وغر الزور أضاء الصالة ، وصل إلى أذني صوت يصيح
متأثلا في دعر :

.. من ؟

وكانت مفاجأة الصوت شديدة الوقع على نفسى ، بحيث
أصابنى برجمة شديدة ، ويستطيع أى إنسان أن يدرك
هذى ارتياحى وأما أخطو من الباب دون أن يكون لدى
أقل فكرة عن وجود إنسان بالداخل .

وزال الذعر سريعاً لتحل محله دهشة بالغة عندما ميزت
في الصوت المتسائل صوت زوجى . وعندما رأيته يقف بباب
الردهة المؤدية إلى حجرة النوم ، وقد ارتدى « البيجامة » .
عجباً !! أى ربح هوجاء قذفت به إلى الدار فى هذه
الساعة المبكرة ؟

لعله مريض . . وقد أوى إلى البيت ليستريح !
ولكن ما باله يقف حامداً فى مكانه وقد فغرفاه ، وبدأ
عليه ذلك الذعر وتلك الدهشة ؟
أيخيفه منظرى ويرعبه إلى ذلك الحد ؟
ما باله لا يتكلم ؟

ووجدت نظره قد تحول من وجهى إلى المشجب . .
وحولت بصرى إلى حيث ينظر . . فوجدت معطفاً نائماً
قد علق عليه . . وأعدت النظر إليه ، فإذا به يجمق فى ،
وقد اشتد ذعره وبدأ أشبه بفأر فى مصيدة . . ومرة ثانية

تحوّل بصره فتبعته ثانية ، واستقر بصرى في هذه المرة على
حقيقية للسيدات ملقاة على مقعد ، ولم يصعب أن أميز عيها
حرفى F.S.

وفي لمح البرق .. تكشفنى الأمر .. ووضح عى
حقيقته .. فقد استطعت أن أميز من حرفى الحقيقية .. اسم
صاحبها ، طاطمة شكرى ..

وفى الثانية التالية قطع الشك باليقين ، وعلا صوت
صاحبة الحقيقة تنادى من حجرة النوم :

- توتو ..

لقد كانت هى بعينها .. طمطم .. تتعجل زوجى ، وهى
راقدة على فراشى .

وأحسست بالذنب تدور فى ، واستندت على حافة مقعد
قريب حتى لا أسقط ، وشعرت بأفاسى تتلاحق ، وصدري
يرتفع وينخفض كأنى فى سباق .

إنى لم أرعم قط أنى أحب زوجى ، أو أغار عليه ،
وما حاولت أن أبدي له اهتماماً .. بل كنت دائماً أندرع
بالبرود .. وأنحلى بالهدوء والسكينة .

ولكن فى هذا الموقف .. أحسست أنى حرة متقدة ،
وأن صدري يغلى .. وأنى أوشك أن أجنى .

أبلغ به الاستهتار إلى هذا الحد ؟
أبلغت به الصفاة والنذالة والجبن والخسة أن يحط إلى
هذا الدرك ؟

ماذا بقي لي من قيمة في الحياة . . وأما أرى زوجي يخونني
في بيتي ، وألم عيني ؟
أو قد هنت إلى هذه الدرجة . . حتى تستحل امرأة
فراشي وبيتي بمثل هذه البسطة ؟

أقسم إني لو كنت أملك وقتذاك ممدساً لأفرغنه
في رأسه ، أو لو كان بيدي أية وسيلة للقتل لما ترددت
في القضاء عليه .

ولكنني كنت أحس أنني عاجزة عن أن أفعل شيئاً . .
اللهم إلا الاندفاع في السباب والصراخ . . أو الهجوم عليه
وصفعه ، والبصق في وجهه .

ولم تكن هذه الأشياء النافذة لتطلى . حرقني أو تهدى
ثورتني .

لقد كنت أريد أن أثار لكراحتي . . كنت أريد أن
أمرق جسده إرباً إرباً

ومضت برهة صمت . . وكلانا يحرق في الآخر . .
وبذلك جهدي لكي أمتلك وأسيطر على أعصابي .

وكنت أول من تكلم ، عندما صاح صوتها من الداخل
بناديه مرة ثانية .. فقد قلت له في مرارة وسخرية :
.. إنها تناديك .. اذهب إليها حتى لا تغلق .
وإذت له ظهري ، وخرجت من الباب في سكون ،
وأغلقت خلفي وهبطت الدرج . واحتوتني حلقة الليل .

سرت في الطريق ، وأنا أحس بيران آكلة تحرق قلبي
ورأسي وجمدي ، وقد تمكنتني إحساس خليط بين الذنّة
والتماسة واليأس والعصب ، والرغبة في الانتقام ، ولم يكن
تفكيرى قد استقر بعد على ما أفعله .. اللهم إلا على شيء واحد
لم يكن هناك مجال للتردد فيه ، وهو عدم عودتى إلى هذه الدار ،
وهذا الحيوان الأدبى .

مهما حدث .. فلن أعود .. حتى ولو أدى الأمر إلى أن
أهيم على وجهى .. سائلة .. أو بنيا . ما من قوة تستطيع أن
تعبثنى مرة أخرى .. لا أبى ولا غيره .. إني أنا الذى سأفرد
مصري هذه المرة .. كفى استعباداً ، وكفى مدّة .

وسرت برهة أضرب في الطرقات على غير هدى ، وريح
الليل تهب باردة فتشلج وجهى وأطرافى ، ورأسى يضطرب
بما فيه .. وأنا حائرة .. إلى أين أذهب ؟ وماذا أفعل ؟

وتفتت حولي .. فإذا بي أمام دار أعرفها جيداً ، ولم
تذكر تبعك كثيراً عن المذقة التي تقطن بها . وهي دار « محمود
شكري » ، روح « طيطم » ، ورفعت بصري ، فإذا بالوافد ينبعث
منها الضوء .

ولجأة ففرت إلى ذهني فكرة طارئة وجدت فيها مخرجاً
لثقت الثورة التي تستمر في نفسي ، ومفكراً لذلك البركان الذي
يصطبغ بين جوانحي .

لقد بدا لي من أضواء النوافذ أن « محمود » قد يكون في
الدار . وأني أستطيع أن أصعد إليه حالا فأنبئه بخيابة زوجته ،
وأطلب منه أن يصطبها مثلثة بخطيئتها .. وأترك له إتمام
المهمة والانتقام لي ولنفسه .

لقد كنت في حاجة إلى من يثار لي .. فإني أحس أنني
— كما قلت دائماً — مخلوقة عاجزة .. أو كما قال أخي : إنسان
جبان .. لا أملك إلا الفرار والأترواء والاستسلام للقدر ..
ولكنني في هذه المرة كنت واثقة من أنني سأجده إنساناً مواتوراً
يرد عني الطعنة .

واقتربت من الباب ، وسألت الحارس :

— محمود بك .. موجود ؟

— أيره يا قدم .

— أريد أن أقابله .

— اتفصلي يا هانم .

ولا شك أن الرجل قد عرفني . . فقد سبق أن حضرت
مع زوجي لزيارتهم ، وتقدمي مسرعاً . . ودق جرس الباب
الداخلي .

وفتحت إحدى الخادومات الباب فقال لها الرجل :

— افتحي . . قول لسيدك . . سيدتي عائدة هانم .

ودلفت إلى الداحس ، وجلست أنتظره في حجرة الصالون
ولم تمضِ فترة وحيزة . . حتى أقبل محمود ، مرتدياً قميصاً
وبطوناً ، وهو يتنسم مرحباً ، وهن وهو يضخط على يدي .
— أهلاً وسهلاً . . كيف حالك ؟ وكيف حال « توتو » ؟

لقد كنت أوشك أن أخرج الآن . . إذ لو تأخرت لحظة
لما وجدتني . . لقد ظننت أنك مسافران . . إذ أخبرني
« توتو » أنكما ستضحيان بضعة أيام « في عزبة البشا » .
ركن أين « توتو » ؟

ولم يترك لي فرصة للكلام أو يحاول أن يسمع لإجابة
سؤاله . . بل انطلق يثرثر :

— هن سرديما من العزبة ؟ لابد أنكما تصايقتما . . وإلا
لما عدتما سريعاً . . معكما حق . . إني أكره الرفق . . ملل ،

وقذارة ، وناموس . لقد ذهبت مرة إلى العزبة . مرة واحدة طيلة حياتي ، ولم أطق أن أنام ليلة واحدة ، بل عدت في منتصف الليل ، ولم أحاول تكرارها مرة ثانية ، و . ططم ، أيضاً لا تطيق الريف .. إنها تعتبره منقذاً .. لقد خرجت . ططم ، منذ العصر .. إلى وحدي في البيت .. كنت أوشك أن أخرج .. سأذهب إلى السينما سواريه .. يوجد فيلم في ديانا من أحسن أفلام الموسم .. لفريد استر . . موسيقى هائلة . . ورقص عظيم .. يجب أن تشاهده .. إن . ططم ، قد ذهبت إلى بيت خالتها وقد تغيب إلى منتصف الليل أو تبث هناك .. لأن خالتها مريضة .. إلى أنصحك . . .

ولم أدر إلا ما كان ينوي أن يستمر في ثرثرته . وأحسست بصرى ينغد . ولم أجد بداً من مقاطعته .. فقد كانت أعصابي متوترة وصدرى ضيقاً .. وقلت له في سخرية ومرارة متجهة إلى الموضوع رأساً .

— « ططم ، لم تذهب إلى بيت خالتها يا محمود لك .
وبدا لي أنه لم يلق بالآ إلى قولي في مبدأ الأمر ، فقد استمر في ثرثرته :

— إلى أنصحك أن ترى الفيلم ، إنه فيلم عيب . تقولين إن « ططم » لم تذهب إلى بيت خالتها .. كيف ؟ إلى وائق

أنها قد ذهبت إلى هناك .

— وأنا واثقة أنها لم تذهب .

— غير ممكن .. من أدراك أنها لم تذهب إلى بيت خالتها ؟

— لأنها ذهبت إلى بيتنا .. وقد تأخر حقاً إلى منتصف

الليل .. وقد تبثت فيه تماماً كما قلت .

— ذهبت إلى بيتكم ؟ استقضى ليلتها عندهم ؟

— أجل .. استقضى ليلتها على فراشي .. وبين أحضان

زوجي .

وقفز من مقعده كمن لدغه عقرب :

— كيف تجرئين على هذا القول ؟

— كما جرؤت هي على فعله .. منذ عشر دقائق .. تركتها

مستلقية في غرفة نومي .. لقد تركني زوجي وعاد ليتمتع بها

في بيتي وعلى فراشي .. خير لك أن تردعها ، وأن تمنعها من

التسلل إلى بيوت الناس ، وسرقة أزواج الغير .. إن الكلاب

المسورة لا تطلق هكذا بلا قيد .

وكننت أتوقع منه ثورة جارفة .. وعاصفة جامحة لا تبقى

ولا تذر .. وكننت أنتظر أن ينطلق إلى دارنا فيأثر شرفه

المثلوم ، وعرضه المخدوش .. ولكن أدهشى أن أحده

يصدقني .. ثم ينهض يبطء ويذهب إلى باب الحجرة فيغلقه

جيداً . . ثم يعود إلى . . وقد عبت وجهه ابتسامة باهتة .
وأخذت أرقبه بعين حنوة ، وإنه أنحفز لما ينوى أن
يفعله . . ورأيت أنه قد جلس على حافة أحد المقاعد . . وبعد
فترة أطراق قال لي في صوت خافت :

— أنت السبب .

— أنا السبب ؟ في ماذا ؟

— كل يجب علينا أن نبدأ بالهجوم .

— نبدأ بالهجوم ؟ لست أدرى ما تعنى ؟

— طالما سمعت مني ، وتباعدت عني . . لو استجبت إليّ

لكل الزمير ، ولما جلست ههنا ، كأن كارثة حلت بك .

وأنهال قوله . وأصابني تصدعة لا تقل عن تلك الصدمة

التي تلقيتها في يتي منذ لحظات .

إنه لم يثر ، ولم يغضب على شرفه المريض ، ولا اندفع

هاتجاً ليقتحم من الخائس والخائنة . . بل كل ما فعله هو أن جلس

يؤننى ، ويحملني مسئولية ما حدث . . لأنني لم أسجب

لمغاركه ، فكانت الياذة بالخيانة . . كأن كل ما حدث كان

أمر لا يعيبه إلا أنه لم يكن نفعاً متبادلاً .

لم يسره أن تقضى زوجته ليلة مع رجل في فراش ،

ولكن ساءه أن ضاعت عليه فرصة مثلها .

وأحسست بثورة الغضب تتصاعد في صدري .. وهممت
بأن أبلغ فيه . ولكنني كبحت جماح نفسي ، واكتفيت ' بأن
أحذق فيه كما أحذق في نوع غريب من الحيوانات .

ولم ألم يحدني أحبيه على قوله أودف قائلا
— على أية حال .. لا بد لنا من الانتقام .

ورسعت إليه حاجبي في دهشة .. لقد بدأت تعاوده
رجولته . وأخذ يتحدث عن الانتقام . وأنصت إليه في لفظة
واستمر هو يقول :

— أجل .. لا بد لنا من التأ .. للعين بالعين ، والسن
بالسن ، واحدة بواحدة ، والبادي أضلم .. إننا نستطيع أن
نضرب عصافير بحجر ، وننتقم لنفسينا بنفس الطريقة ..
سنرد العدوان بعدوان مثله .. إنها ترقد الآن في فراشك ، فلم
لا ترقدين في فراشها ؟

وضغطت على أسناني حتى أحسست أنها ستنتفخت ، ثم
تمتمت قائلة :

— جبان .. ساحل .

— مجنونة ! أما زلت تمسكين بأهداب الشرف والعفة ؟
أفي الوقت الذي يرقد زوجك مع امرأة أخرى في فراشك ،
تحاولين التمسك بهذه الخزعبلات التي بادت وعفت آثارها ! !

هذا الوسط الذي تعيشين فيه لا يآبه كثيراً لهذه الرسميات
ماذا يمكن أن تتأري به لنفسك من الى سرقت زوجك ولو كنت
فراشك أكثر من أن تترقى زوجها وتلوئي فراشها؟ وماذا
أستطيع أن أفعل أما أفضل من أن أقص من الحائر بنفس
طريقته .. هدئي نفسك ، وكوني عاقلة . وفكري فيما أمول
لك .. هل يؤلك كثيراً .. أن تخونى زوجك ؟ . من يتقل
عليك ضميرك إذا فعلت ما فعل ؟ لم ؟ . ماذا له من حقوق
عليك ؟ إن الرابطة الزوجية التي بينكما لا تعدو أن تكون شيئاً
وهيأ .. إنها مجرد شكليات .. فإذا لم يعمل هو لهذه
الشكليات قيمة . ولم يقم لها وزناً . فلم تحبطين لها أنت وزناً ؟
لم يتدخل ضميرك في مسائل نافهة لا محل له للتدخل فيها ؟

معه حق ١١ .. ألم أعترف أنا بنفسي من قبل أن ما بيني
وبين زوجي لا يعدو أن يكون عقداً شكلياً كتبه ذلك الشيخ
المعصم . لقد قلت ذلك قبل أن أعرف مدى تقدير زوجي لهذه
الرابطة الشكلية . فما إلى الآن وقد رأيته يمزقها إرباً ويحطمها
شظايا ؟

إن هذا الرجل الحالس أمامي .. رغم ما أتمته به من
الجن والسفالة ، لم يقل سوى الحق .. إن تفكيره منطقي
معقول : العين بالعين ، والسن بالسن ، واحدة بواحدة

والله أعلم . . لقد استحوذت على زوجي وفراشي وترك
زوجها وفراشه حاليين ، فلم لا أستحوذ عليهما أنا لأخرى ..
فأضرب عصفورين بحجر واحد وأنتقم لنفسى بنفس الطريقة ؟
حقيقة إنه أمر مروع .. مخيف .. إذا ما بحثته بتفكيرى
الأول ، وعقليتى السابقة غير الملوثة .

أما الآن ، وأنا امرأة مصابة ، مهيضة الجناح ، وفى
هذا الحو الملوث ، وتلك الكبرياء الجريحة ، والكرامة
المحطبة ، يبدو الأمر صعباً لا غبار عليه .. بل هو الأمر
الطبيعى الوحيد الذى يجب أن أفعل .

* * *

مكنا تطور تفكيرى ، وأنا جالسة أهدق فيه وأنصت
إلى حديثه ، وأحصى ذهنى على أتم اسعاد لقبول العرص
وتنفيذ الانتقام .

ونظرت إلى عينيه فلبحت فيهما بريق لطفة ، ورايته
يقترب منى ، فأطرقته برأسى ، وأحسست بجسدى يهتز
كريشة فى مهب الريح ، ومدت يده فضغط بها على يدي مترققاً ،
وقال فى صوت كأنه خفيج الأفاعى :

— تعالى . . .

ورفعت عيني إليه . . فرأيت وجهه قد تأجج ببرقان

الرغبة ، وسمعت صوت أنفاسه تتلاحق . وشعرت أني أمقته
مقاً شديداً وتمنيت لو استطعت أن أنهال عليه بالصفع ،
لقد كان في نظري أشبه بحشرة حقيرة لا يقل حقارة عن
زوجي المحترم . . .

ولكن يجب أن أتحمله . . إنها عملية انتقام لا أقل
ولا أكثر . . يجب أن أكبت نفوري وأخفي اشمزاري . .
يجب أن أستسلم له كما استسلمت لزوجي من قبل . . وأن
أعود نفسي عليه ، كما عودت نفسي على الآخر .

ورأيتني يجلس على حافة المقعد ، ومد أحد ذراعيه فطوق
جسدي ورفع بيده الخالية ذفي وأخذ يقترب بشفتيه
من شفتي .

وتذكرت أحمد ، في نفس الجلسة ، ونفس الوضع ،
وأحسست بقمعية تسمى في جسدي .

وبلاوعي ولا إرادة . . دفعت الرجل في صدره دفعة
شديدة ، ونهضت من مقعدي ، ووقفت متحفزة للفضال كأي
حيوانة نائرة .

ماذا كنت أوشك أن أفعل ؟ وأية هاربة كنت أوشك
أن أتردى فيها ؟

انتقام ؟ ، عر ؟ . من تلك الحشرة النافذة الحظيرة ؟

أو يستحق أن ألوث نفسي من أجل الانتقام منه ؟ ..
 أو يستحق أن أكون من أجله عاهرة بغيا ؟
 وأحمد ؟ كيف نسبته ؟
 كيف أجسر أن أفكر فيه ، أو أقارن نفسي به .. إذا
 ما ترديت في الهاوية وتلوثت بقذارتها ؟
 حقاً إني لا يهمني أن أكون شريفة من أجل زوجي ،
 ولكن من أجل أحمد !
 كيف يمكن أن يفكر فيّ ، ويسمى ابنته باسمي ، ويحبنى
 حتى آخر العمر ، وأما مخلوقة فذرة ملوثة ؟
 كيف يمكن أن يراني أنا المخلوقة النموذجية السامية ..
 المترعة الآيات الشريفة .. التي يضعها - على حد قوله -
 في مصاف الآلهة والملائكة ، وقد أضحيت كاه طمطم ،
 وأماها من سلاقات الأزواج ؟
 إن كل ما بقي لي في هذه الحياة .. هو تفكيرى في أحمد ،
 ويبقى أنه ما زال يرانى كما كنت دائماً .. المخلوقة الأولى
 في حياته .. التي سيذكرها .. حتى آخر العمر ، والتي جعل
 منها آماله التي لن تتحقق ، ولكنها تحبب زماً رغداً ،
 كيف أحطم آماله ، وأبدد أوهامه ؟
 من أجل أحمد يجب أن أظلوم ، وأن أترفع ، وأن أنجمل

كل شيء . . . وأن أستحق ثقته .
 من أجله يجب أن أكون تلك المخلوقة السامية المثلى . . .
 يجب أن أبقى دائماً في مستواه الرفيع .
 إن أحمد هو زوجي الحقيقي . . . هو روج روحي وتوأم
 نفسي . . .

لقد عقد المأذون رواجي على « تهاى » عقداً بين
 الأجساد . . . أما عقد القلوب والأرواح ، فقد كان بيني
 وبين أحمد من قبل ذلك بزمان طويل .
 إذا خافني زوجي . . . فليذهب إلى الجحيم .
 إن أحمد وحده هو الذي يملك عليّ حقاً . . . ويجب أن
 أرفع هذا الحق .

يجب أن أصون نفسي وروحي عن الاندفاع في الخطيئة .

° ° °

رددون أن أنيس بيت شقة أدريت ظهري وانطلقت ،
 هاربة من المحاولة التي كنت أوشك أن أزلق فيها .





ما فتى الفن

إلى الطريق مرة ثانية ، وانطلقت في الفلوات
غمرجت أضرب على غير هدى ، وأما أحسن أن نجوت
من خطر أوشك أن يودى بي .

وأحنت أمني في السير ، كأنى فريسة مطاردة ، حتى
وصلت إلى الشارع الموازي للنيل والمؤدى إلى الكورى
الإيجليزى (كوبرى الجلاء) . وهبت موحنة من ريح باردة
سرت في عظامى فضممت المخطف جيداً حول جسمى .

ووصلت إلى الكورى وبدأت أتأمل وأسير الموبنا .
لقد بتت في ذهنى المشتت الشارد فكرة جديدة ، أوحى
إلىّ بها خرير الماء الجارى أسفل الكوبرى في حللكة الليل .
لم لا ألقي بنفسى في اليم فأستريح من الحياة ؟
ماذا يجعلنى أتنسك بحياة فارغة خاوية خالكة ، لا يبدولى
منها مارقة أمل أو شعاع رجاء ؟

ماذا يمكن أن أمل من حياتى ؟
إن أقصى ما يمكن أن أحصل عليه هو الخلاص من
زوجى .

ومعد ذلك ، أقبع في دارى ، مطلقاً ، باللسة باللسة ١١

لو أن أحمد لم يتزوج ١٢

ولكن هل كان يقبل أن يتزوجني الآن بعد أن خذته
في أول مرة .. ولفظته لفظ النواة ؟

أجل . إنه إنسان كريم ، وهو ما زال يحبني ، ولن يكف
عن حبي مدى الحياة .

ولكن ما فائدة كل هذا ، وهو متزوج فعلا ؟
إن الانتحار هو خير وسيلة للخلاص .

يجب أن أتوقف .. ثم ألقى بنفسى من فوق السور
الحديدى ، وفي ثوان معدودة سيكون كل شيء قد انتهى .
إن الخلاص يحتاج إلى شجاعة وجسارة ، ويجب أن أكون
شجاعة ولو مرة واحدة حتى أبحو من حياى التعسة الشقية .
دار ذلك الحديث فى رأسى .. دون أن أتوقف ..
وانتهى الحديث ، وقد انتهت من عبور الكوبرى .. دون
أن ألقى بنفسى فى الماء .

إنى مللت كما كنت دائما .. مخلوقة جبانة .. لا أستطيع
أن أقدم على ما فيه خلاص نفسى .. وكل ما أجسر عليه هو
التفكير ، ولا شيء أكثر من التفكير .. أما التنفيذ .. فأمر
لم أحاوله قط .

وعدت أفكر نابذة فكرة الانتحار .. قائلة لنفسى ..
يَمْ أَجْعَلُ بِالْحَكَمِ عَلَى نَفْسِي ؟ - لَمْ لَا أَنْتَظِرْ ؟ .

وما دمت قد وطلت نفسي على الموت .. فإني أستطيع أن
أخجل أى مكروه فى الحياة .

وهكذا سرت أنخطط بين أهكارى المختلفة المختلطة حتى
وصلت إلى كوبرى ، قصر الليل ، وأعاد مظهر الهر العريس
والماء الخالك .. فكرة الاسحر إلى رأسى ، وانكها لم تزد عن
أن تكون فكرة . ونهيت كذالك من عبور الكوبرى دون
أن أتوقف أو ألقي نفسى فى اليم .

ورسلت إلى ميدان الإسماعيلية ، وبلا تفكير انجعت إلى
موقف الأتوبيس (رقم ١٤) الذاهب إلى حدائق القبلة ،
وسعدت فى إحدى العربات .

إلى أين أذهب إن لم أذهب إلى بيت أبى ؟ هل لى ملجأ
سواه ؟ . مهما سرت فى الطرقات .. أليس للسير من نهاية ؟
لقد بدأت قدماى تكلان فعلا ، ولا بد أن أجد لى مقراً
تكون به عاتمة المطاف .

وتحركت العربى عبر الشوارع المصيبة الصاحبة وجلست
أحرق من وراء زجاج النافذة فى المناظر العابرة دون أن
أعى منها شيئاً .

كنت لا أحس كثيراً بما حولى .. فقد كان لى ذهول
شديد ، وكان ذهنى قد أعيت الحوادث ، وأضناه التفكير ..

فتباد وحده .. وأصحيت في جلستي في العربة أشبه بمرضىة ذاهلة
أو مخبولة تائهة

ولم أشعر بمرور الوقت ، ولم أميز معالم الطريق ، بل
وجدت نفسى في النهاية ، وقد حطت العربة إلا منى . ورأيت
السائق يغادر العربة ، والكسارى يتساءل فى لهجة لا تخلو من
للسخرية :

— لقد وصلنا النهاية يا هانم .. أم تريدن العودة معنا ؟
ونفضت فى صمت .. وعادرت العربة .
وتوقفت أنظر حولى ، ولم أتمالك نفسى من ضحكة خائفة
مريرة ساخرة .

* * *

يا للسخرية !

لقد وقفت تلك الوقفة من قبل وشتان بين وقفة ووقفة !
هذا هو الجامع القائم فى زاوية الطريق ، خيمت عليه
حلكة الليل .. فلم يبد منه سوى شبح مظلم كالأطلال البالية
تقوم بينها المئذنة كأنها مارد يوشك أن ينقض .
والطريق قد بدا موحشاً مخيفاً جرّده الشتاء أحمر أزهاره
وأخضر أوراقه ، وترك أشجاره المتكاثفة مجردة عارية كأنها
هياكل الموتى ، أو قوائم القبور .

والسما . . والكواكب ، والنجم الثاقب . . قد باتت
كلها غطاء مطلقاً يطبق على الأرض . . والسيم قد عاد ريحاً
تصفر وثين وتقول وترن

وأما . . وحيدة . . بلا أحد . . ولا أمل . . ولا رجاء .
بالعجب ! . أ كان يخطر لي على بالك وأما ألح مع
أحمد وقتنا الساحرة وقد غمرنا صوء القمر . . وأقم نفسها
الأمل . . وفاضت جوانحها بالمتعة والهاء . . أن هذا المكان
يمكن أن يضحى ما هو عليه الآن ؟

كيف يمكن أن تتبدل الكائنات مثل هذا البديل ؟
كيف يمكن أن يبيع اليأس من مضيع أرجاء . . وبنت الشقاء
من منابت الهباء . . ؟

وبدأت السير . . لا أعود إلى الدار . . بل لأخوض
غمار الطريق الموحش المظلم .
إلى أين ؟ . . وله ؟ .

أهو إيمان في التعذيب ؟ أم عدو وراء سراب ؟
ليكن ما يكون . . إن بي إلى السير في الطريق ، والجلوس
على الساقية . . حنبأ لا يقاوم ، ولهفة لا ترد .
إنه تعذيب تمتع . . وألم لبيذ . .

مهما كنت .. ومهما كان المكان .. فإني أحس فيه
بجلاوة الاستقرار وسكينة المأوى .

مهما كان بي من حزن ويأس وشفاء وبؤس ، ومهما كان
بالمكان من طيبة وروحنة وكآبة وحمود .. فإني أتوق إليه .
وألهف عليه .

إن لي فيه حياة .. بل إنني لم أحي إلا فيه .. أما فيما عداه
فقد كنت في عداد الموتى .

وسرت في الطريق الخالي المغرق في صمت القبور ..
وسور السراى يقوم على يميني قائماً مظلاً : يبدو في ارتفاعه
وضخامته كأنه حاجز يمتد من الأرض إلى السماء .. والريح
تهب من ناحية المزارع صرصرأ عاتية .. تصطدم بأطراف
الجازور بنا العالية القساممة وراء السور ، فترسل منها فحيحاً
خفيفاً .. وكل شيء يبعث على الخوف وبشير الرعب .. ومع
ذلك فما أحسست خوفاً ولا رعباً .

كنت أسير في ثقة وطمأنينة ، وقد قرئت نفسي وتبددت
أحزاني .. واستتب في نفسي الأمن وعادتنى السكينة ،
وداخلني إحساس تائه صال يوشك أن يهتدى إلى مأواه ،
وغريب طالك غربته بهم بأن يعود إلى وطنه .
كنت أشبه بمنحدر دفع به في أتون المعركة وغاصر عمارها

بين سوى واليران والثرى والدماء . . وأصابه منها ما خطمه
وأهضه وعبه . . ثم أفاق في حلقة الليل بين الأشلاء الراقدة
والسكون السند ، وأخذ يزحف على يديه وقدميه بين الحياة
والموت ، حتى لاح له بارقة هدته إلى معسكره . وأعادت
إليه الأمل في الحياة .

ووصلت إلى الساقية ، ولاح لي شبحها أسود قائماً . .
لا تستطيع العين أن تميز منها سوى كتل داكية تقوم وسط
الحقول العارقة في الدياجير .

واتخذت طريق إليهما . . عارة الممر الضيق الذي طالما
احزنناه سوياً ، وقد تشابكت أيدينا وتلاصق جسدانا .

وجلسنا كما تعودت أن نجلس دائماً . . على جزء من
السور المنخفض المهديم . . حيث مهدى ، أحمد ، مقعداً بين
الحجارة انبثتة . وأحسست أن كل شيء قد عاد كما كان ، وأن
السين التي ولّيت قد رجعت بي للقهرى . . وأنا قد عدت مرة
أخرى إلى العهد البائد والأيام الخالية .

وماذا بعد ؟

ماذا بعد هذه الجلسة . . التي أثارت هاجس الذكرى ،
وكأس الشجن ؟ .

ماذا أرجو ؟ وماذا أوّل ؟

وخلت في نفسي هائفاً يهتف بالمعبد المقدس :
 هل الزمان معبد فيك لدتنا
 أم الليالي التي أمضته ترجعه ؟
 وأجبت نفسي بضحكة ملؤها السخرية .
 أي زمن هذا الذي يعيد اللذة المنصرمة والمتعة البائسة ؟
 وأي ليالٍ تلك التي ترجع ما أمضت .. وتعيد ما سلبت ؟
 ذلك عهد لم يعد يرجى في منه سوى استعادة الذكريات
 وترديد الأحلام .
 كل أمل فيه .. لا يعدو جلسة كهذه .. تكثفها الوحشة
 وتحيطها الظلمة .. ويحدوها السكون والهدوء ..
 جلسة كهذه .. أجلس فيها بجوار الساقية الخربة في عصف
 الريح .. وصبرة البرد .. وجمّة الليل .. كأنني شبح من أشباح
 الخرائب .. قد باتت كل زادى في الحياة .
 بالسخرية ..
 أذلك هو أقصى ما أستطيع الحصول عليه في دنيانا المليئة
 بالنعم والمتع والاندات ؟
 وأحمد ؟ لطف نفسي عليه ، وعلى مسة من يده ، وهمسة
 من شفثيه !
 ماذا يضير القمر .. لو أرسله إلى في هذه اللحظة ؟

أكثر على القدر .. أم أكثر على ؟
القدر الذى يكيل الضربات ، ويقن السخريات ،
ويحكم تدبير أسباب الضراء .. لم لا بكرمى مرة يدبرنى
فرصة سراء !

أكثر على القدر الماهر البارع .. أن يدبر بيننا لقاء
غير سل إلى أحمد على غير موعد ؟

أم أكثر على أن أحظى بهذه النعمة ؟
وتذكرت آخر جلسة لى بجوار هذه السقية .. صباح
الزفاف ، وحيدة كما أجلس الآن ، وتذكرت حتى إليه
ولفتى عليه ، وتوقى مجيئه بين لحظة وأخرى .. آلمة أن تدبر
لى المصادفات لقاء آخر .. وتذكرت عودتى بحفى حنين ..
خاتبة الرجا .. محطمة القلب ..

من أما ؟ حفاء .. غيبة ؟ ! أعلن النفس بآمال زائفة ..
وأرغام سرابية !

تلك أشياء لا وجود لها إلا فى القصص .. أما فى الحياة
الواقعة ، فإن الأقدار أبخل من أن تجود بها .

ذلك اللقاء المحكم الذى تدبره المصادفات المحضة .. هو
شئ أشبه بالمعجرات ، وما أظنى — بعد كل ما حدث —
أطمع فى معجزة .

أين مني الآن .. صنو الروح وتوأم النفس ؟
 أتراني أطوف بخاطره كما يطوف بخاطري .. أم تراني
 لا أشغل من رأسه قيد شعرة ؟
 أغلب الظن أنه جالس في بيته يتسع بالدفء .. مشغول
 عني .. بامرأته وبطفله !!
 أجل .. إنه لا شك يذاعب طفله الآن .. فها أطن
 امرأته إلا قد وضعت .
 ترى ماذا أنجب ؟ .. بنتاً أم ولداً ؟ .. أترأه سيصدق
 في وعده ويسمى البنت « عايدة » كما قال لي ؟
 أترأه سيذكرني إذا مانادها ؟ .. أم ترى اسمها سيمحو
 اسمي فتصبح لديه « عايدة » واحدة .. وعفا الله عما سلف ؟
 من يدري ؟
 وانطلقت من صدري زهرة حارة ، وأحسست بعبرتين
 ساخنتين تسيلان على وجنتي .
 وما الآخرة ؟ .. ما آخرة كل هذا ؟ !!
 أليس من الخير لي أن أغادر المكان ، وأعود إلى
 الدار ؟ أما كنني أوهاماً وأحلاماً ؟
 وهممت بالنهوض متثاقلة .. عندما سمعت جفأة صوفاً
 يشق السكون ويهتف بي :

- أنت ؟ .. عايدة ؟
وأفزعني الصوت فزعاً شديداً . . فقد كان وقعته في
إني وسط السكون السائد . . وأنا لا أتوقع وجود أحد
لي . . شديد المفاجأة على نفسي .
وتملكنتني منه رجفة خوف . . سرعات ما أعقبها
ذهول شديد .

من يصدق هذا ؟ -
مستحيل . . لا يمكن !
إني لاشك واهمة حالة . . أصابني خبل ، ومستني حنة ؟
أهو حقاً أحمد ؟

أم تراني مارأيته وما سمعته . . ولكن شبه لي ؟
أجل . . هو ذاك ولا شك . . لقد جَسَّده في الوم من
فرط ما تمزقته وفكرت فيه .

ومع ذلك . . فقد أخذ الشبح الطويل الفارع القامة ،
يقترِب مني . . حتى بت أكاد أسمع نرود أنفاسه .
لقد كان هو أحمد . . بدمه رطبه . . لا وهم ، ولا شبح .
وكنيت أنا المتسائلة هذه المرة في صوت مبجوح ،
وأنفاس لاهتة :

- أحمد ؟

ومضت فترة صمت ، وكلانا يحدق في صاحبه متدوها
مهوَّتا دون أن ينبس بكلمة -

° ° °

إنى أحاول الآن أن أصف مشاعري وقتذاك ..
ولكن يبدو لي أن الألفاظ والتراكيب تعيا عن وصفها ..
وتبخبها حقها .

لقد حدثت المعجزة أخيراً ، في زمن خلا من المعجزات
وتحقق الرجاء الذي لم أجسر حتى على التفكير فيه .

ها هو أحمد .. ما جلس في يته يتمتع بالدفع ، ولا شغل
عنى بامرأته وطفله ، بل يقف معي بجوار الساقية الخربة ..
يشاركني في رجفة القر ، وعصف الريح ، ووحشة الليل .

وحشة أحاش الله أن تكون الوحشة حيث يكون أحمد .
لقد وقفت أحملق فيه ، وقلبي يدق بعنف ، ويكاد يقفز
من بين أضلعي ، وقد تبعد من نفسي كل ما كان بها من حرنا
نوباس ولوعة وأسى .. وتطأرت من رأسي الهموم
والأشجان .. ونسيت كل ما مر بي من حوادث مثيرة صاخبة ،
واعي من ذهني كل ما في الوجود من كائنات ومخلوقات ..
ولم أعد أرى إلا مخلوقاً واحداً .. هو أحمد .

كنت أقف أمامه .. بعد طول شوق ولهفة وحرمان

وهجران ، وبعد طول خموع للبيداء . وخضوع للتقاليد ،
وبعد طول إخلاص لزوج لا يستحق الإخلاص ، ومحافظة
على شرف ملوث ثلوم .

كنت أقف أمامه . . كالجمهرة الصادية . . ألهاها المجير
وأحرقها السعير ، وكادت تهلك ظلماً . ثم لَوَّح لها بقطرات من
الماء البارد العذب .

ولم أنبس بينت شفة ، ولم أسأله من أين أتى ؟ ولا لِمَ
أتى ؟ لم أسأله عن شيء قط .

هل يسأل الظالم الذي كاد يقتله الظلم . . عن مورد الماء
وكيف أتى ؟ أم يندفع إليه ليهديء من حرارته ويطنئء ظمأه ؟
كذلك فعلت .

لقد اندفعت في أحضانه . . بلا كلسة واحدة . . حتى
ولا التحية . . لقد ثارت لنفسي من طول الصوم وازهد ،
والكبت والحرمات .

وضمعي إليه . . وأما أرتجف وأرتعد . . ولم أتمالك من
الامدفاع في البكاء . وأخذ حسدى يهتز بين يديه ، وأما أشفق
شقيق طفلى ينتحب .

ومدأت نفسي أخيراً ، وكففت عيناى عن البكاء ثم أخذت
أنحسسه جيداً . . لأننا كد أنه حقيقة . . وأنى لست حائلة .

وقلت له هامة :

- كيف أتيت إلى هنا ؟ . كيف حدثت المعجزة ؟

وأجاب وهو يجلسنى بحواره فى مجلسنا القديم :

- كيف أتيت أنت ؟ هذه هى المعجزة ! أما مجيئى لما
هلبس من المعجزات فى شىء .. فليست هذه هى المرة الأولى
التي آتى إلى ها .. طالما جئت وحدى .. وقضيت الساعات فى
الوحشة والظلمة والسكون .

- أنت كنت تأتى إلى هنا ؟

- ولم لا .. ما أحسست بالهدوء والسكينة إلا هنا .

- عجباً ! كنت أضلك أنم بالآ .. وأقر نفساً .. كنت
لظنك نسيت العبد المقدس .

- كيف أنسى ؟

- ظننت أن لديك من مشاغل الحياة ما يشغلك عن
تلك الذكريات البائدة ، وخلتلك ، وأنا جالسة وحيدة فى تلك
الظلمة .. تنعم بسفوف الفراش .. هاتئاً بزوجتك وابنتك .

- زوجتى وابنتى ؟

وانطلقت منه محكمة ملؤها المرارة والسخرية .

وأدهلتنى ضحكته البائسة البائسة .. وأخذت أرقبه
فى إشفاق ودهشة .. فوجدته يطرق برأسه إلى الأرض .

وأرشف في صوت خافت :

— لم يعد لي زوجة ولا ابنة .. لقد ذهبنا كلناهما ..
الزوجة والطفلة .
— كيف ؟

— كانت الولادة عسيرة .. احتاجت إلى إجراء عملية
جراحية .. أودت بالأم والجنين .. رحمها الله .. لقد تعدت
منذ اليوم الأول للحمل .. لم تر يوم راحة قط .
وتعلكتني عليه لوعة .. إنه لم يكن أفس من مصاباً ..
حتى آماله البسيطة التي قنع بها .. فذرتها الرياح .
وحاولت أن أقول شيئاً على سبيل العزاء .. ولكني
لم أجد ما أقوله .. فضغطت على يده في صمت .

ورفع إلى بصره ، وتسامل :

— وأنت .. ماذا أتى بك إلى هنا ؟
— أتى بي ما أتى بك .. أبنى الطمانينة .. وأتلس
العزاء والسلوان !

— وعمّ العزاء ؟

— عن كل شيء .. عن حياة مدمرة محطمة .. وعن
مستقبل مظلم حالك .

— كيف ؟ ماذا حدث لزوجك ؟ هل ... ؟

وأدركت ما يعنى بسؤاله .. فهرزت رأسي ببطء ..
وأجبت :

— لا .. ما زال على قيد الحياة .. ينعم بمباهجها ، ويرتع
في محبوبتها ورغبتها .
— إذا فإذن حدث ؟

وبدأت أقص عليه ما حدث .. منذ البداية . وشرحت
له تصرفات زوجي وأفعاله . ودكرت له حادث مسابقة
الفرسية .. وغيره وغيره ، وذهابا إلى العزبة ، وعودته
وحده .. ثم أبلغته بحوادث الليلة .. وكيف وجدتهما معا
في البيت ، وكيف ذهبت إلى زوجها وماذا قال لي .. وكيف
فكرت في الخلاص بالالتحار ، وتصميتي على الذهاب إلى
أبي رغم ياسي منه .
وقدت له في النهاية :

— لقد سألني قدامى إلى هنا بلا إرادة مني ولا تفكير .
لم أكن أتوقع قط أن أراك .. كنت أتلس العزاء من مجرد
ذكرك .. من الشارع القفر .. والساقية الخربة .. وكنت
أحن إليك حنين يائس أضاع الأمل ، وقطع الرجاء . وكنت
أعتبر لقاءك إحدى المعجزات .. وعندما سمعت صوتك
يهتف لي في الطلبة .. كنت في أقصى درجات اليأس .. وفد

هممت بالعودة إلى دارنا ، رغم أنى لا أتوقع من أبى خيراً .
ولكن إلى أين أذهب ؟ .. إن الشرذ والسؤال خير لى
من العودة إلى حياتى السابقة .

ورقع يدى فوضع ظاهرها على فيه .. وضمينى إليه
بأحد ذراعيه . فازددت به التصاقاً .. وقال لى فى لهجة
تذوب رقة وحناناً :

— لا تقولى هذا .. أنت تشردين ؟ .. أنت تشفين
فى حياتك ؟

وأحسست وقد التصق جسداً وأسدت رأسى على كتفه
بطمأنينة عجيبة وهتفت بغير وعى :

— لا تتركينى وحيدة .. كفى صبراً وتجهداً واحتمالاً ..
إنى لم أعد أحتمل البعد عنك .. لقد أخذت نصيبى من
الحرمان والشقاء .. وأنت ؟

— أما !! ماذا تظنين حياتى كانت ؟ .. حياة كمل فراغ
ووحشة ، ورياء وفساق .. حاولت أن أحضع لشبهة القدر
وأن أكون زوجاً وفياً ، ولكن وفائى كان مداهنة .. كنت
وفياً فى الظاهر .. أما فى الباطن .. فما استطعت قط أن أتحكم
فى ذلك النائر فى الحنايا .. المتورد بين الضلوع .. كم حارلت
تهديته وتسكينه . ولكنه ما كان يهدأ إلا ليثور لأقل ذكرى

وأبسط سائخة .. كل شيء كان يذكرني بك .. ما من شيء ..
 طاف بي إلا ورأيتك فيه .. كنت أراك في السماء الصافية ،
 والجوهر الزاهية ، وأسمعتك في حفيف الورق وهتاف الورق ..
 كنت أذكرك عندما أمام أو آكل أو أستيقظ .. كل
 المتناقضات كانت تذكرني بك : زهور الداليا ، وبرطبات
 المستردة .. هديل الحمام ، وصجيج المكائن ... كنت
 أذكرك وأنت صائفة في البيت حائلة بمنفضة في يدك ..
 أو جالسة في الخديفة ، عارية القدمين .. ملوثة بالطين ..
 لم أستطع أن أنزعك من نفسي .. لقد فشلت فشلاً
 ذريعاً في ذلك .. كيف لا .. وقد كنت أخطيء أحياناً
 فأمدني زوجتي باسمك .. كيف لا .. وأدما كففت منذ
 اليوم الأول من زواجي .. عن زيارة معبدنا المقدس ..
 والجلوس وحيداً .. هنا في هذا المكان الموحش الخرب ..
 لقد كنت وأنت جالسة وحيدك .. تعتبرين حضوري إحدى
 المعجزات .. ولكنني كنت أرى حضورك .. وأما جالس
 وحدي .. فرق المعجزات .. لم أحاول قط أن أذكر فيه
 أو أتوقع حدوثه .. ومادام يمكن أن يدفعك إلى الحضور
 لأتقوى الأرض .. وأنت منعمة مرفقة .. هاشة قريبة ..
 إلى ما أبنت هنا قط لمحاولة لقائك .. فقد كان ذلك أبعد

الاشياء عن ذهنى . . كل ما كنت أبغيه من الحضور . . هو
التنعم بالذكريات الخالية . . ما أردت أكثر من أن أجلس
وأفكر ، وأنعم بالهدوء والاستقرار . . كانت حياتى شقية
معصية . . فما كان هناك بنى وبين زوجتى أقل تفاهم . . كانت
تشك فى . . دون أن تعرف شيئاً طاهراً لهذا الشك . . كانت
تدرك بغريزتها أن فى قلبى إنساناً آخر . . يستحيل عليها أن
تطرده منه لتحل محله ، ولكسها لم تجد فى تصرفى انطاهر
نحوها مأخذاً أو نقیصة . . كانت تحس أن الرباط الذى يشد
أحدنا بالآخر سطحى واه ، لا يربط بين قلوبنا ، بل بين أناملنا .
وكانت متبرمة شاكية . . متوترة الأعصاب ، وراد الحمل
من توتر أعصابها وإنهاك نفسها . . فاصحت لانتطاق ، وبت
أرى البيت الذى كان لى أمنية عزيزة جحياً يستعز بالشكوى
والمرض ، وسلب الخدم وضيغهم . . وكان لا بد أن أجد
لى مهرباً . . أنا الذى لا أحب أكثر من السكون والبساطة
والهدوء .

ها كان مهرى ومفرى ومخرجى من سبيل الدار . . حتى
هدأ السبيل ، وسكنت الدار ، وذهب كل شيء كأن لم يكن ،
وهدأت الثورة كأنها هبة غبار تارت من حولنا برهة ، ثم
استقرت على الأرض ، أو تبددت مع الريح .

وخرجت أشيعها وأمامنا طيء الرأس ، محنى الحامة ..
أسائل نفسي فيم كان كل هنا ؟ ما بال القدر يستمر في عبث
لاطائن تحته ، ولا جدوى منه ؟ . لقد أصابني بزواجها ،
وأصابني بوفاتها .. فيم كان الزواج والحمل والولادة .. إذا
كان كل ذلك قد انتهى إلى لاشيء ؟ إلى قبر بشفرة وعظام مخرة .
وعدت من المقبرة ، وكأني قد شيعت عبثاً ، وحملت عبثاً
أثقل وأمر ، ولم أذهب إلى الدار ، ولا إلى الميس ، ولا إلى
الثكبات ، بل تسلفت من بين القوم لآتي إلى هنا لأدفن
أحزاني وأغرق همومي .. فإذا أحبك بعد طول لفطة وحنين ،
وقد بلغ في اليأس من لقاءك أشده .. وإذا بك تسأليني
ألا أتركك وحدك .

أنظنين أنني أستطيع تركك هذه المرة ؟
لينهبوا جميعاً إلى الجحيم بتفاليدهم وقيودهم ومبادئهم ..
ولتنطبق السماء على الأرض .
تعالى .

° ° °

وحذيتي من يدي ، وحشنا الخطي تاركيين الساقية ،
عابرين المسر إلى الطريق ، وكنت أحس وأنا أمسك في يده
وأسرع بحواره .. أني قد أصحيت مخلوقه أخرى .. ملء نفسي

الجسارة وملء روى الجرأة والإقدام .. لا أخشى عواقب ،
ولا آبه لتأنيج .

كنت أحس أنى لا أسير على الأرض ، بل على هام
السحب .. وأنى قد ألقيت عن كاهلى كل ما أثقله ، ورميت
عن ظهري كل ما أنقضه ، وأنى بت حرة طليقة ، وأنى قد
حطمت القيود ودمرت الأغلال .

لقد صفنا ذهنى ورسبت شوائبه ، وحللت تفكيرى من
كل شىء .. إلا شيئاً وحداً ، هو أنى أسير بجوار أحد ،
وأنى سابق معه .. لن تبحرؤ قوة على الأرض أن تتمرعى
منه .. سأكون له أى شىء .. حتى مجرد متاع .

كفى بعداً وحرماناً .. كفى استعباداً للشرف والتقاليد
والقيود الزوجية .. لن أترك أحداً مهما حدث .

أليس هذا الإحساس كافياً لأن يقر نفسى ؟

لينهبوا جميعاً - كما قال - إلى الجحيم .. الزوح
والآب ، والخلق كلهم ، ولسطبق السماء على الأرض ، فما عاد
يعزبنى شىء مادمت معه .

بهذه الأفكار النائرة الحرة الطليقة ، خرجت من
المزارع إلى الطريق . فرجدت عربته الصغيرة تنتظر على
الجانب القريب ، ودون أن ينبس ببنت شفة فتح بابها

وأجلسنى . . ثم اتخذ مجلسه أمام عجلة القيادة . . وفي لمح
البصر . . انطلقت العربى تهب بنا الأرض نهياً .

وتلفت إليه فإذا به قد شرد بذهنه ، وأخذ يحمق ببصره
فى غياهب الطريق الذى اخترقه الشعاع المنطلق من مصباح
العربى ، وسألته بصوت أشبه بالهمس :

— إلى أين ؟ !

— إلى أقصى الأرض ، إلى القمر ، أو إلى المريخ . .
لانسألى عن شىء . . ألا يكفى أن نكون معاً ؟

— أجل !

— أنتخضين شتاء ؟

— أبداً .

— أنتخافين عاقبة ؟

— ولا الموت .

— أوأنتقة أنت ؟

— ليس أحب إلى من الموت بحوارك .

ووصلت العربى إلى نهاية المور من ناحية المطرية ، ثم
لف بها يمينا بحوار السراى ، وبعد برهة عريا شريط السكة
الحديدية عند محطه سراى القبة ، واتجهما يساراً فى طريق

الرتون . ثم يمينا في أحد الشوارع الفرعية ، وتوقفت العربية
وترك أحمد مقعده قائلا :

— دقيقة واحدة .. لا تقلق .

وتركني في العربية ، وابتعد قليلا ، ثم دلف في أحد
الآبواب ، ورغم رجائه لي بالآأألق ، فقد أحسست بالغبق .

لقد كنت أأتمد شجاعتي من وجوده ، فلما غاب بدأت
أنهاوى .. ولكن لم تمض دقيقة كما قال حتى أبصرت بشبحه
يخرج من الباب ويأخذ في الاقتراب ثم يتخذ بمجلسه يجوارى
ويدير العربية في صمت إلى الطريق الرئيسي .. ليتوقف بعد برهة
أمام إحدى محطات البزبن ويقول للعامل :

— املا الخزان .

وانطلقت العربية من محطة البزبن .. متجهة في طريق
الخلية .. وكان بي شوق أن أعرف إلى أين يذهب ، ولكن
لم أأرد أن أنال .. حسبى ما أأأفيه .. ألا يكفى — على حد
قوله — أن نكون معاً ؟

وسمعت تنهيدة حارة انطلقت من صدره ، ووصل صوته
إلى أذنى وهو يقول في لهجة صامقة مقررة كأنه يحدث نفسه :
— الحمد لله .. كان كل شىء قد رتب بفعل فاعل ..

من كان يصدق أن القدر يكرمنا إلى هذا الحد؟ إن المعجزات
لا تأتي فرادى .

— ماذا تعنى ؟

— أليس لقاءنا معجزة ؟

— أجل !

— والبقية ترى .. أتعرفين إلى أين نحن ذاهبان ؟

— لقد سألتك فلم تجب .

— لم أكن قد وثقت بعد .

— والآن ؟

— كل شيء على خير مايرام .. إن الظروف قد خضعت

لشيئنا ، وأن الرياح لآتية بأقصى ما تشتهي السفن ؟

— وماذا كانت تشتهي السفن ؟

— مرفأ تلجأ إليه ، وعلاذاً نلوذ به .. يحمينا من عصف

الرياح ونلاطم الأمواج .

— وركاب السفن ؟

— كوخ فى أقصى الأرض .. بعيد .. بعيد .. نهرب إليه

وحننا ونقع فيه بعيدين عن جميع البشر .. لا يرانا أحد

ولا نرى أحداً .

— وهل وجدته ؟ هل أنت به الرياح ؟

— أجل .

— أين ؟

— في الإسكندرية .. على الشاطئ في ناحية منعزلة
قصية .. في آخر سيدى بشر .. يملكه صديق لى ، وقد طاف
بذهنى ، فرأيت فيه خير مهرب ، وأفضل ملاذ ، وتمنيت أن
أجد صاحبه في داره .. حتى يعطينى المفتاح ، ولم يكن يته
يبعد .. ذلك البيت الذى مررنا به منذ لحظات ، وكان يمكن
ألا أجده ، وكان يمكن أن يقول إن المفتاح ليس معه . ولكن
الظروف — كما قلت لك — قد لانت أخيراً ، وكأنها دبرت لنا
كل شيء ، بلا عقبات ولا عاقل .. لقد وجدته هناك ، وعندما
سألت المفتاح ، تملكته الدهشة ، وهم بالسؤال ، ولكنى أنبأته
أنى على عمل .. لم يتوان لحظة ولم يتردد فى إعطائه لى ، متنبأ
حظاً سعيداً .. قائلاً إنه ترك كل شيء كما هو ، وأسى أن أنعب
فى شيء .

• • •

وسار بنا العربة فى طريق مسترد . و مدت المزارع من
خلال الزجاج سوداء قائمة قد لفها الليل بضياب ثقيل ، وعلا فوق
الضفادع من الترع المجاورة للطريق .. مختلطاً بصوت عجلات
العربة فى احتكاكها بالأسفلت .. صوت كالصفير أو الفحيح .

وسألتني أحمد في حنان :

— ما رأيك .. أسعيدة أنت ؟

— كل السعادة .. إني راضية عن كل ما فعله .. معك

أينما نذهب ، حتى نستقر سوياً في باطن الأرض .

ورفع يمينه عن عجلة القيادة فجلس بها يدي وتحسبها في

رفق ثم رفعها إلى فمه ، وأحد يتحسبها اشفته كأنه عابد متبتل .

ورأى بيننا الصمت بعد ذلك ، وشرد كل منا بذهنه في

خضم أفكاره .

يا للعجب ! .. من كان يصدق أن هذا اليوم الحافل

يمكن أن ينتهي بمثل هذه النهاية ! أكان يخطر لي على بال في أية

لحظة من لحظاته القاسية الشقية .. أني سأستقر في نهايته إلى

جوار أحمد ، هارين بأنفسنا من تعاستنا وشقائنا ، واضعين

ألفول البعد والحرامان !

وبدأت أحس بالتعب يحيط علي جسدي ، وشعرت وأما

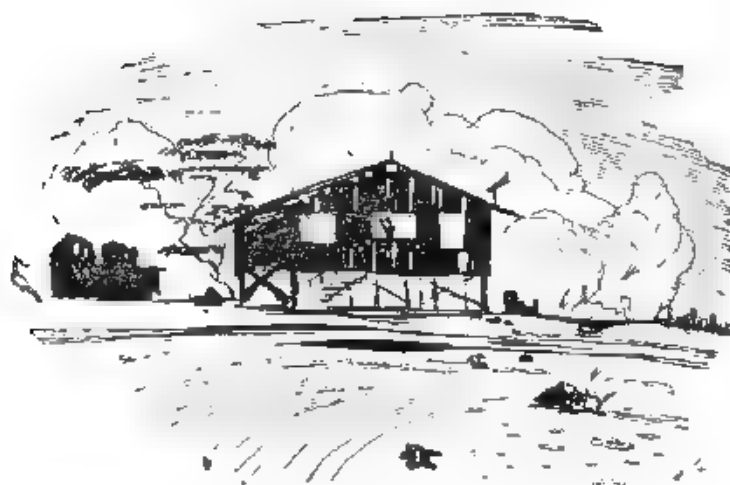
لستقر إلى جواره والعربة تعدو بنا في بهمة الليل .. أني منكم

محطمة .. بعد ذلك اليوم الحافل بالتعاب والحوادث ،

المتعق بالجهد ، والمشقة ، والسير ، والسفر .. ووجدت حفيّ

شاقلاق ، والنوم يتسلل إلى عيني فأسندت رأسي إلى كتفه

ولم أعد أتعب بشيء .



ساعة فضل البئر

ولست أدري كم مرّة من الوقت ، ولا كيف مرّ .. كل
ما أدريه أنى استغرقت فى أحلام متقطعة مختلطة صاخبة ،
رأيت فيها أحمد مشتبكاً مع زوجى . وأبى بعدد رأتى
محاولاً للحاق بى ، وفى يده سوط يوشك أن يهوى به على
ظهري .. ثم رأيتنى أبكى بين أحضان جدتى . وهى تربت
على كفتى قائلة قولها المأثور : لا تكثرى من الآمال ، فإن
وظيفة العبد هى أن يخيب آمالنا ، فلا تعطيه فرصة للشبهة
بك ، ثم رأيتنى بعد ذلك فى ثوب رفاف ، وقد جلست بجوار
أحمد ، وأملت الشيخ المعتم ويده قلبه ودعوره وقد بدا عليه
الغضب ورفض أن يكتب العقد فيمسك أحمد يده يمزقه
تمزيقاً ، ويهوى على الرجل بضربة من يده ترديه صريعاً ،
ثم أبصر الشرطة يكبلون أحمد بالأغلال ، ويسوقونه إلى
السجن ، وأنا أصبح خلفه باكية : أحمد .. أحمد لا تذهب .

وأحسست بالعربة قد وقفت ، ووصل إلى صوت أحمد

يصيح :

— عايد .. عايد .. لا تبكي إني بجوارك .

وفتحت عيني فإذا أحمد بجوارى ، وقد أمسك بوجهي
بين يديه ، وأخذ يمسح دموعي ويهتف بصوت ملؤه الحنان .
— لا تبكي يا حبيبتي ، إني لن أذهب أبداً .

وتشبثت بذراعيه في خوف ، وأنا لم أفق بعد من تأثير
الحلم ، وقلت هامسة :

— لا تتركني .

— لن أتركك .. سأدافع عن مصيرنا معاً حتى الموت ،
لن نفترق أبداً .. إما أن نبقى معاً ، أو نذهب معاً .

ونلت حولي فلم تستطع عيني أن تفترق حجب الظلام
المحيطة بنا ، ووصل إلى أذني دوى مستمر وهدير صاحب ،
فتساءلت :

— أين نحن ؟

— لقد وصلنا .. هذه هي الكاين ، قائمة على يميننا ..
والبحر يهدر على يسارنا .. لست أدري أين أضع العربة ..
الطوية شديدة والرياح تطاير إلى الطريق .

— كم الساعة الآن ؟

ورفع يده بالساعة وأضاء نور التابلو وأجاب :

— الواحدة والنصف .. لقد وصلنا بسهولة والحمد لله ..

لم تمنع العرب . ولم تعترضنا عقبات .. ألم أفل لك إن
الظروف تمهد لنا كل شيء .. سأدخلك الآن .. ثم أعود
لأجد مكاناً للعربة .

— لا .. بل سأبقى معك .. ثم ندخل سوياً ، لا أحسر
على البقاء وحيدة .

— كما شئت ، إنى أذكر أنه كانت وراء الكاين مظلة
خشبية .. أشبه بشرقة في الحديقة .

وبدأ يدير العربة ببطء مسلطاً ضوءها على الكاين ،
كأنه نور كشاف ، وبدأ لنا على الضوء سور خشبي به فتحة
واسعة تكفي لدخول العربة .

واجه أحمد بالعربة نحو الفتحة .. تاركاً أرض الطريق ،
خائضاً في الرمال ، ثم دلف إلى داخل السور ، ووقع ضوء العربة
على قوائمه خشبية ، وقال أحمد وهو يحرك العربة ببطء وتؤدة :

— ها هي المظلة .

ودخلت العربة بين الأعمدة الخشبية ، وأوقف أحمد
الماكينة ، وأطفأ النور ، وتركنا العربة ، وأخذنا تلصق
في الظلة الدامسة .

وعلا صوت المدير من ناحية البحر . . كان بجوفه
معركة طاحنة لا يهدأ لها أوار ، أو كأنه فقص يمجج بالآف
الحيوانات المفترسة الجائعة . . وهبت الريح شديدة
عاصفة . . تحمل إلى وجوهنا رذاذ الماء . . وضمت المظلم
حول عني . . وأمسك ، أحمد ، يدي يقودني وسط الظلمة . .
حتى وصلنا إلى باب ، الكاين ، . . وطرق سمعي صوته مرتفعاً
ضائماً بين هدير البحر وصخبه :

— احترسي . أمامك بضع درجات . أمسكي ذراعي جيداً .
ولم أكن في حاجة إلى نصيحته فقد كنت أمسك بذراع
كأنني غريق بثبث بطوق النجاة .

وأخذ يتحسس يده ثقب المفتاح . . وقال مازحاً :

— تصوّري لو أن صاحبنا أخطأ في المفتاح ؟

— لا شيء . . نبيت في العربة .

وسمعت صوت المفتاح يصر في الثقب ، وصوت أحد

يتهد في ارتياح :

— الحمد لله .

ودفع الباب . . فأرسلت مفاصله صريراً خافتاً ، وعاد

أحمد يقول :

— بقيت مشكلة النور كان يجب أن أحضر ثقاباً أو

بطارية . عقه إحدى مزايا الذين يدخنون . ما بالك ترجعين؟
وكنت حقاً أرتجف . . وكأت أستاذي تصطاك فترسل
صوتاً مسموعاً . . لعنه الرد . . أم لعلها ربه لموقف . . أو
فرط الجهد .

لم يكن عجباً أن أرتجف . . بن العجب أنى بقيت واقفة على
قدمي حتى الآن . . أما المحلوفة الوادعة لساكنة . . التي كانت
أقصى مغامرة أخوض غمارها هي أن أجلس وحيدة في الشرفة .
كيف احتملت كل هذا ، وكيف حرّوت على الأقدام عليه ؟
وعاد صوت أحد يقول :

— هذا مفتاح الكهرباء . . ما في من حاجة إلى ثقاب
ولا ولاعة .

وغمر النور حياة أركان المكان ، وأغلقت عيني لحظة ،
فقد بهرما الضوء بعد أن تعودت طول الظلمة . . ثم فتحها
لأنصر صاله صغيرة . . قد توسطتها منصدة خشبية عارية
وبصمة مقاعد من الفس ، وهويت على أقرب مقعد . وأعلق
أحمد الباب . ثم اقترب مني ، وأخذ رأسي بين يديه ثم وصع
شفتيه على شفتي وهمس :

— أنت متعبة ؟

— جداً .

— لشد ما عابت طيلة يومك . . ها حبيبتى انغالية . . لن
أدعك تتعبين بعد اليوم .
— لن أنعب ما دمت معك .

وكان الحديث ينساب من الشفاه وهى مطبقة بعضها فوق
بعض ، وأسبلت عيني وأحسست بخمول لذيذ .
ولم أفتح عيني حتى بعد أن رفع شفتيه ، بل تركت رأسي
مسندة على ظهر المقعد ورحلت بين اليقظة والسبات .
وسمعت صوته يقول :

— لا تتحركى حتى أعد لك فراشاً .

ولم أنتحرك لأنى لم أكن أستطيع حراكاً . . كنت متعبة
جداً ، وكنت أحس باسترخاء شديد . . كأتى فى شبه إغماء .
ولم أعد أشعر بما حدث إلا كأنه حلم ، فرأيت فيما يروى النائم
أن أحمد أقبل علىّ خملنى برفق بين يديه ، وساربنى إلى إحدى
الحجرات وأرقدنى على فراش . . ثم نزع حذائى من قدمى ،
وأخلى عني معطى ، وأخذ غطاء فدفننى به جيداً ، ثم ركع
بجواري ، وأخذ يغمر وجهى بالقبل ، وأحسست بدمعتين
ساخنتين سيلان على وجهى ، وهو يلمص شفتيه بشفتى . .
وابطلقت من صدرى زهرة حاره حملت معها كل هموم الحياة
وشعرت براحة عجيبة ، آلت إلى نوم عميق ، لا تقطعه الأحلام .

واستيقظت في الصباح وقد سببت لأول وهلة ما حدث
بالأمس ، وأخذت أقلب الصرنيح حولي في دهش شديد ، ثم
بدأت أدرك ما حدث ، وتواترت عليّ صور الليلة الماضية في
سرعة البرق ، وتملكتني خشية ورهبة ، وحاولت أن أفكر
فيما يمكن أن ينتهي إليه أمرنا ، ولكنني لم أترك لفكري العنان
بل انفضت عن نفسي الخشية والرهبة ، وقلت لنفسي إن أسوأ
ما يمكن أن ينتظر أي إنسان هو الموت . . وأمه كان يجب عليّ
أن أثوي في قاع النيل لو أن لديّ الشجاعة الكافية للاحتجار
في الليلة الماضية ، ها يعزيرني أن أضيف إلى حياتي بضعة أيام
هنيئة تساوي العمر كله . . ثم أحتم بعدها الحياة .

يجب أن أنسى كل شيء . . إلا أنني بجوار أحمد . . وأنا
نظن في « الكاين » سويًا بعيدين عن جميع البشر . . كان
الديبا قد خلقت إلّا منا كلينا . . أو كأننا آدم وحواء .

إن من الجنون أن أتلف سعادتي بالتفكير في ما يمكن أن
يحدث . . وأن أترك خلسة الهناء . . التي انتزعها من أيّاب
القدر . . لأشغل نفسي بمتاعب المستقبل .

ووثبت من الفراش . . أوفر ما أكون قوة ، وأقوي
ها أكون أملًا ، مصممة على أن أستغل هبة القدر أقصى استعمال
وأن أنسى ما مضى . . وأغض عيني عما هو آت .

وظفت أُنفس في الحجرة ومحتوياتها ، وكان بها نافذتان
وجاهيتان إحداهما مواجهة وتنفذ منها أشعة شمس الصباح
الدافئة ، والأخرى بجانبية تطل على الطريق وبدا من خلالها
البحر ، وقد هدا موجه ، وسكن نوره ، كأنه قد كلَّ من طول
الصبيح والصخب ، أو كان وحوشه المفترسة الهادرة العاوية
قد أعيها الصراخ فراححت في سبات عميق .

وكان أنث الحجرة عاية في البساطة . . الفراش الذي
كنت أرتد عليه وقد وضعت على حشية ، فرشت عليها ملاة
بيضاء ، وكوم الأغطية التي دثرتي بها أحمد ، ودولاب خشبي
ودسريجة ، صغيرة وأظنة ذات مرآة أشبه بمرآة «لونا بورك» .
وقد وضع عليها مشط وفرشاة للشعر «وعلبة بربل كريم» .
وفتحت الدولاب فوجدت في جانب منه بصعة أرفف وضعت
فيها الملابس ، والمناشف ، وأكياس الوسادات . . والجانب
الأخر بصعة مشاغب علق على إحداها معطفي .

وخرجت إلى الصالة بملابسي التي كنت أرتديها بالأمس
والتي رقدت بها في الفراش إذ كنت لا أملك غيرها ،
وأخنت أبحث عن أحمد . . فإذا به يرقد في حجرة مجاورة
يفصلها عن حجرتي باب مغلق .

ووقفت بباب الحجرة أرقبه وقد أخذ يتنفس في هدوء

وغطى حسده سجادة عتيقة مألوفة . . فأدركت أنه دثرني بكل
ما عثر عليه من أغطية ، ولم يجد ما يقيه للبرد سوى هذه السجادة .
وعدت إلى حجرتي لحملت ما على الفراش من أغطية .
ثم اقتربت من مرشحة على أطراف أصابعي ، ورفعت السجادة
برفق ، ثم بدأت أضع الأغطية فوق حسده ، وعندما انتهت
من تغطيته وجهه يفتح عينيه ويقول صاحكاً :

— لا داعي لكل هذا التعب . . ارفعها ثانية . . لأنني
عزمت على النهوض !

— كان يجب أن نقاصفها . . بدلا من أن تنقل على
جسدك بهذه السجادة الملتزمة .

— لقد تعرّدت التقشف والاختيشان .

وقفز من فراشه وكان يرندى القميص والبطاؤون و... لي
في مرجح واغتيباط :

— كيف أنت الآن ؟

— على خير حال .

— لقد كنت متعبة بالأمس !

— الحمد لله أن وصلت إلى هنا على قيد الحياة بعد كل
مناقبتي من جهد وعناء .

— سأعوزك عن هذا التعب . . يجب أن تستريحى ،

وتدعيني لأعمل كل شيء .

— بالعكس . . يجب أن تترك لي حرية التصرف في
شؤون الدار . . وألا تدخل فيما لا يعينك .

— ألا تريد أن تستريحى ؟

— أمامى عمن كثير فى الدار ، يجب أن ترتدى ملابسك
وتذهب لابتاع ما سأطلبه منك .

— بدأنا الأوامر من الآن !

— إن أوامرى يجب أن تنفذ بحذافيرها .

— هات الثمن مقدماً .

ومد إلى ذراعيه جثة وضجى إليه بعنف وهمس فى فمى :

— أنت لى ؟ .

— وأنت لى .

— لى وحدى بلا شرك ولا منازع ؟ .

— لك وحدك . . الآن ، وفيما مضى ، وفيما بعد . .

ما استطاع مخلوق أن يتزعنى منك .

— أحب رائحة أنفاسك ، ورائحة شعرك . . كنت دائماً

أمنى أن أقبلك وأنت ماهضة من الفراش . . مازال اليوم ينقل

أجفانك . أنت جميلة دائماً على أى حال وفى كل وقت ، ما رأيت

إنساناً يستيقظ من سباته ، بمش هذه الروعة ، ويمثل هذا الجمال .

وأقلت من بين ذراعيه ، وقد ملأني من حديثه نشوة .
ونظرت إلى ساعة يده ، وقد وضعها على المضدة فإذا بها
الثامنة والنصف .

• • •

وفي التاسعة كان يهبط من البيت ، وقد حمل معه ورقة بكل
ما طببت منه . ولم يكده يصل إلى العربة حتى ذهبت إلى الدامة
وصحكت به :

— نسينا شيئاً هاماً .

وصاح بي من أسفل :

— ماهو ؟

— قدح عدس بحبة .

— أما زلت تذكرين ؟

— واخل وشطه لبنة لدقة !

— لا لزوم لها الآن .

— بل لا بد أن تحضرها . . سأريك أني طباحة ماهرة .

• مددته • ،

— سأحاول .

وانطلقت العربة في طريق الكورنش تجاه الاسكندرية
وأخذت أجول في الدار الخشبية ألخص حمراتها ومحتوياتها .

ولم يكن بها عدا الغرفتين اللتين معنا فهما سوى غرفة
أخرى للجلوس وشرفة زجاجية مسعة تطل على البحر ، وكانت
دوره المياه صغيرة ونظيفة ، والمطبخ يكاد يكون مستوفاً
جميع لوازمه من أطباق وكسرولات وأدوات للطعام .

لقد كان الكوخ في نظري نموذجياً ، لا يحتاج إلا لعملية
نظافة . . ولم يكن هناك أقدر مني عليها ، وانطلقت بحاسة
مشيرة عن ساعدي ، ورفعت ذيل فستانى ، ولغنته حول
وسطى ، كأنى حائمة ماهرة ، وبدأت عملية الكفس وتنفيض
الآثاث وإزالة الأتربة عن النوافذ ومسح الزجاج ثم ملأت
« دلوأ » عثرت عليه فى الحمام ، وأخذت فى مسح الأرض ،
ووضعت على المسند غطاء نظيفاً ، وغبرت أكياس الوسائد
وأعطية المراتب وحممت كل ما يحتاج إلى الغسل .

وسمعت صوت العربية تقف أمام الدار ، وأحمد يقرع
الباب ، وفتحت له ، ووقف ينظر إلىّ وهو يحمل بين يديه
كبأ مليء بالحضر والفاكهة ، والحاجيات التى طلبتها منه ،
وحولته يضحك بملء شقيقه ويقول :

« ما شاء الله . . هذا والله منتهى الأنافة . والشياكة .
لا ينقصك سوى « منديل رأس بأوية » . . و « روح من
الخلاخيل » . . من عليك أن تربطى ثيابك هكذا حول

وسطك أيتها الأرستقراطية ؟

— عشتيها .. من عبك أكل ، الكشرى أبو جبة
ومية الدقة .. يا حضرة الأرستقراطي .. ادخل ،

ودعني أحمد ووضع مامعه على المضددة وقال وهو يرفرف :
— عليك من ده يايه يا بنت الناس .. ما كان أغنانا
عن كل هذا النعب .. كما نستطيع أن نتناول غداءنا في أحد
المطاعم ثم نعم بفراغا وحرينا .. لم كل هذا الجهد ؟

— ليس هذا بجهد .. إني سعيدة كل السعادة .. سأكون
معك هكذا دائماً ، ست بيت .. هذا ما أحب أن أكونه .
لقد شيعت فراغاً ، ورهة ، وحرية ، واطلاقاً .. أريد
أن أكون زوجة .. زوجة وغادمة .. لقد ملكت السيادة
الكاذبة والأرستقراطية لرائفة .. كرهت الملاهي والفراغ ،
والدعة والخول .. ألا تحبني هكذا ؟

— أحبك هكذا .. وغير هكذا .. لو سرحت ، بمشة
فول نابت ، لعدوت وراءك في الطرقات .. ولو جمعت
أعقاب السجائر ، لعادت على جمعها .. إني أحبك كبفا
تكوين .. أيتها المخنوقة المثلى .

— هيا .. وكنتي غزلا .

— ماذا تريد مني أن أكون ، سرطوناً ، أم غساة ؟

- لا أريد منك شيئاً ، دع كل شيء لي . اذهب وتزده
- على الشاطئ ، أو احبس واقرض الشعر ، وسأفعل كل شيء .
- لا تكوني عنيدة .. لا .. من معاونتك .. أفشرك
- البطاطس .. أو أصني لك الطماطم ؟
- لا أريد معاونته أحد .. أرح نفسك .
- حسناً .. سأفعل شيئاً طالما تقف إليه .
- ما هو ؟
- أستحم في البحر .
- الآن ؟
- أجل ! .
- لا تكن مجنوناً .
- ولم ؟
- أنتحم في هذا البرد ؟
- ليس برداً .. إن الشمس تدفئ الكون .
- الشمس لا تدفئ شيئاً .. نحن في عز الشتاء .
- لقد تعودت أن أسبح في حمام السباحة ، في مثل
- هذا الوقت . في أول الأمر أحس برجفة .. ثم أتعود
- برودة الماء بمجرد أن أضمن في السباحة .
- نمبدأ في خلع ملابسه بسرعة ، ولف نصفه الأسفل بمنشفة ،

وانطلق يعدو إلى البحر في مروح الاطفال وهو يصيح بي :
 — خذى بالك من « الكشرى » . إياك أن يشيط .
 وتمسكتني عليه في بادی الامر خشية ابرد . ولكنني
 عندما وقفت في الشرفة وأحسست دفء الجو وحرارة
 الشمس اطمأن قلبي وعدت إلى الداخل لأبشر أعمالی .
 ولم أكن جاهلة بشئون الطهى . صدكنت كثيراً ما أنج بنفسی
 في المطبخ . . وأنتهك في الطهى مع « أم حسن » الطباخة . .
 بل كنت في بعض الأحيان أتولى طهى بعض الأصناف وحدى .
 وبدأت في تقشير الخصر وإيقاد الكوانین . . ولم تمض
 برعة حتى كانت النيران تثر تحت الأواني .
 وكانت عملية غسل الملابس والملاءات ما زالت تنتظر
 دورها ، وكنت أحس بغبار السفر وقنارة الكنس والمسح
 تحط على جسدی . . وكان لا بد لی أيضاً من الاستحمام .
 وجمعت ملابس أحمد التي خلعتها ، وخلعت ملابسی ،
 وارتديت المعطف « على اللحم » . وبدأت أقوم بفصل
 الملابس في الخوض وأما أرقب الطعم بين آونة وأخرى .
 وانتهيت من الفسيل ، وبدأت « عملية النشر » على حاجز
 الشرفة كما أذا بالمعطف المجرد ، وأما أحس بنشاط عجيب .
 ولم أك أد أنهى من النشر ، حتى أبصرت أحمد يعنومتوا نبي

ويقفز الدرج ، ثم يقف أمامي ناظراً إلى في دهر وتساؤن :
— والعسيل أيضاً ؟ أقسم أن أحد أجدادك كان غادماً .

— جدى . . أبو أمي ؟

وكان جدما من ناحية الأم مشتركا . . فضحك وأجاب :
— لا . . جحك أبو أبوك بالطبع .

— ادخل لئلا يلفحك البرد . . كفي جنونا . . مارأيت
إنساناً عاقلاً يستحم في البحر في هذا الوقت من الشتاء . .
إن في شفتيك زرقة . . ادخل ولا تقف هكذا عارياً .

ونظر إلى الملابس المبتلة المرسومة على سور الشرفة ،
وهز رأسه في أسف وقال :

— وماذا أرتدى وقد غسلت الملابس الوحيدة التي
أستطيع أن أستر بها جدى ؟ .

— لب جسدك في إحدى البطاطين حتى تجف الملابس .
— حاصر .

ودخل إلى الدار . . وبعد لحظة خرج إلى وقد لف
جسده ببطانية وبدأ كأحد نمائل الإغريق وقال :
— هكذا ينبغي ؟

— جداً . . بك شبه كبير من

— من ماذا ؟ من طرزان ؟

— لا .. من ، أم على ، قائمة القول الثابت .

— أشكرك .

— العفو .. عليك الآن أن ترقب الطعام حتى أستم أنا

الأخرى .

— أراقبه ؟ كيف ؟

— يعني تقف أمامه .

— حتى لا تفر الحل ؟

— لا .. حتى لا يحترق .. اكشف على الحل من آن

لآخر ، فإذا رأيته يوشك أن يحف فضع قدراً آخر من الماء .

— بسيطة .. أهذه كل المأمورية ؟

— أجل .

ودخلت الحمام ، وكنت قد وضعت ماء في ، صفيحة ،

خزن .. ولم أكد أزع المعطف عن جسدي وأمسك بقطعة

بابون ، حتى سمعت طرقاتاً على الباب وأجبت :

— ها .

— الكشري فار .

— أرفع غطاء الحلة قليلاً

وبعد لحظة .. عاد يبق الباب مرة أخرى :

— رفعته .. ومستم في النوران ؟

— دعه يفور كما يشاء .. لا تضايق نفسك كثيراً به .
 — إن منظره لا يعجبني .. لا يبدو كالكشري الذي
 كنت آكله فيما مضى في ميدان السيدة ربيب !
 — سيمعجبك عندما ينضج .
 وبدأت أحب الماء على رأسى وجسدى عندما سمعت صوت
 يصبح من وراء الباب : « عابده » ؟
 — نعم !
 — البطاطس يكاد يحف . أى قدر من الماء أضع في الحلة ؟
 — كوب بكفى .
 ومضت فترة قصيرة ثم سمعته يصيح :
 — لم أكن أظن أن الطهى يمثل هذه السهولة
 ثم علا صوته بعد ذلك يدين بأغنية الجندول ، ولكن
 لم يكذبدا في الأغنية حتى كف عنها وصاح بأعلى صوته :
 — عابده .. الحقى .. الكشري اتحرق .. إني أشم رائحته
 « شياط » .
 — الله يلعن أبو الكشري .. والذي احترق الكشري .
 حاضر .. خارجه حالا .
 وأسرعت بإزالة الصابون عن جسدى .. ثم جففت الماء
 بللشفة .. وارتديت المعطف ، وخرجت إليه فوجدته واقفاً

أمام « حبة الكشري » يتذوق منها بلحقة ويهتف :

— هائل .. لم أذق ألذ منه من قبل .

— لم قلت إذا أنه احترق ؟

— خيّل إلى .

وتأولت منه المتعة وأخذت ألخص بقية « الحلل » ..
وأحسست به يفحصني بطرف عينيه .. وكما تقمصتا صقن
فوجدته يمد شفثيه ويتحسس بهما ذقني وجانب شفثي وطرف
أذني .. وأحسست بقشعريرة في جسدي ، وسمعتة يقول في
صوت رقيق :

— أمت بردانة؟ انظري حتى أحضر لك البطانية الأخرى .
واختفي في إحدى الحجرات ثم عاد حاملا البطانية ولفها
حول جسدي .. ثم حملني بين يديه وسار بي إلى الفراش
بوضعتني عليه برفق وقال :

— عليك الآن أن تستريحى .. سأخذ دورى في العمل .
وسأولى تجهيز المائدة والقيام بدور السفرجى .

— اطنى - الكوانين فقد نضج الطعام .

— حاضر ، لا تتحركى من الفراش ، سأقوم بكل ما تريدى .
وأحسست براحة عجيبة ، وأنا راقدة في الفراش . ويد إلى
أننى طرحت خلى كل ما حملت من أعباء الحياة .

وسمعت وقع أقدامه تغدو وتروح .. وصوت أطباق
توضع على المائدة . وبعد برهة ، وجدته يقف أمامي ويقول
وقد انحنى في احترام بالغ :

- تفضلني يا هانم .. المائدة جاهزة .

وسمعت بالنهوض ، ولكنه وضع يده على كتفي قائلاً
بنفس اللهجة الخائفة :

- لا تتحركي ، إياك أن تتعب نفسك ، سأحملك إلى المائدة .
- أحمد .. كني متخافة .. دعني أسير .

- أبداً .. لا بد من حملك .. إن أمتع شيء لدى في الحياة
هو حملك ، فلم لا تدعيني أحملك .. فتريحيني وتريحني نفسك ؟
وضحكك واستلقيت على الفراش وقلت :

- تفضل .

ورفعت بين يديه وضعتني إلى صدره ، وسار وهو يضع
شفتيه على شفتي ، وأنفه على أنفي وهمس قائلاً :

- واحد شابل روحه .. والثاني تعباني ليه ؟

ورفت في أمام المائدة ونظر إليها معجباً وقال -
- ما رأيك ؟

ولأن ما يزال يحملني بين يديه فأجبت :

- أرجو أولاً أن تضع روحك ، على أحد المقاعد .

— حاضر

وجلس أمام المائدة .. وقد رصّ عليها للصحافة ،
ونظرت إليه معجبة وقلت :

— لا بد أن أحد أجدادك كان سفيراً ،
— هذه المرة .. جدى لأمى .

وبدأنا فى تناول الطعام .. ولا أظنه كان جيد الطهى ،
ومع ذلك فما أذكر قط أن أكلت بشية ، كما أكلت حينئذ ،
ولم نكف عن تبادل النكات والأحاديث المرحطة طيبة الطعام .
ولست أدري ما الذى دفع فى رأسى فجأة ذلك الحاضر
القلق .. فجعلنى أفكر فى كيف يعمل ، أحمد ، هذه الغية عن
عمله ، وماذا ترى سيفعلون به ؟

عن نفسى أنا لا يهمنى قط ما يمكن أن يؤول إليه مصيرى
فكنى أنى استمتعت فى حياتى بهذه الفترة التى أحيأ فيها الآن .
كأنى أن لقيت فى حياتى « ساعة تفضل العمر » .

ولكن هو .. كيف تركته يندفع ملى فى هذه المغامرة ،
دون أن أفكر فيما يمكن أن يصيبه من جرائها ؟

ولا شك أنى كنت أبدر سائمة شاردة ، فقد وحدث
أحمد يهتف بى :

— عايدته .. ما بالك ؟

وهزرت رأسي وأجبت محاولته لضحك :

— لا شيء . .

— بل هاك ما يضحك . . ماذا تخشين ؟

— أخشى عليك ،

— مم ؟

— ماذا سيقولون عن غيابك عن عمالك ؟

— لقد كلمت صاحبي أن يقدم عني طلباً بثلاثة أيام إحادة

عجلية ، ولا شك أن المائد سيوافق عليها . فهو إنسان لطيف .

— ويعد الثلاثة أيام ؟

— يفعل الله ما يريد . لانشغلي نفسك بالتفكير في أي شيء . .

وفي نفس الوقت الذي ساق إلي نصيحتك تلك . . بدا

هو الآخر ، وقد سردهذه ، ففك ضاحكة :

— لقد جاء دورك في التفكير !

— أما ؟ ليس في رأسي شيء . .

— بل به ما يضايقك ؟

— أقول لك الحق . . كنت أفكر في مصيرك أنت .

— مصيري أنا ؟

— أجل . . إني أنا الذي يجب أن أخشى عليك .

— لمه ؟

— كان يجب على "ألا أعريك بالاندفاع معي .. لقد
اندفعنا كالجمارين .. كان يجب علينا التريث .. لقد كنا مثلاً
للعشاق الفدائيين .

— أنظر إلى النعم إلى نفسك ؟

— أنا لا يعني شيء قط .. ولكن أت ؟ .. إنك
ما زلت زوجة ؟

— زوجة ؟ .. لا تقنأ مرة أخرى .. أي زوجة أنا ؟
زوجة ضائعة الحقوق .. مهددة الكرامة .. مسلوقة زوج
لا يستحق السلب .. لا .. لا .. إلى لا أعتبر نفسي زوجة
وأستطيع أن أؤكد لك أن مصيري يمكن أن ينتهي إلى أي
شيء إلا العودة إلى هذا الحيوان .

ومضت يرهقة استغرق كلاماً في التفكير .. وبدأت
أنصوّر حياتي البغيضة وزوجي الكريه .. ولكن سرعان
ما نبضتها عن ذهني كما تنفض الأتربة عن الثياب وقلت لأحمد:
— أرحوك .. دعنا من كل هذا .. يجب ألا نفسد
هنا ما نتذكر الماضي . أو التفكير في المستقبل .. يجب أن
نعيش فقط في حاضرنا السعيد .

وصنط على يدي وأجاب:

— أجل .. يجب أن نلبي كل شيء ما دمنا وحدنا .

وترك المائدة . . ورفعت عنها الصحف وغايا الطعام
 وخرج هو إلى الشرفة . . ثم عاد يقول
 — لقد جف « القسيل » . . مارأيتك في الذهاب سوياً إلى
 الإسكندرية لجول جولة في شوارعها ومنتاع بعض اللوارم ؟
 — كنت أرشك أن أطلب منك هذا . . هيا بنا .
 وبعد لحظات كنا قد ارتدينا ملابسنا . . وأغلقنا الباب
 ثم هبط إلى العربة وسارت بنا تنطلق في طريق الكورنيش .
 كانت تلك هي المرة الأولى التي أحضر فيها إلى الإسكندرية
 في الشتاء . . إني ما ظننت أنها لطيفة بهذا القدر . . أم ترى
 الرضا كأنما في نفسى . . وعين الرضا عن كل عيب كلية ؟
 ليكن ما يكون . . إن حقائق الأشياء لا قيمة لها . . إلا
 بالقدر الذي تراها به . . لقد كنت أحس والعربة مندفة على
 الكورنيش . . والطريق خال والرمال منبسطة . . والبحر يمتد إلى
 ما لا نهاية . . أتى أسير في طريق خاص . . وأن كل ذلك
 البحر والمضا . . ملكنا وحدنا . . لا شريك لنا فيه .
 وصلنا إلى ميدان الرمل وأوقف أحمد العربة . . ثم سرنا
 نجول على أقدامنا .

وكنت أحمل في مافظتي وردة بعشرة جنيهات أعطاها لي
 «توتو» عند تركه إياي في العربة ، وكنت أحس بقيمتها الآن ،

فهي لا شك ستفعلنا نفعا كبيرا . . . وقلت لأحمد أبنته عنها :

— معى عشرة جنيهات .

ثم مدت يدي في الحافظة وأخرجتها له ، ولكنه أجاب مؤبداً :

— أيا أيضاً معى نقود .

— ضعها مع نقودك . . حتى تصرف منها .

— بل ابقها معك . . إن معى ما يكفى .

وقلت له غاضبة :

— أحمد . . لا تكن سخيفاً . . ليس هذا وقت كبرياء

وكرامة . . نحن في حاجة إلى نقود . . وقد نكون نقودك

كافية ولكن إذا أضفت إليها نقودى فستكون أكثر . .

أرجوك كفف عن هذا العناد . . ودعنا نستمتع بوفتنا .

ونظر إلى أحمد ثم ضحك . . وتمدت يدي بالورقة

فوضعتها في جيبه .

واتبيننا من جولتنا وابتعنا ما نحتاج إليه من ملابس

وأطعمة وأشياء مختلفة ، ثم عدنا إلى العربية ، وكانت الساعة

قد بلغت الخامسة والنصف . . وسألى أحمد :

— مارأيتك في الذهاب إلى السينما ؟

— كما تشاء .

وذهبنا إلى إحدى الدور ، ولم نكد نستقر على مقاعدنا
حتى أحسست يده تضغط على يدي وسمعته يهمس .
— أتذكرين أول ذهب لنا إلى السينما سوياً ؟
— عندما تركتنا جدتي وذهبت إلى نفسها هانم ؟
— وعند ما لم نطق البقاء في السينما
— وذهبنا للسير وراء السراي
وساد الصمت لحظة . ثم سمعته يهمس ثانية :
— إني لا أطيع الجلوس الآن .
— ولا أنا .
— هيا بنا .
— هيا . . .

وهكذا انصرفنا من السينما بعد خمس دقائق من دخولنا .
إن الوقت أثمن من أن نضيعه في الإيمان في الشاشة . .
فقد كان كل منا يرى في وجه صاحبه أحمل ما يمكن أن
يرى . . وسمع من شفاهه خير ما يمكن أن يسمع .
وعدنا إلى الدار ووضع العربة مكانها وصعدنا الدرع
نحمل مشترباتنا . . ملء أنفسنا الثقة والاطمئنان .
لم يكن بي من رهبة الليلة الماضية وإن كها شيء . وما كان
بي أقل شعور بالاعتراب أو الوحشة ، بل كنت أحس أني مقبلة

على موطنى الطيبى، ودارى التى ألفت سكناها منذ عشرات السنين.
ودنقنا إلى الداخل . . فلم تفض إلى أبنى رائحة تراب، ولا
صدم عيني منظر خراب، وأحسست بالسكينة وأنا أجد الصالة
مطيفة مرتبة . . تتوسطها المائدة مغطاة بفرش أبيض نظيف
وصع عليه الكوب الذى وضعت فيه بعض أغصان خضراء
وزهور برية قطفتها من الأعشاب التى تحيط بالمنزل .
ووضعت لوازم الطعام فى المطبخ . . ورتبت الملابس
فى الدولاب . . ثم بدأت أعد العشاء . . .
وأحسست بشفتيه تسانى عنق وأنا أقف أمام مائدة
المطبخ وسمعت يهس :
— دعيني أتم عمالك . . واذهي لتخيري ملايست . .
إن هذا دورى فى العمل .
— سأغيرها بعد العشاء .
— بل تغيرين الآن لاني أتوق إلى رؤيتك باليجامة الرقراء .
— قلت لك بعد العشاء .
— لا أستطيع الانتظار .
— لحظة واحدة حتى أنزل اليض، عن الوابور .
وأطفأت الوابور . . ثم تركته يعد المائدة . . وذهبت
إلى حدرتى وأخذت أغير ملابسى، وقد تملكتنى قشعريرة

عجيبة واضطراب لذيذ كآني مقبلة على عرس .
 ووقفت أمام المرأة أرقب نفسي وقد ارتديت البيجامة .
 حمداً لله . . . إني ملازت جميلة . . . بل ما أظنني كنت أجمل
 مما أنا الآن ، لا تظنوا بقولي غروراً ١١ .
 أو ظنوا كما شتم ١١ مقرورة أو غير مقرورة . . لقد
 كنت أرى نفسي جميلة . . وكان هو يراني أجمل . . ماذا بهم
 بعد ذلك إذا كنت فعلاً غير جميلة ؟ ١٢
 ومع كل ذلك — ورغم أنني قد أكون لا أخلو من
 الغرور — فإني أؤكد لكم أنني جميلة .
 وكيف لا أكون . . وأما أبصر صدرى في المرأة ، وقد
 رفع صدر البيجامة . . وتجسد من — وراثها . . وحصرى
 وقد ضمه الحزام ، واستوى من نحته ردي ؟
 ووجهي ١١ إنه ما زال كما هو دائماً . . نصراً . . مثورداً ،
 وشماتي وعيناي وشعري المنساب . . تماماً كما كنت أقف
 في المرأة في حجرتي في بيت الخدائق .
 وخرجت إلى الصالة ، فوجدت أحمد قد أتم إعداد المائدة
 وجلس ينتظر ، وعندما أقبلت عليه رفع بصره إلىي وأخذ
 يحدق في كأنه لم يرني من قبل ، ثم هتف :
 — مذهشة . . .

ثم هز رأسه أسفاً وأردف .
 — كان يجب ألا تغىرى ملابسك إلا بعد العشاء .
 — وله ؟
 — حتى أستطيع التمتع بالطعام .
 — وماذا بمنعتك الآن ؟
 — أنت . . . لئس من بين الطعام ما يستطيع أن يحولنى
 عن النظر إليك .
 — ولا الكشرى ؟
 — ولا الكشرى .
 — هذا تصریح خطير . . أستطيع أن اعتبره انتصاراً
 كبيراً لى . . وهزيمة منكرة . للكشرى . .
 وهممت بأن أجلس أمامه ولكنه صاح :
 — بل بجوارى . . ملاصقة لى .
 — دعنا ما كل . . أرجوك . . دع الغزل إلى ما بعد
 الطعام . . ما جعل الله لرجل من قلوبين فى جوفه .
 — ولكنه جعل له قلباً وبطناً . . فلك القلب والمائدة
 البطن . . اختر بى أرجوك . . لاتضيعى عمرنا سدى .
 وحملت الكرسي جلست بجواره ، وبدأما تناول الطعام
 وهو باكل يده وبمحيط خصرى باليد الأخرى ، وقلت له :

— أحمد .. كل يديك كلتيهما .

— أحسنى أن أغض عيني وأفتحهما فلا أحبك .. أحسنى
أن تفرى من يسي .. هل تصدق أنى كثيراً ما يشرى في الدهن
فيخبل إلى أن كل ما أنا فيه ليس إلا حلاً .. ورنى ساسيقط
بعد لحظات لأجد الحلم قد تبدد وأجدك أثراً بعد عين .

— هبه قد تبدد .. ألا يكفيما ما تتسع به الآن ؟
ألا تعوضنا هذه الساعات .. عن شقاء العمر كله ؟
— أجل ، ولكنى وددت لو يدوم الحلم ، وألا سنيقظ
منه أبداً .

وانتهينا من الطعام ، وعادنا المائدة ، ودلفنا إلى الشرفة
الزاجية المطلقة على البحر وجلسنا متلاصقين على أريكة من
القش وقد أسندت رأسي على صدره .

ورما كل ما في صمت إلى ما وراء زجاج الشرفة ، وكان
هدير البحر يصل إلى آذاننا حائلاً كأنه مبعث من مكان ما
وغور سمج .. والزجاج قد تبدى بقطرات الماء ، وست
السحب من ورائه متقطعة تنقى بين طياتها لقمر جنباً وتظهره
جنباً .. وبدا القمر كأنه يعبو وراء السحب .. وهى تارة
لا تتحرك ، وهو يطل من خلفها بين آونة وأخرى ، وكأنه
يلعب ، استهفاه ، أو كأنه يحذر ما مداعباً ويتسم انسماته

المشرقة يقول : حذار .. إلى أراك ..

وأحسست من فرط المتعة والراحة والشعور بالاستقرار
أنى لا أطعم فى شىء لا البق ، فى مجلسى إلى لآلة .. وأنى
لم أعد فى حاجة إلى أكثر من ذلك .

ولم تتكلم .. فقد كسأتملين فى جلستنا .. ثملين من غير خمر ،
فقدنا القدرة عن أن نأتى بأى شىء حتى الكلام ، ومد أصابعه
يتنخل بها شعرى .. كما تعود أن يفعل دائماً .. ثم أخذ
يتحسس بها وجهى ، ويلس أهداب عيني ثم أننى وشفقتى .
واستقرت أصابعه على شفقتى .. فأخذت أقبلها قبلات
خفيفة أشبه بحس الطائر الفزع .. وأضغظ عليها بأساني
ضغوطات مترفة حنوناً .. شاعرة من ذلك بتمتة عجيبة .

وتمدد على الأريكة واضعاً رأسه على ساقى ، مستنداً قدميه
على حافة الأريكة ، وأخذ كل منا يرنو إلى وجه الآخر وأصابعه
مازال على شفقتى أقبلها حيناً وأضغظ غيماً ، أساني حيناً آخر .
وسمته يهمس :

— أأثقل برأسى على ساقيك ؟

ولم أجب بكلمة .. بل انحنيت برأسى على رأسه ..
وروصب شفقتى على شفتيه .. ومضت فترة صمت كنت أسمع
خلالها دقات قلبينا وحفيف أنفاسنا .

ورفعت رأسي أخيراً ونهض عن ساقى فجلس بجوارى
ثم جاني بين يديه وأجلسنى على ساقيه كأنى طفلة غريبة . .
وأحاط جسدى بذراعيه . . ثم أطبق شفثيه على شفثى . .
وضغط هليماً ضغطاً شديداً حتى تلاصقت أسناننا .

وأغمضت عيني مستسلمة . . وأحسست باسترخاء شديد
ورغبة في النوم . . وهمست به قائلة : أريد أن ألام .

ودون أن ينبس ييب شفثة حملنى بين يديه وسارنى إلى
حجرتى ، ووضعنى رفقى على الفراش .

ثم حمل الأغطية ، فأخذ يدثرنى بها كما فعل بالأمس ، فلما انتهى ،
وقف ينظر إلى فى صمت وتردد ، وسألت فى صوت خافت :

— وأنت . . بمّ ستتعطى ؟

— بالسجادة .

— ألم تشعر بالبرودة فى الأس ؟

— كلا . . لقد كان فيها الكفاية .

وصمت برهة ، وكنت أحس أن المسألة نحتاج إلى شيء
من الشجاعة ، وما أظنها كانت تنقصنى ، فلقد همست فى صوت
حالم ، وأنا أرفع الغطاء وأفسح له مكاناً بجوارى :

— نعال . . دعنا نتشارك الغطاء . . دعنا نتشارك فى كل

شيء : لنوم ، والصبح ، والحياة ، والمات .



۱۶ فرضیج بلا اذن

أخشى أن أنهم بالإباحية والزندقة ، إذا أنا تحدثت بشيء .
عن ليلتنا الأولى . . ليلة تشاركنا في الفراش
والعطاء . . ومزجنا الروح بالروح ، والجسد بالجسد .

أما أعم أنها أشياء لا تكتب ، ولا يقال . فحق في عالمنا
هذا ، المملوء بالمعائب ، ندعى الاشتزاز من الحديث فيما
لا نشعر من فعله . . فضع المنكر لا يعتبر عيباً ، «قدز ما يعتبر
الحديث عنه عيباً . وليس أسهل على الإنسان من أن يبيع
نفسه في الليل ما يشتر من ذكره أو سماعه في النهار .

عالم النفاق والمنافقين ، كلهم يسمون أن أذكر ما حدث ،
ولو كنته لأقبلن على قراءته بلهفة الجائع المحروم ، فإذا ما انتهت
مه هزتهم الرؤوس أسفاً ، وقلبن الشفاة احتقاراً واشتزازاً ،
وقلن : هذه إباحية . . هذا كلام لا يكتب .

أجل معكم حق . إنه لا يكتب ولا يقال ، إنه يؤتى فقط .
كلكم منافقون ، وأشدكم نفاقاً أكثركم تظاهراً بالحرص
على الفضيلة ، وتمسكاً بالأخلاق والتعاليد .
أجل التقاليد الزائفة المافهة .

إن مافهسته في ليلتي يعبر حياته ومسقاً .
أندرون ماذا كان يقصه حتى يضحى هو نفسه بتفاصيله

وحذافيره ، وعلى نفس الفراش ، وتحت نفس الغطاء ، عملاً شريعياً لا غبار عليه ؟ .. شئ بسيط .. غاية في التفاهة .

أندكرون ذلك الشيخ المعمم الذى قرأ وكتب ، وأباح لي يكسبته أن أرقد في فراش إنسان غريب ، وأرتمى في أحضان رجل لا تربط بين قلبنا صلة ولا يشده روحياً عهد أو ميثاق ؟! ذلك العبد النافه هو الذى كان ينقصنى ، لمكى يجعل منى في نظركم امرأة شريفة ، ويجعل مما تسمونه فسقاً عملاً مشروعاً قاتوته حين ترغبون .

إلى الجحيم .. أتم ، وعقودكم ، وتقاليدكم .
هذه سخافات لم أعد أقيم لها وزناً .

إرب روجى الحقيقى هو ذلك الرجل الذى ربطتنى به موافيق الحب .. إن ما فعلته منه مشروع فى عرف نفسى .. أما ما فعلت ، فيما مضى .. فقد كان هو الفسق لا محالة ، الفسق للمشروع بالإنكراه ، إنكراه العفود الزوجية .

هذا من الباحية النظرية .. فإذا أتينا إلى الباحية الواقعية فاقسم لكم أنى جنيت من المتعة فى ليلة واحدة ما لم أجته فى شهور وسنوات .. إنها مسألة تقام وتجاوب قبل كل شئ ، ليست مسألة أوتو مانيكية ، ولا هى بحمد يلصق بحمد ، بل هى قبل كل شئ ، تبادل مشاعر ، وانسياب عواطف ، هى جو

ذاخر بالأحاسيس والانفعالات والحين والحب واللهفة
والشوق .. هي أنفـس تـذوب وقلوب تتحلل ، وأرواح مختلط
وتتخرج ، وما عدا ذلك فهو عبث وهراء ، وعمر يذهب سدى .

فتحت عيني في الصباح ، لأشعر بذراعيه يحيطان بجسدي
وذراعي يحيطان بجسده ورأسي مدفون في حدي صدره وكأننا
روحان في جسده ،

ومضت فترة طويلة وأناخذة إلى كسل لذيذ ونحو لم تمنع ،
لا أريد التحرك أو الاستيقاظ أو النهوض .

كنت أمتع بدفء الفراش وبدفء أنفاسه ، وكنت
أود ألا أستيقظ أبداً ، وأن أضل منظوية بين ذراعيه ،
ملتصقة بجسده ، حتى يطوينا القبر معاً .

وهنا أخيراً ، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة ، دون
أن يبدو أثر لضوء الشمس بعد .. فقد كانت السماء مليدة
بغيوم نقيية معتمة .

وأعددت الفطور ، وكان ، أحمد ، قد اضطجع على أريكة
في الشرفة وبدأ على وجهه تقطيب وشروء .. واقتربت منه
أتحمس شعره برهني ، وأسأله الهوض للطعم .

وأمسك يدي ووضعها على شفتيه وأجاب في صوت خافت:

— لا أستطيع الآن .

وسألت في دهش :

— ما بك ؟

— أشعر بغض بسيط ، وميل إلى القيء .

— أرايت ؟ . ألم أقل لك ؟ . لقد أصابك برد من

سباحة الأمس ؟

وجنست بجوارى ، وأسند رأسه على صدرى ، وأحطته

بذراعى وقلت له :

— لم لم تسمع نصيحتى ؟ أرايت أحداً سواك فى عرض

البحر ؟ . أفى هذا الجو القارس يستحم الناس فى البحر ؟

— لقد كان الجو دافئاً بالأمس ، والشمس مشرقة .

— ولو . . إن الماء لاشك كان كالثلج .

— لقد تعودت من قبل أن أستحم فى الشتاء بالماء .

البارد . . لم تكن هذه هى المرة الأولى .

— ولكنها ستكون الأخيرة . . إنك لم تعد طفلاً . .

يجب أن نسمع نصيحتى . . أين المايوه ؟ لابد أن أحفيه .

وصحك صيحة متعصبة وقال :

— لا داعى لذلك ، أؤكد لك أنى لن أستحم بعد الآن

وأخذت أنحس يديه وجينته ، وقلت له مشفقة :

- بم تحس ؟

- لا شيء منض بسيط ، لا يستدعي ملك كل هذا .

- قم . . يجب أن ترقد على الفراش ، وتدفأ جيداً .

- أؤكد لك أنه لا لزوم لكل هذا . ليس بي ما يستحق

الرقاد أو التدفئة ؟

- لا . يجب أن سترجح ، وماذا يصرك من الفراش ؟

سأذهب لأنني لك . . ففجأز شاى . . وأجلس بحوارك

على الفراش .

وسحبته من يده ، وبدت على وجهه علامات التعب

وهو ينفض من مكانه ، وأحسب كأن المنض الذى به

يمزق أحشائي أنا . . وقت له في لمحجه حنون :

- أتنام كثيراً ؟

- لا . لا . ألم بسيط . يذهب ويحس .

وأرقدته في الفراش ، ثم أحضرت له ففجأزاً من الشاى .

وجلست بحواره وأخذت أرقبه وهو يحتسب الشاى ، فرايته

يتنسم وينظر إلى بطرف عينيه ثم يقول :

- أرجو ألا تحكى على بالرقاد طويلاً باحضرة الدكتور

- لا تسخر منى . إملك في حاجة إلى الراحة .

وتناولت منه الفجآن بعد أن احتساء وقلت له محذرة

وأنا أنهض : « إياك أن تترك الفراش » . !
 ولكنى عدت إليه بعد بضع دقائق فإذا بي أراه أمام
 المرأة ، يحلق ذقنه ، فصحت به غاضبة :
 — أحمد . . يجب أن تلزم الفراش . . أرجوك .
 وأجابني وهو ينظر إلىّ في دهش :
 — عابدة ، لا تكونى مجنونة . . ليس بي أى شىء . .
 لقد ذهب المغص وأصبحت سليماً كالجنى ، ليس لدينا
 وقت لإضاعته فى أوهام المرض والرقاد .
 ثم صمت برهة وأردف :
 — هيا . ارتدى ملابسك .
 — إلى أين ؟
 — سنذهب إلى حديقة الورد ، أرايتها ؟
 — لا .
 — وتعيين بعد ذلك أنك محبة للزهور ! سيضيع
 نصف عمرك إن لم تريها .
 — ولكنى لا أستطيع الخروج قبل الظهر .
 — لى !
 — لدى الطهى ، وتنظيف الدار .
 — ليس هذا وقتك يا عابدة . . ستظفين الدار ، وتطهين

الطعام ، ماشنت التنظيف والطهي .. إن الايام المقبلة كثيرة .
دعينا تتمتع بالانطلاق والزهرة ، والبحر والحدائق .

— ومن يعد الطعام ؟

— نتناوله في الخارج . . في أى مطعم . . .

— أمرك . . .

ثم ترددت برهة وسألته :

— ولكن أوائق أمت من أنك سليم معافى ؟

— مائة في المائة . . كالحصان الشقي المستريح .

وبعد فترة قصيرة كنا نطلق بالعربة ، وقد ارتديت ملوزة
من الصوف ، ووضعنا « إشارب » حول رأسي وأذني ، وكان
هو يرتدي قميصاً وبنطلوناً ويلبس طوبل الأتكام مقفل الباقة .
وسارت بشا العربة على الكورنيش فترة من الوقت ،
والسما مازالت مليئة بالغيوم المتكاثفة والبحر يهدر ، وتعالى
أمواجه ويتطاير منه الزبد ولرشاش . ثم انحدرنا إلى شارع
« أبو قير » متجهين إلى حديقة الورد .

ووصلنا الحديقة ، وهبطنا الدرجات القاعية عند المدخل ،
وسرنا نجول في طرفاتها . . وكانت الحديقة تسكاد تكون
غالية . . إلا من يستأنى يعمل بفأسه في الأحواض ومن أسر
يقصر أحد الأسوار .

وكنا نسير متلاحقين .. وقد تشابك منا الفرعان .
وتلامست الأكف ، وأخذنا نتحدث ضاحكين .

ومست أقول ونحن نقف أمام أحواض الداليه التي
لم ترفع بعد :

— أتذكر يوم أتيت إلى لتجبرني أبك ترقيت وفلت
إلى الحرم ؟

— أجل .. كنت أتوهم وقتذاك .. أني قد بلغت أقصى
الآمل ، وأني أصبحت إنساناً هاماً خطيراً .. ولم يخطر لي على
بال أن أباك سيهزأ بي ، ويردني ملوماً محسوراً .

— لا تذكر هذا .. انزعه من ذاكرتك .. لم يكن
الذنب ذنب أبي وحده .. لقد كان ذنبنا كلياً .
— ذنبنا نحن ؟

— أجل . كان عليّ أن أكون بحاجة ، وأن أبته أنه يستطيع
أن يأمرني بأن أرتدى ما يشاء ، وأنأول من الطعام ما يريد ، ولكن
عندما تصل المسألة إلى الزواج .. فعلتُ أن أتزوج من أشاء ، أنا
وحدى التي سأحتل عبء زواجي ، وأنا التي سأشقي به أو أمتع
وبعد سنوات سيرحل هو عن هذه الحياه ، ويبقى الزوج في
عنتي حتى يموت أحدهنا .. إن حياة المرأة في زواجها ، فلها
وحدها أن تلتقي شريك حياتها . كان يجب أن أقول له هذا ،

وأنت بآني قد اخترتك وحدك دون سائر البشر ، فإن رفض
رفضت ، وإن ثارت .. وكان عليك أيضاً ألا تخضع
وتستسلم .

— أنا لم أخضع إلا بعد أن خضعت أنت واستسلمت .
— حتى بعد هذا كان يجب عليك ألا تستسلم . كان يجب عليك
ألا تكون عاقلاً رزينا كما كنت . فهذه الظروف تستلزم شيئاً من
الجنون .. هل تدري أني في كثير من الأحيان كنت أفكر في
أمك قد تحضر إلي في ظلمة الليل وتختطفني فوق جوادك وتقر بي .
وانطلق يقهقه :

— لو علمت أن هذا يحول مخاطرك ، لأقدمت على
تنفيذه .. على أية حال لقد نفذته في النهاية ، واختطفتك
في جوف الليل ، وإن كنت قد استبدلت بالجواد عربة ..
— لا بأس .. لقد أصبحنا في عصر ميكانيكي .

وشردني الزمن في المستقبل المجهول العواقب ، المستور
وراء حجب من المتعة الطارئة والهناء السريع الأفول .
وقلت له في لهجة أشبه بالدعاء :

— من كان يظن أن آمالنا سنحقق في النهاية ، وأن القدر
سيعدل فجأة عرسونه ومكره السيء ، فبحطم كل تلك الغميات
ويجمعنا في غمضة عين ؟ من كان يظن أن مصيرنا سيتحول مثل

هذا التحول السريع ؟ ترى هل يكون هذا آخر تحول ؟ ..
— من يدري ؟

— ليتحول كما يشاء .. لقد عزمت على ألا أستسلم قط .
لن أتركك مهما حدث .. وأنت ؟
— معك حتى آخر العمر .

وبدأ لي « آخر العمر » كأنه شيء بعيد ، بعيد ، لا يدرك الدهن
مداه .. شيء وراء الآفاق .. كلما حاولنا بلوغه ازداد منا أيا .
« آخر العمر » .. ما أبعد وأشد غموضه ، ونحن في نشوة
الأمل ، وفيض السعادة . لسائل كل منكم نفسه ، عن آخر
العمر .. متى ؟ وأين ؟ وكيف ؟ .. بعيد .. بعيد جداً ..
أبعد من أن نفكر فيه .

ما من أحد منا إلا ويعيش أبداً .. إن حياتنا تبدو
بلا نهاية ، حتى ولو كنا من النهاية قاب قوسين أو أدنى .
وهكذا ملأ قوله « معك حتى آخر العمر » بالسكينة قلبي
وأعم بالطمأنينة روحي

وفضيا اليوم بطوله ونحن نرتع ونترج .. كأننا — على
حد قوله — جياد سليقة في مرعى خصب .. لا تحمل عبثاً ،
ولا تضيق بهم .. لا نعرف من حياتنا أمس ولا غد .
وأجيراً عدنا إلى الدار والظافة قد سقطت ، وكانت

— قد يكون أصابه تنف .. أضيق مصباح الغاز الموجود
في المطبخ .

وعاد يتأره ويئن ، وسأله في صوب مرئيف :
— ما بك يا أحمد ؟

— مغص .. مغص شديد يمزق أحشائي .
وسرت أنحسس طريق في الطلبة الدامسة إلى المطبخ ،
وسمعت الريح تصفر والبحر يهدر ، وقطرات الماء للثة
تساقط على زجاج نوافذ الشرفة ، ولجأة أصاء في الشرفة ضوء
ساطع سرعان ما اختفى ، ثم أعقبه دوى شديد .
وما أضنى قد خفت من قبل من المطر والبرق والرعد ..
ولكن في تلك الظروف القاسية بدت لي تلك الطواهر الطبيعية
كانها جزء من خطة هجومية مخفية يوشك أن يصوبها إلى القدر .
كان كل ما حولي سلسلة متصلة الحلقات من عوامل
الخوف والذعر .

أين أحمد ، والطلبة الدامسة ، وهدير الموج ، وطرقات
المطر ، وعصف الريح ، ثم لمع البرق ودوى الرعد ، كل ذلك
تعاون على أن يحسد لي شبحاً خيفاً يوشك أن يقض عليّ .
وبدأ لي أن دهرأ مضى قبل أن أعثر على المصباح وأوقده
ثم سرت أحله في يدي ، وقد أخذ ضوؤه يرتجف ويهتز .

وعلى صوته الشاحب أبصرت أحمد وقد حاول أن يبدو هادئاً ،
وأن يكتم صيحات الألم التي توشك أن تفلت من صدره .
ووضعت المصباح على المنضدة .. وركعت على ركني أمام
الفراش ووضعت حدى على حده وقلت فى لهجة باكية :
— بماذا نحس يا أحمد ؟ ماذا يوجعك ؟

وأجاب وقد كما شفتيه شبح ابتسامة ،
— لا تقلق نفسك .. تلك نوبة سرعان ما تزول ، لقد
أصبت هامة منسمة ، ورملة منذبضة أشهر ، وقد شك الطبيب
فى أنها لابد أن تكون أعراض الرائدة الدودية . على أية حال
لا بد من إجراء العملية فى أقرب فرصة ، عندما نعود إلى القاهرة .
وكان يتحدث بنبرات متقطعة وصوت متعب منهجج . .
وقلت منسائلة :

— إذا علم يكن ما حدث لك فى الصباح نتيحة برد ؟
وهز رأسه بالإيجاب ، وقلت له مؤنية فى لهجة حنون .
— لم لم تقل لى
— وما المائدة ؟

— كنت أستطيع أن نذهب إلى أحد الأطباء .
— وماذا يمكن أن نفعل ؟ إنها نحتاج إلى عملية جراحية ،
وأولنا نستطيع الانتظار ، فهى ليست مسألة خطيرة ولا عاجلة .

- بم تحسن الآن؟

- أحسن .

ولكنه لم يكن أحسن . . بل كانت حالته تزداد سوءا .
ولم يعد يستطيع الحديث ، وأغمض عييه ، وعاد إلى الأنين
الخافت المتقطع ، وبدأ لي كأن شعيرة تسرى في حسنه .

وعاد البرق يهوى ، والرعد يهوى ، واشتد صفير الرياح من
حلال زجاج النوافد ، ووحدت نفسي أرتجف وأنا أمسك
بيده . . وأحدث أأاده بصوت ملؤه الحنا والنوسل :

- أحمد . . أجبني . . قل بم تحسن ؟ قل شيئا ؟

- آه . . .

ولم يزد عن ذلك ، ومرّ يدهني ما عرفته من قبل من أن
نوبات الزائلة قد تنتهي أحيانا بانفجارها وتسم المصاب
إذا لم يسعف بعملية تستأصلها .

وأحسست أن رأسي يوشك أن ينفجر ، وأنت قلبي
نغوص بين جنبي ، وأن حلقى حف .

لقد قال أحمد إن النوبات انتهت في المرات السابقة على
خير . . ولكن ماذا يحدث لو انفجر في هذه المرة ؟

وقفزت من مكاني كأن أغني قد لدغني .
كيف أجلس هكذا عاجزة ؟ يجب أن أحضر طبيباً . .

يجب أن أفعل شيئاً لإسعافه .

واندفعت من الباب في جنون ، عارية القدمين ، لا يستتر
جسدى سوى البيجامة .

لن يهزمى القدر هذه المرة ، سأقاوم وأقاوم ، لن ينزعه
من يدي أحد ، حتى ولا الموت .

وصدمتنى هبة من الريح ، صفة عاتية ، وأحسست بقطرات
المطر تنهمر على رأسى ووجهى وجسدى ، وكأت الظللة دامية
إلا من تحت البرق . نير الكون برهة ثم تتركه أشد حلكة .
وفى لح البصر كنت قد هبطت الدرج واجتزت عر
الحديقة ، وأخذت أعدو فى الطريق .

إلى أين ؟ . وبمى أستعين ؟

لا أدرى .. كست أندفع فى العدو متطلعة إلى بارقة
صباح . أسأل فيها عن أقرب طبيب .. أو أقرب تليفون ..
أستدعى منه طبيباً ، أو أطلب الإسعاف .

وكأت قدماى ، وتقطعت أنفاسى ، وأنا لا أبصر سوى
ظلمات فوق ظلمات ، وكان الماء يتساقط من شعرى ومن
وجهى ، وثيابى قد التصقت بجسدى مهد أن بللها المطر الذى
ما زال ينهمر من السماء كالليزاب

أما من ضوئها نيراً من كائن حي ؟ .

ثماداً أفعل ؟ حاولت أن أصرح . . فضاعت صرخاتي
بين هدير الموج وعصف الريح .

أيمكن أن يكون ما أمامه حقيقة واقعة ؟ أحماً أسير
على شاطئ البحر في الطلبة الدامسة ، مبتلة الثياب ، عارية
للقديس ؟ أتلك السائرة كاخنايل هي أنا ؟ أم أن كل ما بي
لا يعدو حلياً مزججاً وكابوساً مخيفاً ؟

أحقاً أنى تركت أحمد وحيداً بين الحياة والموت ؟ .
ولكن كيف تركته ؟ يالئ من حمقاء طائشة محونة ؟
كيف فقدت أعصابي فاندفعت هكذا أعدو في الظلام
وأضرب على غير هدى ؟

أما كان يجدر بي أن أبقي بجواره فقد يكون في حاجة إلى ؟
أجل . يجب أن أكون بجانبه . إنى لن أستطيع أن أعثر في
هذا المكان المهجور ، وفي ذلك الجو العاصف ، والطلبة الخالكة
والساعة تربو على الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل على مخلوق
يعينى . . فيجب أن أعين نفسي ، أو على الأصح أستعين بالله .
الذى لا أظنه غافلاً عني ، إذا ما الناس كلهم غفلوا !

وعدت ثانية إلى الدار ، أعدو وأنحبط ، مبهورة
الأنفاس ، مرهقة الأعصاب ، مكدودة الحسد ، وصعدت
للدبح وأما أترنخ كالذبيحة .

ودفعت الباب فإذا بالطلبة تسود المكان ، ولا أثر لضوء
المصباح الشاحب الذي تركت أشعته تتراقص وتهتز .
واندفعت إلى حجرة أحمد وأنا أكاد أتهاوى ، فإذا
بالريح تصفر فيها بعد أن دفعت إحدى التوافذ ففتحتها على
حصراعها ، وأخذت تبحث بها طرقات شديدة مفزعة .
وأغلقت النافذة ، ووقفت في الطلبة ألث . وصحت
أنادى في صوت مبجوح : « أحمد » .
ولم يجنى أحد . ولم أسمع وسط الكون السائد أى
صوت . لا أنين ، ولا نأوه ، ولا حتى خفيف أنفاس .
وتذكرت الزائفة البودية ، والانفجار ، والتسمم .
وانطلقت منى صرخة مدوية . . صرخة لا تفرق عن
صرحات المجانين ، وأخذت أنادى :
— أحمد .

وما من مجيب .
وركعت على ركبتى أتحسس الفراش ، وأخذت يداى
أتحسسان جسده ، واستقر وجهى على وجهه وأنق على أنفه
وأحسست بأنفاسه تتصاعد خافتة متقطعة .
حمدا لله . . إننا ما زلنا معاً . . في حياة واحدة .
ونهضت أتحامل على نفسى . وألبس طريقى إلى المصباح

العلوى ، حتى أوقفه ، وقد كنت فى أشد الحاجة إلى بهيص
من الضوء يشلى من أعماق تلك الطلقات الخفيفة .

وأوقدت المصباح ، وعاد ضوؤه يتراقص فى يدي ويهتز
واقتربت به من أحمد ، ونظرت إلى وجهه ، فإذا به شديد
الشحوب ، جامد الملامح ، كأنه تمثال من الشمع ، وقد
أحاطت بغيره هالة سوداء زرقاء .

ولمحت جفنيه يرتجفان ، ثم أخذ يفتح عينيه بتأقل
وسمعت همساً
— عابدة .

وركعت بحواره وأجبت فى صوت حاولت جهدى أن
أجعله طبعياً :
— أحمد . . إني بحوارك .

— اقتريني . . ضعى يدك على شفتي ،
ووصمت يدي على شففيه فمرت منهما فى جدى
قشعريرة جعلتني أمتعضر انقفاصة الطير الذبيح .
وعاد أحمد همس :

— إني أحبك يا عابدة ، وأحب الحياة من أجلك . . كم
وددت ألا أتركك وحدك فى هذه الدنيا .
— لا تتكلم هكذا يا أحمد . . أنت مخير يا حبيبي .

— أنا بخير ما دمت بجوارى . دعيني الخمس شعرك .
 ويد يده يبط . ووضعها على رأسى ، ثم عاد يهمس -
 — إن شعرك مبتل . . وكذلك ثيابك . . له ؟
 . لقد كنت في الخارج . . وكان امطر ينهمر بشدة .
 — إنك ستصابين بالبرد لو بقيت في هذه الثياب . أرجوك
 أن تستبدلي بها غيرها . كيف خرجت وحدك في الظلة ؟
 — كست أحاول أن أستدعي طبيباً .
 — طبيب ؟ وما الفائدة ! بعد انتهى كل شيء . . إنى أحس
 الألم يسرى في جسدى ، لقد ذهب الألم ، وذهب العمر معه .
 وصمت أحد . . ولم ينس بعد ذلك عينت شفة .
 أجل . . لقد بلغ آخر العمر

* * *

آه من القدر ومن سخريته المريرة !
 « آخر العمر » . . الذى كان يبدو لنا منذ بضع ساعات
 لا يزيد عن مجرد كلمات ليس أسهل على المرء من أن ينطق
 بها . . دون أن يحاول أن يفهم لها معنى . . فبى أبعد من أن
 يحاول الذهن مجرد تصورهما .
 « آخر العمر » . . البعيد . . المرهوم . . المزعوم . .
 قد بلغناه في غمضة عين !

بن يوم وليله قد قطعنا الطريق الذي كان يبدو بلا نهاية
ووضحت لنا هابته بشعة مخيفة .

هل تستطيعون أن تصوروا حالى وأما أركع بحوار
نراشه . . وقد كف عن المطلق ١٩

لكى تدركوا حالى جيداً . . يجب عليكم أن تعرفوا أولاً
أنى لم أبصر ميتاً فى حياى من قبل . . وما عرفت فظ كيف
يموت الإنسان . . بل كان الموت والموتى والمآتم والقبور ،
ومعدات الدفن ، والجنائزات ، كلها أشياء لا أكاد أعرف عنها
إلا ما يعرف الإنسان عن الأشباح والنفاريت . . كانت
أشياء بعيدة عن ذهنى . . أتصورها مخيفة مهمة غامضة .

كثت إذا سمعت صراخاً من يهد افشعر بدنى . . وإذا
رأيت مرادق ميت أحسست بفشاوة على عيى

تصوروا بعد كل هذا . . أجد نفسى وحيدة فى مهمة
الليل . . الربح تصفر من وراء النوافذ وتتن وتقول وترن ،
والضوء الشاحب يرتجف ويهتز ، وأنا جالسة . . أمام ميت ١١

والى ميت ١١

لا . . لا . . لا يمكن أن يكون ميتاً . . من المحال أن
يموت أحد . . إنه مازال أمامى كما هو ، بعينه ، وشفتيه ،
رقامته الطويلة الممدودة على الفراش .

سأقبله كما تعودت أن أقبله . . لا بد أن توقظه حرارة
شفتي ، ودفء أنفاسي .

وأحسست من شفتيه برودة خفيفة ، ولم أشعر بصيد
أنفاسه الذي كان يلفح وجهي .

وأخذت أناديه في صوت متحشج مبحوح :

— أحمد . . أحمد . ؟ أنا عابدة يا أحمد !

وخيل لي أن أسمع صدى صوتي يجيب علي . أحمد . .

أحمد ، كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ لاى حكمة ؟ ولاى
سبب ؟

منذ لحظات كان ملء يدي ، وملء أحضاني ، والآن
أجده مسجى لأحراكي به . . أناديه فلا يجيب ، وأقبله فلا
يشعر . . وأبذل بدمعي وجهه فلا يسألني : لم أهلك ، وهو
الذي ما روعه في الحياة شيء كبكائي ؟

هل يمكن حقاً أن يذهب هكذا . . بمثل هذه البساطة ؟
أيذهب كأن لم يكن ، ويصبح ميتاً كلابس الموتى الذين لم يبق
منهم إلا أديم الأرض ؟

ماذا يفعلون بالموتى ؟ ليست لدى أمل فكرة ، إلا أنهم
يوارونهم التراب .

أما أوارى أحمد التراب ؟

أما أتركه بـدفن وحيداً في باطن الأرض ؟

لا كنت ، ولا كانت الأرض ، ولا كانت السماء !

لا .. لا .. ليفعل الناس بموتهم كقـف شاهوا .. أما أنا

فـسأفعل بميتي الحبيب ، ما يحلو لي ، لن أتركهم يأخذونه مني ..

لن أتركهم يوارونه التراب ، فـأواه بين ذراعي ، لا بين

الأحداث .. إني لن أتركه ، ولو أطبقت السماء على الأرض .

سأنام بجواره ، وآخذـه بين أحضاني ، سواء عدى

أ كان حياً أم ميتاً .. إن أحمد سيبقى أحمد ، لن أعترف بفعل

القدر ، ولن أدع أحداً يـزعه من بين ذراعي .

ليشعر .. أو لا يشعر .. ماذا يضـبـرني ما دام يرقد

بجـواري وأرقد بجـواره ؟

لقد بدأت ألـول خيوط الفجر تنسل من نسيج الليل المعتم .

وهو ما زال بين أحضاني جثة هامدة ، وجسداً لا حراك به .

ألا يحتمل أن تعود إليه الحياه ؟ أليس الله بقادر على

كل شيء ؟ قادر على أن يحيي العظام وهي رميم ؟

هذه ليست عظاماً ولا رميمها .. بل لم نصبح بعد كـذلك ..

فهـي ما زالت .. أحمد .. كما هو .. وكما كان دائماً .

ليعيدـه الله إلى .. ليحيـه لي .. ما فائدة قـدرته تلك إن لم

يعد إلى أحمد ؟

ولكن لم أخذه؟ ولم أعطه لي ، إذا كان ينوي أخذه
مثل هذه القسوة؟

لم يفعل معي كل هذا؟ أنا المخلوقة الضعيفة .. التي
لا حول لها ولا قوة إلا به .

لم يسخر مني هذه السخرية؟
إني أكره الله كما كرهني .. إني أكفر به لما قسا عليّ ،
لقد كنت ملحدة بالحب ، فأصبح ملحدة بالله ، وبكل شيء .
إني لم أفعل ما أستحق عليه كل هذا .

ولم هذا التدبير المفضح المحكم؟
لو أني فقدته قبل الآن .. لكنت أستطيع أن أصبر ،
وأنجلى .. وأحتمل .. ولكن ، لأن .. وبعد أن أصبح لي
وحدى .. الآن بعد أن قرب الكأس من شفتي .. أنا المهبوبة
الصادية ، التي طال بها الظمأ والجحيم ، وبعد أن أحسبت
بقضرات الماء تبل شفتي ويندي على روحي ، تنزع مني الكأس
وتحطم على صخرة الفناء ، ويراق ما بها في وادي الموت .
لم يارب كل هذا؟ أتراني بحاجة إليه أكثر مني؟

هؤلاء البشر .. كلهم عبيدك الذين يملكون رحاب الأرض . ألم
تجد بينهم من يغنيك عن أحمد؟ المخلوق الوحيد الذي أملكه
في هذه الأرض ، بين الملايين من المخلوقات التي تملكها أنت؟

لا .. لا .. هذا كثير .. أعدّه إلىّ يارب .. ردّه إلىّ .

ألا تسمع !

أنت موجود يارب .. أنت لاشك تسمع .. ردّه إلىّ .
ردّه .. أو لا تردّه .. إني لن أتركه .

سأحكم غلق الباب والنوافذ . سأحصن داخل الدار ..
سأتحدى الأرض والسماء .. ليتقدم من يشاء لأحده
وسأريه كيف تكون العاقبة .

إني أحس برجفة شديدة . هادألت ثيابي مبتلة .. لقد
أمرني بتغييرها .. انظر سأعود إليك حالا بعد تغييرها .

سألف جسدي في البطاية .. غانا أعرف أن منطري
هكذا يعيبك .. لا حاجة بك إلى الرد علىّ .. فبني أستطيع
أن أصبر ردّة .. إنما أستطيع الفهم دون أن يكون بك
حاجة إلى الكلام .. إني أعرف كل ما يسور بذهنك .

وارميت متهاككة على أحد المقاعد .. وأغصت عيني ..
لشد ما أنا محبذة متعبة .. واستغرقت في إغفاءة .. ملوثة
بحليط مهوش من الأحلام .. تارة أجدني أرف إلى أحمد
وتارة أجدني غريقة معه .

وهبت من إغفائي .. لأجد الجسد المسحي أمامي ..

ولاجد كل شيء كما هو .. كل شيء موحش خرب ..
وفضرت أمانى .. فإذا بي أرى امرأة غريبة .. امرأة
شاحبة الوجه .. حمراء العينين .. مشوشة الشفاه .. أشبه
بالمجانين .. ترى من تكون ؟
إنها تلف جسدها في بطانية .. مثل يمامة ..
من هي ؟
إنها تتحرك كما أنتحرك ، وتهز رأسها كما أهد رأسى ..
واعجباً ! .. إنها أنا !
أجل تلك هي صورتي في المرأة ..
ما أشد شبيهى بالمجانين ، ولكن أجننت فعلاً ؟
لا .. لا .. إني مازلت بعقلي ..
ولكن هل يدرك المجانين أنهم مجانين ، أم يحسون كما
أحس بأنهم في تمام العقل ؟
يجب أن أهدى نفسي .. وأن أحاول التفكير .. تفكيراً
منتظماً كالعقلاء ..
من أنا ؟ وماذا فعلت ؟ وماذا أنوى أن أفعل ؟
أنا امرأة .. هاربة من زوجها ، لا يعرف الناس عنها
إلا أنها امرأة غائبة فرت مع عشيقها ..
ليكن .. إنه لا يهمني ما يقول الناس ..

ماذا حدث لى ؟ لقد مات أحمد . . مات عشيقى فى نظر
الناس ، ومات ترأى نفسى فى نظرى . . مات المخلوق الوحيد ،
الذى يربطى بالحياة والذى يستحق من أجله أن أحيأ . .
لقد ضاعقت منى الديمة التى حاولت اختلاسها من القدر . .
لقد استعادها هو مرة أخرى وإلى الأبد .

والآن يرفد أحمد أمانى ، مسحى على الفراش ، جثة
هالمة ، لاحتراكها . . ماذا أنوى أن أفعل ؟

أحفظ به ؟ أقبه هكذا أمدى إلى الأبد ؟

هذا هو الجون بعينه . . لن أستطيع أن أحتفظ به .
فلقد تسلسل من بين يدى . . لقد ذهب . . وكل ما يمكننى
الاحتفاظ به ، هو جسد سيئحل ويتعفن ، ولا يضحى به
شئ . من أحمد . . بل سيضحى . . جيفة سة .

إنى لن أستطيع أن أقبه ، ولكنى أستطيع شيئاً آخر ،
أكثر سهولة . . إنى أستطيع أن أذهب معه .

أحل . . تلك هى حبر وسيلة ، لكى لا انفترق .

لقد كان هو كل ما فى الحياة ، وما دام قد ذهب
ماذا يبقى ؟

° ° °

وأحببت بالراحة والاستقرار ، وشعرت أنى مت سيدة

الموقف ، وأن حزنى قد تبدد . وعلام الحزن ، وأنا سألتحق به
بعد لحظات ١٩

سندهب سويآ ، سأترك للناس ، جسداً آخر ، يعيشونه
بألسنتهم الخداد .

ولكن لم ؟ إني مظلومة . . أبعد كل مالقيت ، أذهب
هكذا مشبعة باللغات كأي مذنبه مجرمة ؟
أما يجب أن أدافع عن نفسي ؟
يجب أن أقول شيئاً .

إني الآن جامدة الحس ، ماردة الأعصاب ، أستطيع
أن أجلس فتمتلى السهولة ، وأكتب لكم هذا الشيء .
أجل هذه هي كراسة أحمد التي كان يقرض فيها الشعر ،
والتي لم تكن تفرقه أبداً . . إنها غير ما أكتب فيه قصتنا .

إن الساعات تمر ، وأنا مكبة على المنضدة ، وأحمد واقف
ورائى على الفراش . . إني أكتب وأكتب ، ولا أفعل شيئاً
غير الكتابة ، لا آكل ولا أمام .
ما حاجتى إلى الأكل واليوم ، وأنا سأعادر هذا الجسد
الفانى بعد قليل ؟

إن الشمس تشرق وتغرب ، والليل يكرر في إثر النهار ،

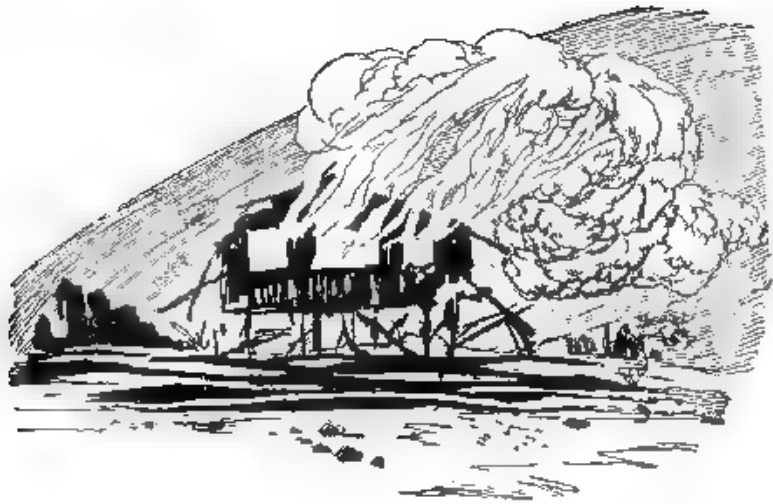
والتهل في إثر الليل ، وأما لا آبه الليل ولا نهار ، لتشرق الشمس
وتغرب كما نشاء ، إن أكرهها ، إنها جامدة قاسية ترف مآسى
البشر .. بلا حس ولا شعور ، ما احتجبت قط لحزن ولا أسى
لقد انتهت من الكثرة .. انتهت من تسجيل دفاعي قبل
أن أرحل ، ولست أدري بعد هذا ، كيف سيكون حكمكم علي ؟
ليكن ما يكون ، فما أطنى سآه له كثير أ بعد أن أذهب
عن دنياكم

سأضع الكرسي في حنية جلدية ، وأنفبها من الافة ،
ثم أشعل النار في الدار .. سأحضر أحمد ، حتى تحترق سوياً ،
وحتى يفنى جسداً تامعاً ، ويختلط منا البخار ويمزج الرماد ..
تلك هي خير نهاية .. لن نفترق لأجداً ولا روحاً ..
إنى أعلم أن الله لا يرضى عن الإفحار ، ولكن حتى هذا
لا أدري له سبباً .

عجاً !! أ بعد كل ما فعل بي ، يجبرني على القاء في دنياه ؟
ألا يبلى .. حتى حربة الخروج منها ؟

اللهم اغفر لي كفرى وإلحادى .. اللهم اغفر لي فرارى
من الدار القاسية إلى الدار الباقية .. اللهم اغفر لي صعودى
إليك بدون إذنك .

ولكن .. لا .. إن كل شيء في الحياة لا يحدث
إلا بإذنك .. إياك غفور كريم وحيم .



الخاتمة

بهمة الليل . . وحطكة الدياجير . . والكواكب
 في ترتجف في السماء شاحبة ذابلة تغلب في الأرض
 مفلا أرمدها البكاء . . وكسف أضواءها الحزن . . والريح
 تعصف صرصرأ عافية . . تصرخ بالبكاء . . وتصدع بالعويل .
 والبحر يهدويزعجر . . فائحاً ملتاعاً . . يلطم بكف الأمواج
 ضد الصخور . . ويسكب من الرذاذ بحر الدموع .

وسط هذا المأتم القائم بين السماء والأرض وفي هذه
 الخنازة المشبعة من عناصر الطبيعة النائرة القانطة المعولة
 النخلة، السائمة الوجود، الطالبة للنساء، المنردة بالخطوب
 والشدائد، بدأ الكوخ كالميث المسجي، أو كسراب الأمل
 الضائع في بلقع العيش، أو كالصدي المنبدد لمتعة عاره .

لو تراء عمت أن الليالي

جعلت فيه مأتماً بعد عرس

في هذه الزوينة الصارخة اليكبة . . بدأ الكوخ في
 سكونه وصمته لا يكاد يسمعه من جمرات الخرفة وشعل
 الجوى . . بل بدأ حربناً على وحشة الليل وعويل
 للرياح . . يربط الجيش على هول ما يحدث فوقه وتخته من
 أحداث ونوائب .

وجاهة تعالت من جوانبه التي لفها الليل بحلته السنة
من طب .. بدا كل منها في أدل الأمر ضيلاً غائياً ، يضطرب
في مهب الريح ويرتجف .. يكاد يحبو كلما عصفت به الهبة
تلو الهبة ، فهو يرق وينطفي . ويحمد ثم يعلو .
ولكنه أخذ يشتد عل الريح ، ويقوى على العواصف .
وتعلل في الظلام جريئاً متحدياً ساخراً بكل ما قوة
وما حوله ، مبدداً من ظلمات الليل ما لم تستطعه الجحوم
المرتجفة الكاسفة . ومستمدداً من عصف الريح قوة ، ومن
هدير البحر أنعاماً يترافض عليها ، مضيفاً بصغيره لحناً جديداً
إلى ألحان السواح والعيول في مآتم الطبيعة . مشاركاً العناصر
الصاحبة في أنشودة اليأس والفناء .. مقدماً نفسه زميلاً في
الخطب ، وشريكاً في البأساء .

وهكذا استمرت الريح العاصفة واللهب المتأحج والبحر
الناثر تنشأ لحنها رثاء لما درس من داهب الحب وباتد الهوى ،
مشبعة المراحين بأنفاس ملتهبة اللظى بحدمة السير ، وقطرات
من الدموع ثقيلة بالحنون مقعقة بالجوى ، وأخيراً حفت
اللهب ، ونغدت النيران ، وطوت العليقات أضواءه ..
وأسكتت صغبره .. وهبت الريح تذرروا الحشيم كما ذرت
من قبل ريح الحياة دارس الأمل وضائع الرجاء .

ولاح ضوء الفجر .. على سكون سائد ، وصمت محم ..
كان الطبيعة قد انتهت من ماتمها وعادت من حذارها متعبة
منهكة .. فلا موج ولا نو .. ولا رباح هوح .. بل الكل
مخلد إلى الهدوء ..

والكوخ قد عفت آثاره فلم يبق منه سوى قائم أسود
أشبه بشواهد القبور ، يشهد بأنه في هذه البقعة تماقت
روحان لم يستطع الموت أن يفرق بينهما ، وأنه فيها
ازدهرت شجرة حب وفيها صوحت وماتت ..

وعلى مقربة من أكوام الرماد والسخان والبقايا المحترقة
شوهدت حقيبة جلدية لم تتناول إليها ألسنة اللهب وقد
فتحت ، وأخذ النسيم يعث بأوراق كراسة جا .. هي كل
ماتبقى لبروى لنا قصة وراحة ..

ونحت الأنقاض المحترقة .. استقر هيكلا متعانقان
لم يبق منهما إلا ذوب رميم أو فتات هشيم ..

فهرس

صفحة

الإهداء	٥
مقدمة الطبعة الأولى	١١
..... الثانية	١٠
الفصل الأول	١٧
..... ملحة	١٧
..... الثاني	٢١
..... الثالث	٥٣
..... الرابع	٧١
..... الخامس	١٠١
..... السادس	١٢١
..... السابع	١٣٧
..... الثامن	١٦٩
..... التاسع	١٨٧
..... العاشر	٢١٣
..... الحادي عشر	٢٤٧
..... الثاني عشر	٢٨٦
..... الثالث عشر	٣١٥
..... الرابع عشر	٣٤٢
..... الخامس عشر	٣٧١
..... السادس عشر	٤٠٥
الخاتمة	٤٣٥

مطبعة الستة الحميدية

الناشر
مكتبة النخاعي بالقاهرة

